وبِالحَقِّ أَنْزَلْنَاه

أدهم شرقاوي

2023

kalemat

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاه

وبِالحَقِّ أَنْزَلْنَاه

أدهم شرقاوي

دار كلمات للنشر والتوزيع
البريد إلكتروني:
Dar_Kalemat@hotmail.com
الموقع الإلكتروني:
www. kalemat.com

الإهداء

بعدَ عَقْدِ قِرَانِي على زوجَتي،
قامَ إليَّ وصَافحَنِي، وبارَكَ لي، وعانَقَنِي، وقال:
كان عندي ثلاثة أبناء، الآنَ صَارُوا أربعة!
وطوالَ كلّ هذه السّنوات كانَ ليَ أباً وصَدِيقاً،
أَحبّنِي وأحبَبْتُه، وآنَسَنِي وآنسْتُه، ثمّ فرّقنا الموت!
إلى والدِ زوجتي، المُربّي الفاضل، الأُستاذ محمد السّيد أبو حاتم،
أُهدي هذا الكتاب، سائلاً المولى أن يُجريَ عليه أَجْرَه!

1

كان هـذا الكوكبُ غارقاً فـي الضَّلالـةِ مـن أعلـى رأسِـهِ حتـى أخمـص قدميه،
اليهودُ حرَّفوا التَّوراة، والنَّصارى زعموا أنَّ للّهِ ولداً،
والعربُ ملأوا بيتَ اللّهِ بالأصنام وعبدوها من دونه،
فإن كان هذا هو حال الذين نزلتْ فيهم الرِّسالات،
فعن غيرهم حدِّثْ ولا حرج!
وبينما هذه البشريَّةُ كذلك، نظرَ إليها الرَّحمنُ نظرةَ عطفٍ،
فتحنَّـنَ عليهـا علـى عادتـه، وتكـرَّمَ كمـا هـو دومـاً، وتمنَّـنَ كمـا هـو دأبـه!
عمَّـا قليـل ينـزلُ مـن غـارٍ مُظلـمٍ فـي مكَّـةَ رجـلٌ يحمـلُ النُّـورَ ليُضـيءَ هـذا الكوكـب،
كان قد بلغَ من العمرِ أربعين سنةً،
اتقدَّ عقله بما يكفي ليفهمَ الوحيَ ويُفهِمَه للناس،
ونضجتْ عاطفته ولانتْ ليفيضَ حُبّاً ورحمةً،
ومن قبل هذا بكثيرٍ في ديارِ حليمة السَّعديَّة غُسِلَ قلبُه،
وصار الآن كلُّ شيءٍ مهيأً لتبدأ الرِّسالة التي كُتبَ لها،
أن تُغيِّر ملامح هذا الكوكب إلى الأبد!
وكتهيئةٍ لهذا الرَّجلِ العظيم الذي كان يُعَدُّ على مهلٍ لهذه الرِّسالة،
أوَّلُ ما بُدِىءَ به من الوحي الرُّؤيا الصالحة في المنام،
فكان لا يرى رُؤيا إلا وجاءتْ بعد ذلك كفلقِ الصُّبحِ،
ثُمَّ حُبِّبَ إليه الخلاءُ، فكان يخلو بنفسه في غار حراءٍ،

فيتحنَّثُ فيه الليالي ذوات العدد، ثم يرجعُ إلى خديجة،
المرأةُ التي ستكون فيما بعد جبهته الدَّاخلية، وأقوى جنوده،
وفي وحشة الحياةِ يحتاجُ الرَّجلُ إلى قلبِ امرأةٍ!
وفي إحدى خلواتِه في الغار نزلَ عليه جبريل بأوَّل قبساتِ النُّور،
وقال له: اِقرأْ!
فقال: ما أنا بقارئٍ!
فقال له: اِقرأْ!
فقال: ما أنا بقارئٍ!
فقال له في الثالثة: اِقرأْ!
فقال: ما أقرأُ؟!
فقال له: ﴿اقْـرَأْ بِاسْـمِ رَبِّـكَ الَّذِى خَلَـقَ خَلَـقَ الْإِنسَـانَ مِـنْ عَلَـقٍ اقْـرَأْ وَرَبُّـكَ الْأَكْـرَمُ الَّذِى عَلَّـمَ بِالْقَلَـمِ عَلَّـمَ الْإِنسَـانَ مَـا لَـمْ يَعْلَـمْ﴾!
فنزل من غار حراءٍ يرتجفُ من هول الوحي،
كان بإمكانه أن يذهبَ بقدميه إلى أبي طالبٍ عمّه الذي اعتادَ أن يحوطه ويرعاه،
أو إلى أبي بكرٍ صديقه الوفيِّ، وموضع سرِّه،
ولكن ذهبَ بقلبه إلى خديجة،
ثمّة مواقف في هذه الدُّنيا لا يحتاجُ فيها المرءُ أكثر من حضن!
وصلَ إليها وهو يرتجفُ ويقول: زمِّلوني، زمِّلوني!
فغطَّته، وضمَّته، وهدَّأتْ من روعه،
ولما ذهبَ عنه الرَّوع، حدَّثها بما كان، ثم قال لها: لقد خشيتُ على نفسي!

فقالتْ له: كلا واللّهِ ما يُخزيكَ اللّهُ أبداً،
إنَّك تصلُ الرَّحم، وتحمِلُ الكلَّ، وتكْسِبُ المعدوم،
وتُقري الضيفَ، وتُعينُ على نوائب الحق!
ثُمَّ ذهبتْ به إلى ابن عمِّها ورقة بن نوفل، وكان شيخاً كبيراً قد عُمِيَ،
وكان قد تنصَّرَ في الجاهلية، وكتبَ الإنجيل بالعبرانيَّة،
فقالتْ له: يا ابن العمِّ، اِسمَعْ من ابن أخيكَ!
فقال له ورقة: يا ابن أخي، ماذا ترى؟
فأخبره النبيُّ ﷺ خبرَ ما رأى،
فقال له ورقة: هذا النَّاموسُ الذي نزل على موسى،
يا ليتني فيها جَذَعاً، ليتني أكونُ حيّاً إذ يُخرجكَ قومُكَ!
فقال له النبيُّ ﷺ: أَوَمُخرجيَّ هُمْ؟!
فقال له: نعم، لم يأتِ رجلٌ قط بمثل ما جئتَ به إلا عُوديَ،
وإن يُدركني يومُكَ أنصُرْكَ نصراً مُؤزَّراً!
ثُمَّ ما لبثَ ورقة أن توفيَ، وانقطع الوحيُ فترةً!

الدَّرسُ الأوَّل:

على بعض الأشياءِ أن تتأخر لتأتيَ أجمل!
إنَّ اللّه سبحانه يختارُ من الأوقات أدقَّها،
كلُّ دعوةٍ دعوتَ اللّه بها وتأخرتْ عنكَ فهذا ليس أوانها،
ثِقْ بحكمة اللّه، وردد بقلبٍ ممتلئٍ باليقين:

لقد استجابَ، ولكنه يهيِّئُ الأسباب!
وكلُّ همٍّ نـزلَ بـكَ فهـذا أوانـه، وهـل يعتـدِلُ النـاس إلا تحـت وطـأة الأيَّـام،
وحدهـا النَّـارُ تُخـرِجَ خَبَـثَ الحديد وتصقلـه، ولـولا وهـج التَّـنور لبقـيَ الخبـز عجينـاً!
كان علـى النبـيِّ ﷺ أن ينتظـرَ أربعيـن سـنةً ليصبـحَ العظيـمَ الـذي عرفنـاه،
ثمة مسؤوليات لا بُدَّ لها أن يبلغَ العقلُ أوجه،
والعاطفة أن تتزنَ لتنقادَ لا تقودَ،
أما علمتَ أن الخضرَ قد أخبرَ موسى عليه السلام،
أنَّ على اليتيمين أن يبلغا أشُدَّهما أولاً ثمّ يستخرجا كنزهما؟!

الدَّرسُ الثَّاني:

هَيِّء النّاسَ وأَعِدَّهم للمهمَّة التي تريدُها منهم،
من أردته أن يقوم بعملٍ ناجح درِّبْهُ،
البنتُ أعدَّها للزواج وفهِّمها كيف تُدار البيوت،
والولدُ فهِّمه طبائع النساء وأرشده،
معارك الحياة لا تُخاض بغير عُدَّةٍ وعتاد!
صحيح أن الخبرة لا نحصل عليها إلا بالتجارب،
ولكن امتلاك مفاتيح النجاح أمر حاسم في تحقيقه،
النُّبـوة شـيء فـوق مسـتوى البشـر، وعمـل يحتـاج روحـاً وعقـلاً وقلبـاً

مـن نـوعٍ آخـر،
والرُّؤى التي كان يراها النبيُّ ﷺ فتأتي كفلق الصبح،
ما هي إلا تهيئة لاستقبال الوحي!
وتحبيب الخلوة إلى قلب النبيِّ ﷺ قبل نزول الوحي،
ما هو إلا صقل للرُّوحِ والقلبِ والعقل!

الدَّرسُ الثَّالث:

الزَّواج الناجح هو الذي فيه من الصَّداقة مقدار ما فيه من الحُب!
أن تأنسَ ويُؤنس بكَ، تَطمئِنَ وتُطمْئِنَ، تَجبُرَ وتُجبَرَ،
أن تهون الدُّنيا كلها ولا يهون حبيبك،
وأن يُباع الكون كله ويُشترى خاطر خليلك!
وأن تكون آمناً ومانحاً للأمان كذلك،
وأن تُمسِكَ فلا تَتْرُكَ ولا تُترك،
وأن يتكئَ كلاكما على صاحبه وهو لا يخشى السقوط،
فإن لم يتحقق هذا المفهوم فعن أي مودَّةٍ ورحمةٍ نتحدَّث؟!
ألمْ تسأل نفسك مرَّةً ولو من باب الفضول:
لماذا ذهبَ النبيُّ ﷺ إلى خديجة بعدما نزل عليه الوحي؟!
لماذا اختارها هي بالذَّات دوناً عن أقاربه وأصدقائه؟!
هذا لأنها كانتْ كل هؤلاء بالنِّسبة له!
كانتْ مأمونةً، حنونةً، عاقلةً، قويَّةً،
لهذا عرفَ أنَّه لا يحتويه من أهلِ الأرضِ غيرها،

وهو بالمقابل كان بقلبِه وأخلاقِه قد شغفها حُبّاً،
وإذا ما ضاقت الأرضُ بالإنسانِ اِتَّسعَ له حضنُ حبيبه!

الدَّرس الرّابع:

صنائعُ المعروفِ تقي مصارعَ السُّوء،
هذه قاعدة يعرفها النَّاسُ بالتَّجربة،
لا تحتاج إلى دِينٍ لتُدرَكَ، وإن كان الدّينُ قد أرساها!
لم تكن خديجة تعرفُ من الإسلام شيئاً حين أتاها النبيُّ ﷺ يرتجفُ،
وعندما قال لها: لقد خشيتُ على نفسي.
قالتْ له: واللّهِ ما يُخزيكَ اللّه أبداً!
ثم جعلتْ تُعدِّدُ عليه فضائله، ومعروفه مع النَّاس،
حتى وهم أهل جاهليَّة كانوا يعرفون أن زارع الخير يحصده،
ومُوقِدُ نار الشَّرِ حتماً سيكتوي بها!
فأكثِرُوا من صنائعِ المعروف، لأنَّه لا أحد أوفى من اللّه!
من جبرَ جُبرَ، ومن أعانَ أُعين!
ومن خذلَ خُذِلَ، ومن ظَلمَ اُبتليَ بمن هو أظلم منه!
اُجبرُوا الخواطر، وامسحوا الدموع، ورَمِّموا المكسور،
اِقضوا الدُّيون، وسُدُّوا الحاجات، واحفظوا ماء الوجوه،
وتذكَّرُوا أنَّه ما عُبدَ اللّه تعالى بشيءٍ أحبَّ إليه،
من جبرِ الخواطر، وقضاء حوائج الناس!

الدَّرسُ الخامس:

تقولُ العربُ: سَلْ من كان به خبيراً،
لا تطلب النَّصيحة إلا من حكيم،
ولا تسألْ قضاء حوائجكَ إلا عند أهلها،
الأهوجُ يزيد المشكلات تعقيداً،
ومن لا خبرة له يُفتي بلا علم ولا بصيرة،
الذي قتلَ تسعةً وتسعين نفساً ذهبَ يسأل عن التَّوبة عند عابدٍ،
فلما أخبره أن لا توبة له، قتله وأتمَّ به المئة!
فلما ذهبَ إلى عالم، أخبره أن باب التَّوبة مفتوح على مصراعيه مهما عَظُم الذَّنب،
وأرشده إلى قرية الصالحين، فزاده على الفتوى حلّاً عملياً،
فكان هذا سبباً في دخوله الجنّة برحمة اللّه!
وعن دون قريشٍ كلها ذهبتْ خديجة بالنبيِّ ﷺ إلى ورقة بن نوفل،
لم تذهبْ به إلى عمّه أبي طالب رغم حبّه له،
ولا إلى صديقه أبي بكر رغم أنّها تعرف أنه يفديه بروحه،
ولا إلى حمزة صائد الأسود وفارس قريش المعروف،
المسألة وحيٌّ وخبر سماءٍ وملائكة،
وهذا هو ميدان ورقة بن نوفل، ومجاله الذي عُرِفَ به،
فاشْرَبُوا من منبع النَّهر ودَعُوا عنكم القنوات!

الدَّرس السَّادس:

لـم يكـن ورقـة بـن نوفـل يعلـمُ الغيـب، ولكنَّـه كان يعلـمُ سُـنَّة اللّه فـي الكـون،
كان يعرفُ أن الحقَّ والباطل في صراعٍ حتى قيام السَّاعة،
تتغيَّرُ الميادين، ويتبادل المحاربون الأدوار، أما الحرب فهي ذاتها!
كان يعرفُ أن صدر قريشٍ سيضيق على هذه الدعوة،
وأن باطلها سيستشرسُ في صراع الحق الذي جاء به!
فيـا أهـل الثُّغـور، ويـا أيهـا العاملـون لهـذا الدّيـن علـى مختلـف مجالاتهـم،
ضَعُوا هذه الحقيقة نُصبَ أعينكم: لن تسلَمُوا من النَّاس!
إنهم لا يعادونكم لأشخاصكم، وإنَّما يعادونكم لرسالتكم،
ومن لم يجد في ميدان الحقِّ كارهاً له فليُراجِعْ نفسه،
فإنه إن رضيَ عنكَ الباطل فلستَ حاملَ حَقٍّ!
هذا دِينٌ وصلَ إلينا بالأشلاء تناثرتْ، وبالدِّماء نفرتْ،
وبالأموال أُنفِقَتْ، وبالأذى وقع، وبالتشويه حصل،
ولن يُحافظَ عليه إلا بهذه الأشياء،
إنَّ سلعة اللّه غالية، وإنَّ اللّه اشترى!

2

﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾

ليس بالضَّرورةِ أن يكون أحدُ الطّرفين سيّئاً،
ولكنها نهاية الطّريق!
خُروج بعض النّاسِ من حياتك لا يعني نهايتَها
وإنّما يعني نهاية الجُزءِ المُتعلِّقِ منهم فيها!
العلاقاتُ كالأغذيةِ المُعَلَّبَة، لها تاريخ صَلاحيَّة،
وكلّ خطوةٍ بعدها ستكونُ سامّةً ومُؤذيةً،
فلا تؤجِّلْ فراقاً حان أوانُه!
لا يوجدُ إنسانٌ ليس له بديل،
ولا يُوجد فرصة هي خاتمة الفُرص،
وما دامت الرُّوح في الجسدِ فلا يوجد شيءٌ اسمُه النِّهاية،
كلُّ نهايةٍ هي بدايةٌ لشيءٍ جديدٍ
النّاسُ يؤذون من يضمنون بقاءَهم، فكن دوماً قادراً على الرّحيل!

3

اِجتمعَ الملأُ من قريشٍ في دار النَّدوة ليبحثُوا في شأنِ النبيِّ ﷺ،
فجاءهم إبليسُ في صورة شيخٍ نجدِيٍّ،
فلما رأوه، قالوا له: من أنتَ؟
قال: شيخٌ من أهل نجد، سمعتُ بما اِجتمعتُم له،
فأردتُ أن أحضركم، ولن يعدمكم منِّي رأيٌ ولا نُصح!
فقالوا له: اُدخُلْ!
فقال قائل منهم: ما ترَوْنَ في شأنِ محمدٍ؟
فقال رجل منهم: اِحْبسُوه في وثاقٍ،
ثم تربَّصُوا به المنون حتى يهلك، كما هلك قبله الشُّعراءُ،
زُهيرُ والنَّابغة، فإنَّما هو كأحدهم!
فقال إبليسُ: لا واللّهِ ما هذا لكم برأيٍ!
واللّهِ ليخرُجَنَّ من محبسِه إلى أصحابِه من يُخبرهم بحبسِه،
فيثبِوا عليه حتى يأخذُوه من أيديكم، ثم يمنعُوه منكم!
فما آمنُ عليكم أن يُخرِجُوكم من بلادكم!
فانظُروا غير هذا الرأيِّ!
فقال قائل منهم: أَخْرِجُوه من بين أظهرِكم، واستريحُوا منه،
فإنه إذا خرجَ لن يضرَّكم ما صنع!
فقال إبليسُ: واللّهِ ما هذا لكم برأيٍ!
ألمْ تروا حلاوة قولِه، وطلاقة لسانِه، وأخذه للقلوبِ بحديثه؟!
واللّهِ لئن فعلتم، ثم اِستعرضَ العربَ، لتجتمعنَّ إليه،
ثم ليسيرنَّ إليكم حتى يخرجِكُم من بلادكم، ويقتلَ أشرافَكُم!

فقالوا: صدقَ واللّهِ الشيخُ النَّجديُّ، فانظرُوا رأياً غير هذا!
فقال أبو جهلٍ: واللّهِ لأُشيرنَّ عليكم برأيٍ، ما أراكم أبصرتُمُوه بعد، ما أرى غيرَه!
قالوا: وما هذا؟
فقال: تأخذوا من كل قبيلةٍ وسيطاً شاباً جَلْداً،
ثم يُعطى كل واحدٍ منهم سيفاً صارماً، فيضربونَه ضربةَ رجلٍ واحدٍ!
فإذا قتلتموه تفرَّق دمُه في القبائل كلها،
فلا أظنُّ هذا الحيّ من بني هاشم يقدرِون على حربِ قريشٍ كلّهم،
وأنهم إذا رأوا هذا قَبِلُوا بالدِّية، فاسترحْنَا منه!
فقال إبليسُ: هذا واللّهِ الرأيُ، القولُ ما قال الفتى، لا أرى غيره!
وتفرَّقُوا على هذا الرأيِّ، وهم مُجمعون على المُضِيِّ به!
فجاء جبريلُ إلى النبيِّ ﷺ وأمره ألا يبيتَ في مضجعه،
فلم يبتْ النبيُّ ﷺ في بيتِه تلكَ الليلة،
وأُذِنَ له بالهجرةِ من مكة إلى المدينة،
وأنزلَ اللّه تعالى قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾

الدَّرسُ الأوَّل:

من الحقائقِ المُرَّة التي علينا الاعترافِ بها:
أنَّ أهل الباطل يجتمِعُون على باطلهم أكثر مما يجتمعُ أهلُ الحقِّ على حقّهم!

وهذا مرجعه إلى أنَّ أهل الباطل يرَوْن الحقَّ تهديداً لوجودهم،
ترى كلُّ فرقةٍ منها في سِجالٍ مع غيرها،
بينهم بأسٌ شديدٌ، ومكائدُ، وصراعُ نفوذ،
فإذا ما واجهتهم دعوةُ حقٍّ اِجتمعوا فوراً على باطلهم!
وللأسف قلّما يجتمعُ أهلُ الحقِّ ضدَّ باطل!
ترى كل جماعةٍ أنَّ الباطل الصرفَ أهون من الحقِّ الذي تُخالفه في شيء!
أهل الباطل يعرفون أن اجتماع أهلِ الحقِّ يعني زوالهم،
لهذا يُنحُّون كلّ خلافٍ بينهم جانباً ويتَّحِدون،
أمّا أهلُ الحقِّ فغالباً كل واحدٍ منهم يريدُ أن يكون رأسَ الأمر،
كل فرقةٍ منهم تريدُ من الفِرق الأخرى أن تدخلَ تحت عباءتها،
وفي الغالبِ خلافات أهل الحقِّ في مسائل فرعية،
بمرور الزمن يجعلون هذه المسائل الفرعيَّة هي الأصل،
والأساس الذي يُميِّزُهم عن غيرهم،
فتراهم يقتربون أو ينفرون من غيرهم، بمقدار ما يوافقونهم أو يُخالفونهم فيه!
وانُظُرْ الآن حولكَ، كم حزباً إسلاميّاً ترى، وكم فِرقةً؟!
ربُّهم واحد، وكتابُهم واحد، ونبيُّهم واحد، وقبلتُهم واحدة!
كلهم يؤمنون بالجنَّةِ، والنَّارِ، والبعثِ، والحسابِ!
ولكن كلّ فرقة منهم ترمي بقوسها،
بل وبعضها يخطو نحو الباطلِ أكثر مما يخطو نحو الحقِّ إذا كان مع غيره!
عُدّ أدراجكَ قليلاً، وتذكرَّ كيف سقطت الأندلس،

ممالـك كثيـرة، جمعهـم الدّيـنُ والعقيـدة، وفرقتهـم الدُّنيـا والسِّياسـةُ والمصَالـح،
فاجتمعَ لهم أهلُ الباطل، نحُّوا خلافاتهم جانباً،
وتوحَّـدُوا علـى هـدفٍ واحـدٍ، هـو إزالـة سـلطان الإسـلام عـن تلـك البـلاد،
رغم أنَّ ما كان يُفرقهم أكبرُ مما يُفرِّق أهل الحقّ،
وما يجمعهم أصغرُ مما يجمع أهل الحقّ!
ولكنَّ الباطل المجتَمِع، يغلبُ الحقَّ المتفرِّق!

الدَّرسُ الثَّاني:

شياطين الجنِّ وشياطين الإنس حُلفاء!
دعواهم واحدة، وهدفهم واحد!
إبليسُ الذي نزعَ لباس السِّتر عن أبوينا في الجنَّة،
بعد أن أغراهما أن يأكلا من شجرة المعصية،
يوجد منه آلاف النُّسخ البشريِّةِ التي تُحارب الحجاب!
ولكن بعضهم بسيفِ الفِكر والإعلام،
وبعضهم بسيف الأزياءِ والموضة!
إبليسُ الذي سمَّى شجرة المعصية شجرةَ الخُلد،
يوجد منه الملايينُ الذين حفظُوا درسه جيداً،
فسمُّوا الأشياء بغير مُسمَّياتها كي يسهل عليهم إقناع النَّاسِ بها،
الشُّذوذ الجنسيِّ أسموه علاقةً مثليّةً،

والخُمور أسموها مشروباتٍ روحيّةً،
والزِّنى أسموه علاقةً عاطفيّةً، وممارسة الحُبِّ!
والدَّياثة أسموها انفتاحاً،
والرِّبى أسموه فائدةً!
فانتبِهُوا لهذه المعركة جيداً، وسمُّوا الأشياء بمسمَّياتِها،
لا تُجمِّلوا الحرامَ، ولا تُميِّعوا الحلال!

الدَّرسُ الثَّالث:

بعضُ النَّاسِ أباليس!
يخطرُ لهم من الأفكار والمكائد ما لا يخطرُ على بال الشياطين،
لم يكن عند إبليسُ خطةٌ للقضاء على النبيِّ ﷺ،
ولكنه أُعجبَ بخطَّةِ أبي جهل!
حين يغرقُ الإنسان في الضَّلالة يُبدعُ في الشَّر!
حدَّثني صديقٌ لي عن موقفٍ يشيبُ منه شعرُ الرَّأس،
تعَّرفَ شابٌّ على فتاة عبر أحد مواقع التَّواصل،
وشيئاً فشيئاً، وحديثاً بعد حديث، تطوَّرت العلاقة إلى حُبّ.
ثم اِتفقا على الزَّواج.
ولكنه أخبرها في اليوم التالي أنه بمجرد أن وعدها بالزَّواج،
شعر بضيقٍ في الصَّدر، وانكماشٍ في القلب،
وأنه يُرجِّحُ أنّ سبب كل هذا سحر قد فعله شخص ما لها ولأهل بيتها ،

ثم أخبرها بعد ذلك أنه يرى في مناماته ما يحدثُ في منزلهم،
وكان يُحدِّثها بكل صغيرة وكبيرة تحصلُ في عائلتها،
وكانت تُصاب بالذُّهول من دقَّة التفاصيل التي يخبرها بها،
هي في بلد، وهو في بلد، ولا يوجد شخص مشتركٌ بينهما،
الأمر منامات ورُؤى لا شك!
وثمّة سحر قد عُقِدَ عليها وعلى أهل بيتها!
ثم أخبرها ذات ليلةٍ أنَّ أُختها ستأتي إلى بيت أهلها بسبب شجارٍ مع زوجها،
وبالفعل جاءتْ أُختها إلى بيت العائلة وقد طردها زوجها من البيت،
فلم تعُدْ تشُكُّ ولو للحظة أنه صادق،
الأمر تخطى معرفة ما الذي حدث معهم بالأمس،
إلى معرفة ما الذي سيحدثُ معهم في الغد!
ولكنه أخبرها أنه متمسِّكُ بها وأنه لن يتركها أبداً،
فهي حُبُّ حياته الذي يستحقُّ أن يُقاتل لأجله!
وقد وعدها أنه لن يترك شيخاً في بلده إلا ويسأله كيف يُفكُّ هذا السِّحر عنها!
وبعد أيامٍ أخبرها أن الطريقة الوحيدة لفكِّ السِّحر،
هي أن تحصل على مَنِيِّ زوج أختها وتحرقه،
فهو أيضاً ضحيَّة مثلهم، ولا يعرفُ هذا،
ولأنها كانت يائسة ترى طلاق أختها سيقع،
وترى حُبَّ حياتها سيضيعُ منها،
مكّنتْ زوج أختها من نفسها!

لتكتشف بعد ذلك أن زوج أختها قد اِستأجر هذا الشاب،
ودفع له المال كي يُمثِّل دور الحبيب،
وهو الذي كان يخبره بأسرار العائلة وما يحدث معها،
وهو الذي طرد زوجته إلى بيت أهلها لتصدِّقَ نبوءة حبيبها،
لأنه كان يُحبُّ أخت زوجته، ويريدها لنفسه،
فأيُّ شيطان قادر على أن يكتب فصول هذه المسرحية،
بل ويمثلها بعد ذلك بهذا الشَّرِّ المُتقن؟!

الدَّرسُ الرَّابع:

كُنْ مع اللّهِ يكُنْ معك!
لستَ نبياً ليأتي إليك جبريل ويخبركَ بمكائد الناس،
ولكنَّك مؤمن في رعاية اللّهِ، وحفظه، ورحمته،
سيصرفُ اللّهُ عنكَ السُّوء بحُلُمٍ تراه فتنتبه،
أو حديث يصل إليكَ فتفهم الإشارة منه،
أو مكانٍ ترغبُ بالذَّهاب إليه فيشغلكَ عنه،
أو مكانٍ آخر فيه النَّجاة فيجعل لكَ فيه حاجةً!
سينقذكَ اللّهُ بأن يُلقي الجُبن في قلب صاحب الشَّرِ،
في أخر لحظة فلا يُقدم على ما عزمَ عليه،
أو يشغله بنفسه وقد كان تفَّرغَ لكَ،
أو يُسلِّطَ عليه من هو أكثر شرّاً منه،
فيكفيَ المؤمن شرَّ القتال!

خرجَ يوسفُ عليه السَّلام من السِّجن برؤيا رآها الملكُ في منامه،
لا بصاعقةٍ تضربُ باب السجن فتزيحه!
وهلكَ النَّمرودُ ببعوضةٍ لا تكاد تُرى،
لا بجيشٍ عرمرمٍ مدجَّجٍ بالسِّلاحِ والعتاد!
فلا تشغُلَنَّ تفكيرَك كيفَ تنجو من شرِّ الناس،
بقدر ما تشغله كيف تُرضيَ ربَّ الناس،
فإنه إذا رضيَ، كفى، وحمى، وأنجى، وأعطى، وأرضى!

4

﴿إِنِّى آنَسْتُ نَارًا﴾

اللّهُ دوماً يُرسِلُ إلينا الإشارات،
بالجنازَةِ تمرُّ بك فتهُزَّكَ هزّاً،
وتخبرُكَ أن كفاكَ بُعداً حان وقتُ التَّوبة
بالآيةِ تسمعُها فتشعرَ أنّها أُنزِلت لك وحدك!
بالحديثِ يُلقى على مسامعك،
فتشعرَ أنّ النّاس حملُوه منذ ألفٍ وأربعمئة سنةٍ واحداً من واحدٍ،
ليَوصِلُوه إليك فأنتَ المعنيُّ فيه!
بهذا الصَّوتِ الذي تسمَعُه داخلك يقولُ لك:
إيّاك أنْ تمشي في هذه الطَّريق،
هذا الإنسانُ سيلحِقُ بك الضّرر،
هذه الوظيفة لا تُناسبُك،
هذه الفُرصة فخٌّ مُحكم،
ليس عن عبثٍ يرسلُ اللّهُ هذه الإشارات لكَ فلا تتجاهلها!

5

قال أسلمُ بن عمران: كُنَّا في حصار القسطنطينيَّة،
فخرجَ من المدينة صفٌّ عظيم من الرَّوم،
وصففنا لهم صفاً عظيماً من المسلمين،
فحملَ رجلٌ من المسلمين على صفِّ الروم،
حتى دخلَ فيهم، ثم خرجَ علينا مُقبلاً،
فصاحَ النَّاسُ فقالوا: ألقى بيديه في التَّهلكة،
فقام أبو أيوبٍ الأنصاري صاحب رسول اللّه ﷺ فقال:
أيها النَّاسُ إنكم تتأوَّلُون هذه الآية على غير ما أُنزلتْ فيه،
نزلتْ فينا معشر الأنصار، ذلكِ إنَّا لما أعزَّ اللّه دينه، وكثر ناصروه،
قُلنا بعضنا لبعضٍ سرّاً: إنَّ أموالنا قد ضاعتْ،
فلو أقمنا فيها، وأصلحنا ما ضاع منها،
فأنزلَ اللّهُ تعالى في كتابه يُردُّ علينا ما هممنا به، فقال:
﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾،

الدَّرسُ الأوّل:

حُكمُنَا على قضيةٍ ما لا يكشفُ حقيقتها،
بقدر ما يكشِفُ عن حقيقة فهمنا لها!
إذا ما تعلَّقَ الأمر بالدُّنيا فتسديد ومقاربة،
تقديرٌ للعواقب، وحسابٌ للمنفعة، ثم المفاضلة بين هذا وذاك،

أما إذا ما تعلَّق الأمر بالدّين فالعقلُ يعملُ في فهم النَّص،
ولا يشتغلُ في إيجاد حلٍّ أو حكمٍ لقضية قد بُتَّ فيها،
وإنَّ مما اُبتلينا به أن العبدَ الذي لا يرى أبعد مما تُريه إياه عيناه،
يريدُ أن يستدركَ على اللّٰه تعالى،
الذي يرى الأمور بكل جوانبها، وما عَلِمَه العبدُ منها وما جَهِلَه،
فإن كان الشَّرعُ في كفّةٍ وعقلُكَ في كفّة،
فقد حان الوقت أن تُراجع عقلكَ،
لا أن تبحث عن حلول لقضايا أكبر منك،
وأنتَ بالكاد قادر على حلِّ مشكلاتك الشَّخصيّة!
ولستُ أُقللُ من قدر العقل، ولا أقول لكَ: لا تُفكِّرْ،
ما أطلقَ أحدٌ العقلَ كما أطلقه الإسلام،
وما حثَّ على التفكير والتّدبر أحد كما حثَّ عليه هذا الدِّين العظيم،
ولكن كلّ هذا مشروط بأن لا يخلع المرءُ عباءة عبوديته للّٰهِ،
تُفكِّرُ وأنتَ عبد، وتتأملُ وأنتَ عبد، وتستنتج وأنتَ عبد،
أما أن تطرحَ فكراً مقابل فكرٍ ربانيٍّ، وحكماً مقابل حكمٍ إلهيٍّ،
فهذا ليس تفكيراً ولا تدبُّراً،
أنتَ هنا تطرحُ نفسكَ ربّاً من حيث تدري أو لا تدري!
إنَّ الذي يُفتي بالعقلِ مع وجود النَّص القاطع، يُهلِكُ نفسَه، ويُهلِكُ النّاسَ،
ومصيره نهاية المطاف كالعابد الذي أفتى للذي قتل تسعة وتسعين نفساً،
أن لا توبة له، فقتله وأكمل به المئة!

لقد نظرَ بعقله إلى العدد فاستعظمه،
ولم ينظر بالنصِّ إلى رحمة اللّهِ ليعرفَ أن لا ذنب مهما كبر،
إلا ورحمة اللّه تعالى وعفوه أكبر منه!

الدَّرسُ الثّاني:

لا تحكُمْ على كلِّ الأمور بعين الدُّنيا،
فإنكَ إن فعلتَ خسرتَ الدِّين ولم تربح الدُّنيا،
وإنكَ لو حملتَ عينَ الدُّنيا وطُفتَ بها أرجاء التَّاريخ،
لتبيَّن لكَ أن عين الدُّنيا عمياء لا ترى!
إنكَ لو نظرتَ إلى مصعب بن عُمير فتى قريشٍ الوسيم والمُدلل،
يوم غزوة أُحدٍ ورأيتهم قد غطُّوه بخرقة أقصر من جسده،
إذا غطُّوا رأسه انكشفتْ قدماه، وإذ غطُّوا قدميه انكشفَ رأسُه،
لقلتَ متحسراً: يا لهذه النِّهاية البائسة!
ولكن ذلك اليوم كان خير أيام مصعب بن عمير،
هو في ذاك اليوم غادر ضيق الدُّنيا إلى سَعةِ الآخرة،
وفرَّ من كدر هذا الكوكب إلى سعادة أهل الجنّة!
وإنكَ لو نظرتَ بعين الدُّنيا إلى صهيب الروميِّ وهو يفدي نفسَه بماله،
لِيلحقَ بالنبيِّ ﷺ في المدينة،
لقُلتَ بلسان الجاهل: أيّ صفقةٍ خاسرةٍ هذه،
ولكنكَ متى علمتَ أن النبيَّ ﷺ قد تلقّاه قائلاً:

ربحَ البيعُ أبا يحيى، ربحَ البيعُ أبا يحيى!
لعلمتَ أنّ للرجال ميادين تجارة تختلفُ عن أسواق الدُّنيا!
وإنّكَ لو نظرتَ بعين الدُّنيا إلى ماشطة ابنةِ فرعون،
وأولادها يُلْقونَ في الزيتِ المغلي واحداً تلو آخر فتطفو عظامُهم،
لقُلتَ بلسانِ الحُمْقِ: أيُّ أمٍّ قاسيةٍ هي!
ولكنكَ لو علمتَ أن النبيَّ ﷺ قد شمَّ ريحاً طيِّباً في ليلة معراجه،
فسأل عنها، فأخبره جبريل أنَّ هذه رائحة الماشطة وأولادها،
لعلمتَ أن معاركَ العقيدة بنتائجها النّهائية،
وليست بتلك النهايات الدُّنيوية التي تبدو للعين التي لا ترى،
من المشهد إلا ما هو أمامها!
وإنكَ لو نظرتَ بعين الدُّنيا إلى غزوة تبوكَ،
ورأيتَ عثمان بن عفّانٍ يصبُّ نصفَ ماله في حجر النبيِّ ﷺ،
لقُلتَ بلسانٍ أخرق: خسِرَ الرَّجُلُ ماله!
ولكنكَ لو علمتَ أنّ النبيَّ ﷺ قد قلَّبَ المال بيديه،
ثم قال: ما ضرَّ عثمان ما فعلَ بعد اليوم،
لعلمتَ أنَّ الرِّجال يظهرون في المواقف الصَّعبة،
وأنّ المالَ خادم جيّد ولكنّه سيِّد سيِّء،
وإنما هي مرَّة ينجو فيها المرءُ إلى الأبد، أو يهلكُ إلى الأبد!

الدَّرسُ الثّالث:

أولئك الذين قال لهم ربهم: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾،

ليسُوا أنا ولا أنتَ،
أولئك هم الطَّاعِنُون في الإيمان، البالغُون فيه عتياً،
أولئك الذين استقبلوا النبيَّ ﷺ في مدينتهم،
وقاتلوا المشركين معه، ومنعوه مما يمنعوا منه أعراضهم وأولادهم،
وقدَّموا في سبيل دعوته دماءَهم وأموالهم،
ثم لما أرادُوا أن يعودُوا إلى دُنياهم جاءهم تحذير ربِّهم،
فلا تركُنّ إلى ماضيكَ مهما كان جميلاً،
وإنما حارِبْ بكل ما أوتيتَ من قوَّةٍ ألّا تفسده،
أسلَم أقوامٌ مع النبيِّ ﷺ، ودفعُوا زكاة أموالهم، فلما ماتَ ارتدُّوا،
فما نفعهم إيمانهم القديم، ولا زكاتِهم السَّالفة!
فإن كان ماضيكَ مُشرقاً فسَلِ اللّه الثباتَ وزِدْ،
وإن كان قاتماً فأصْلِحْ ما بقيَ يغفِرْ لكَ ما مضى!
أما أن تمنَّ على اللّه بماضيكَ فأنتَ لم تفهم الدَّرسَ بعد:
إنَّ العبرة بالخواتيم!

الدَّرسُ الرَّابع:

الأمورُ تُقاس بأوقاتها وظروفها،
ثمَّة مواقف يكون الإقدامُ فيها تهوُّراً، وثمَّة مواقف يكون الإحجَامُ فيها جُبناً،
والشَّجاعةُ في موضعها محمودة مهما كانت نتائجها،
والحَذَرُ في غير موضعِه مذمومٌ ولو أدَّى إلى السَّلامة!

والحكيمُ من قدَّر الموقفَ وتعاملَ معه بما يقتضي،
خالد بن الوليد انسحبَ بالجيش يوم مُؤتة،
ولكنه ثبتَ في حروب الرِّدة، وكسر كبرياء الرُّوم في اليرموك،
في مُؤتة لم تكن تنقصُه الشَّجاعة، خالد هو خالد،
وفي اليرموك لم يكن ينقصُه الحذر،
ولكنه رأى في الأولى القتال مغامرةً فحقنَ دماء الجيش،
ونالَ بالجيشِ وساماً نبوياً من رتبة: أنتم الكُرَّار،
قالها لهم النبيُّ ﷺ حين اِتَّهمهم النَّاسُ بالفَرار!
ولكنّه رأى في الثَّانية الفرصةَ سانحةً فأجهزَ على العدو،
وهذا هو خالد كما يقول عنه أبو بكر: أناة القطِّ ووثبة الأسد!
ثم وهل وصلَ إلينا هذا الدِّين إلا على بحرٍ من الدِّماء،
وهلّا سألتَ نفسكَ: ما يفعلُ قبرُ خالدٍ في حمص،
وما يفعل قبرُ أبي موسى قرب أسوار القسطنطينيَّة،
وما يفعل قبرُ عُبادة بن الصامت في فلسطين،
وما يفعلُ قبرُ زيد بن حارثة في الأردن،
هؤلاء لم يخرجوا من المدينة المنوَّرة سياحةً ونزهة،
لقد وضعُوا أرواحهم على أكُفِّهم وخرجُوا يُعْلُون: لا إله إلا اللّه!

6

﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾

يحمِيكَ اللّهُ بطُرُقٍ لا تَفهَمُها!
ستُخرَقُ لكَ سُفُن،
لأنّ اللّه يريدُ أنْ يحمِيكَ من إبحارٍ خاطئٍ!
ستتعثَّرُ لك خطىً،
لأنّ اللّه يريدك ألّا تبلغَ وُجْهةً مُؤذيةً!
وستفُوتُ عليكَ فُرَصٌ،
لأنّ اللّه يُعطيك ما تحتاجُه لا ما تُريده!
وستُصْفَعُ على وجهِكَ،
لأنّها الطَّريقةُ الوحيدةُ كي تستفيقَ من غفلتِكَ!
وسيُكسَرُ قلبُكَ،
لأنَّ كسْرَ القلبِ أوّل خطواتِ الأُنسِ باللّهِ،
الكثيرُ من الحِماية يأتي مقرُوناً بالوجع!

7

خرجَ صُهيبٌ الرُّوميّ مهاجراً إلى النبيِّ ﷺ،
فتبعَه نفرٌ من قريشٍ من المشركين يريدون أن يعيدوه،
فنزلَ عن دابته، ونثرَ ما في كنانته من أسهُم، وأخذَ قوسَه وقال:
يا معشرَ قريشٍ: لقد علمتُم أني من أَرمَاكم،
وأيمُ اللّهِ لا تصلون إليَّ حتى أرمي بما في كنانتي،
ثم أضربُ بسيفي ما بقيَ في يدي منه شيء،
ثم بعدها افْعَلوا ما شِئتم!
فقالوا له: أتيتنا صعلوكاً فكثر مالُكَ عندنا وبلغتَ ما بلغتَ،
ثم تريدُ أن تخرجَ بنفسِك ومالكَ، واللّهِ لا يكون هذا!
فقال لهم: أرأيتم إن أعطيتُكم مالي أتُخلُون سبيلي؟
فقالوا: نعم.
فدلَّهم على مكان ماله فذهبوا وأخذوه،
ومضى هو نحو النبيِّ ﷺ مهاجراً،
فلما وصلَ إلى المدينة المنوَّرة، تلقَّاه النبيُّ ﷺ بقوله:
ربحَ البيعُ أبا يحيى، ربحَ البيعُ أبا يحيى،
وأنزلَ اللّه تعالى قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾،

الدَّرسُ الأول:

الحياةُ مواقفُ عِزّ،
وثمّة مواقف على الإنسان أن يقفَ فيها شامخاً،
لأنّه إذا انحنى فقد لا يُسعفه عمرُه كلّه ليقفَ بعدها!
إنّها عبادة الموقف الواحد التي إن أقمتها استقام بعدها كل شيءٍ،
وإن أهدرتَها سينفرطُ ثوبُ إيمانك خيطاً خيطاً،
ثم ستكتشفُ في لحظةٍ ما قبحَ عُرْيِكَ!
تخيَّلْ معي لو أن صهيباً آثرَ مالَه على دينِه وعاد أدراجَه،
ما كان ليكون هذا كل الذّلّ وإنّما أوّله،
فكما راودوه عن هجرته بماله على مشارف مكة،
فسيراودونه عن صلاته وتوحيده في بطنها كذلك!
ولو تأملتَ حديث السّبعة الذي يُظلهم اللّه في ظله يوم لا ظلَّ إلا ظله،
لوجدتَ ثلاثةً منهم قد نالوا هذا الشَّرفَ العظيم بعبادةِ الموقفِ الواحد!
رجل دعته امرأةٌ ذات منصبٍ وجمال فقال: إني أخاف اللّه!
لحظة واحدة انتصرتْ فيها العِفَّة على أجيج الشَّهوة،
وانتصرتْ فيها عظمة مراقبة اللّهِ على أمان الخلوة،
أكسبتْ صاحبَها عزَّ الدُّنيا وعزَّ الآخرة،
ورجل تصدَّقَ بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقتْ يمينه،
لحظة واحدة انتصرتْ فيها رغبة ستر المحتاج وجبر خاطره،
على حظِّ النفس في أن يُرى الإنسانُ متصدقاً فيمدحه الناس،

هي التي كانت فيصلاً بين عبادة الخفاء وعبادة الرِّياء!
فلا داعي لأن تُوثِّقَ كل خيرٍ تفعله كلَّف اللّه تعالى الملائكة بهذه المهمّة،
وما كانت هذه الجائزة العظيمة لتكون لولا حبُّ اللّه تعالى،
لجبر خواطر الناس في سرٍّ وكتمان!
ورجلٌ ذكرَ اللّه خالياً ففاضتْ عيناه،
لحظة واحدة تجلت فيها عظمة اللّه تعالى في قلبِ عبده،
استشعرَ فيها ذنبَه وقدرة اللّهِ عليه،
واستشعرَ فيها ضعفهَ وقوَّة ربِّه فبكى،
دمعة، دمعة واحدة من قلب صادق كان ثمنها الجنَّة،
فإياك إياكَ أن تُفرِّطَ في وقفات العِزِّ!

الدرس الثاني:

ثمَّة عبادة عظيمة اسمها: التَّرْكُ للّهِ!
وقد ربحَ بيعُ أبي يحيى لأنه تركَ للّهِ!
كل معصيةٍ قدِرْتَ عليها ولم يمنعكَ منها إلا مراقبة اللّهِ تعالى،
فاستشعر معها قول نبيّكَ ﷺ: ربحَ البيعُ أبا يحيى،
وقتذاك ستصبحُ لذَّة التَّرْكِ أجمل من لذَّة الفعل!
كل انتقام كان بإمكانكَ أن تنفذه،
ولم يحُلْ بينك وبين إنفاذه إلا رضى اللّه عن العافين عن الناس،
فاستشعِرْ معه قول حبيبك ﷺ: ربحَ البيعُ أبا يحيى!

عند ذلك ستصبحُ لذَّة العفو أجمل من لذَّة الانتقام!
كل مديون عجزَ أن يُسدِّدَ لكَ مالكَ وقد حانَ وقت سداده،
وكان بإمكانك أن تشكو وتفضح، فقررتَ أن تسامح وتعفو وتصفح،
فاستشعِرْ معه: ربحَ البيعُ أبا يحيى،
وقتها فقط ستفوق لذةُ المسامحة لذَّةَ السَّداد!
كل صدقةٍ هممتَ بها فوقفَ في وجهكَ الشيطان يوسوسُ لكَ ألّا تفعل،
ضَعْ يدكَ في جيبك وأخرجها فوراً،
متخيلاً النبيَّ ﷺ يقول لكَ: ربحَ البيعُ،
وقتها فقط ستشعر أنَّ لذّة العطاء تفوقُ لذَّة الأخذ!

الدَّرسُ الثّالث:

ما قيمة المالِ إن كنتَ له خادماً بدل أن تكونَ له سيِّداً؟!
ما قيمة المالِ إن كان ثمناً لدينك؟!
ما قيمة المالِ إن أُريقَ في سبيله ماء وجهكَ، وهُتكتَ لأجله كرامتك؟!
ما قيمة المالِ إن كنتَ ستعيش عيش الفقراء وتُحاسبُ حساب الأغنياء؟!
ما قيمة المال إن لم يرَ اللّٰه أثره عليكَ؟!
ما قيمته إن لم تُسْعِدْ به زوجةً، وتُيَسِّرْ به حياة أولادٍ؟!
ما قيمته إن لم تسدَّ به حاجة صديق، أو تجبر به خاطر محتاج،

ما قيمته إن لم يكن للفقير فيه نصيب، وللمديون به سلوى،
ما قيمته إن لم يكن للمريضِ فيه علبة دواء، وللأرملة رغيف خبز،
ما قيمته إن لم يكن للمجاهدِ سنداً، وللمسجد كتفاً، ولدار تحفيظ القرآن عكازاً،
أنتَ ترتفعُ بقدر ما يكون المالُ تحت قدميكَ،
وتنحطُّ بقدر ما يكون المالُ فوق رأسِكَ!

الدَّرسُ الرّابع:

تضيقُ الأوطان على أهلها أحياناً،
وشأن الناس منذ أبد الدَّهر أن يُهاجروا،
ولكَ أن تتخيَّلَ النبيَّ ﷺ على مشارف مكّة والدموع في عينيه وهو يقول:
واللّهِ إنكِ لأحبُّ البلاد إليَّ ولولا أن قومكِ أخرجوني ما خرجتُ،
فهو لم يُهاجرْ من مكّة لكفر أهلها وإنما لظلمهم،
ولم يأمرّ أصحابه بالهجرة إلى الحبشة لإسلام حاكمها وإنما لعدله!
ثمّة ظروف تسلبُ الإنسان من نفسه،
وتشعره أنَّ الأرض بجبالها جاثمة على صدره وأنّه يتنفس من خرم إبرة،
وقد يُهاجر المرءُ طلباً لعلمٍ واختصاص،

وقد يُهاجر بحثاً عن رغيفِ خبزٍ ولقمة عيش،
ولستُ من أهل الفتوى ولا أريدُ أن أفتي،
ولكن ما شاهدناه عياناً أنه ما هاجرَ أحد إلى الغربِ مقيماً،
إلا وأكلَ بعد ذلكَ أصابعه من الندم،
وهذا النَّدمُ في حال من معه أُسرة وأولاد أشد مما لو كان وحده،
فهلا سألتَ نفسك أيّ قِيَم سيأخذ أولادك،
وأيّ مناهج ستغسل أدمغةً بناتك،
وأيّ ظروف اجتماعيّةٍ وفكريّةٍ ستلقي بنفسِكَ في غمارها،
نعم هناك نماذج مشرِّفة لمهاجرين كثر،
وشخصياً أعرف كثيرين أقاموا أمر دينهم هناك كأنهم في بلاد الإسلام،
ولكنها إقامة القابض على الجمر!
على أية حالٍ إن قررتَ أن تُقيمَ أو تُهاجر،
فلا تنسَ أن دِينكَ هو عظمك وشحمك ولحمكَ ودمكَ،
وأنَّ الدنيا كلها ثمن بخس مقابل أن يضيع،
ولا خير في سعة من الدنيا إن ضيَّعتَ الآخرة!

8

﴿وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾

تعامَلْ مع العَلاقاتِ التي انتهَتْ كأنّها قُبور،
والقُبُور لا تُنبَش!
ومَنْ صارَ وراء ظهركَ فدَعْه وراءَ ظهرِك،
لا تكُنْ أسيرِ ماضيك،
ولا تترُك البابَ مُوَارِباً حتى لا يُغرِيكَ بالرُّجُوع!
المعاركُ التي لا طائلَ منها تستنزِفُكَ، فأدِرْ ظهركَ!
والصَّداقاتُ التي تنتقِصُ من قدرِكَ لا تلزَمُكَ، فتعلَّمْ أن تُفارِق!
والأماكنُ التي تقتلُ فيك الشّغف تُطفئك، فتعلَّمْ أن تُغادر!
وتذكّرْ دائماً أنَّ لك وُجهة عليكَ أن تبلُغها
فإنَّ المُلْتَفِت لا يَصِل!

9

قال النبيُّ ﷺ مرّةً لأصحابِه:
من تصدَّقَ بصدقةٍ فله مثلها في الجنّة!
فقال أبو الدَّحداحُ: إنْ تصدَّقتُ بحديقتي، فليَ مثلها في الجنَّة؟
فقال له النبيُّ ﷺ: نعم!
قال: وأمُّ الدَّحداحِ معي؟
قال: نعم!
قال: والصِّبيةُ معي؟
قال: نعم!
فرجعَ أبو الدَّحداحُ إلى حديقته فوجدَ أمَّ الدَّحداحِ والصِّبية فيها،
فوقفَ على بابها وتحرَّجَ أن يدخلها!
فنادى: يا أُمَّ الدّحداح.
قالتْ: لبَّيكَ يا أبا الدَّحداح!
قال: إني جعلتُ حديقتي صدقةً، واشترطتُ مثلها في الجنَّة،
وأمُّ الدَّحداح معي، والصِّبية معي!
فقالتْ له: باركَ اللّه لكَ فيما اشتريتَ!
فخرجوا من الحديقة، وسلَّمها أبو الدَّحداح للنبيِّ ﷺ يجعلها في سبيل اللّه!
وأنزلَ اللّه تعالى في أبي الدّحداح قوله:
﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾،

الدَّرسُ الأوّل:

إنْ قال نبيُّكَ ﷺ شيئاً فصدِّقه،
لا تقفْ على باب العقل طويلاً تطرقه بأناملِ الشَّك،
هذا العقلُ طاقته حدود الحياةِ الدُّنيا فقط،
أما الغيبيَّاتُ فمسألة تصديقٍ وتسليمٍ وإيمانٍ،
أيُّ عقلٍ هذا الذي سيستوعبُ حجمَ العرشِ والسَّماوات السبع والأراضين،
بالنسبة إلى العرشِ كحلقةٍ في الصحراء!
أيُّ عقلٍ هذا الذي سيستوعبُ جنّةً عرضها السماوات والأرض؟!
وناراً تُلقى فيها الصَّخرةُ فتهوي سبعين خريفاً قبل أن تستقرَّ في قعرها؟!
أيُّ عقلٍ هذا الذي سيستوعبُ صراطاً أدقَّ من الشَّعرةِ وأَحَدَّ من السَّيفِ،
وستعبرُ عليه الخلائقُ بأعمالها لا بأقدامها؟!
أيُّ عقلٍ هذا الذي سيستوعبُ كفَّتي الميزان يوم الحساب،
وكيف تصبحُ فيها الأعمال أوزاناً تُكال لصاحبها؟!
أيُّ عقلٍ هذا الذي سيستوعبُ أن تئِطَّ السماء،
لأن ما فيها موضع شبرٍ إلا ملكٌ راكعٌ أو ساجد،
يُبعثون يوم القيامة يقولون: سبحانك ما عبدناكَ حقَّ عبادتكَ!
أيُّ عقلٍ هذا الذي سيستوعبُ أن يصير الموتُ كبشاً يوم القيامة،
ثم يُذبح، وينادى: يا أهل النار خلود ولا موت، يا أهل الجنة خلود ولا موت!

ثم وهل يستوعبُ العقلُ كل ما جرى في الدُّنيا حتى يُعمِلَ عقله في الآخرة؟!
أيُّ عقلٍ يستطيعُ أن يُفسِّرَ كيف يُشقُّ البحرُ بالعصا؟!
وكيف تصيرُ النار برداً وسلاماً على رجلٍ يُلقى فيها،
وكيف يبتلعُ الحوتُ رجلاً أياماً ثم يلقيه سليماً على الشَّاطئ،
وكيف تحبلُ امرأةٌ دون أن يكون لها زوج،
وكيف تقِفُ السِّكين عاجزةً أمام رقبةِ إسماعيل عليه السَّلام فلا تذبحه،
هذا الدِّينُ يحترم العقل في حدود قدرته واستيعابه،
أما الإيمان فمسألة قلوبٍ، قلوبٍ فقط!

الدَّرسُ الثّاني:

ما أجمل هذا الدِّين حين يُؤخذُ بالتسليم،
وما أجمل المؤمن حين يثِقُ بوعدِ اللّه،
وما كنتُ أُحبُّ أن أذكر هذه القصة،
ولكنها ألقتْ بنفسها في خاطري وقلمي الآن،
جاءتني زوجتي يوماً وقالتْ لي: هناك امرأة قد حُرمتْ الإنجاب،
وقال الأطباء: إنه لا سبيل إلى أن تحبل إلا بطفل أنبوب،
والمرأة فقيرة بالكاد تجد قوت يومها وهي تُحِبُّ أن تنجب،
وإني أريدُ أن أبيع شيئاً من ذهبي وأتكفل بعمليتها!
فقلتُ لها: بارك اللّه بكِ، ولكن المال كثير وللّهِ الحمد،

فخذي ما شئتِ ولا داعي لأن تبيعي من ذهبكِ!
فقالت لي: أعرفُ، ولكن اسمحْ لي أن أبيع من ذهبي،
فأنا أحبُّ الذَّهبَ كما تعرف، والله تعالى يقول:
﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾،
وكان هذا الموقف من أجمل ما مرَّ معي في حياتي!
أعجبني جداً أن تكون الآيات عملاً وسلوكاً!

الدَّرسُ الثّالث:

أَعينُوا بعضكم على الحقِّ،
ولا تقِفُوا في وجوه النَّاس وهم في طريقهم إلى الله!
إذا رأيتِ زوجكِ يُسارع في برِّ أبويه فخذي على يده وشجِّعيه،
فإن الذي يُعينُ إنساناً على الحقِّ له مثل أجره،
وإذا رأيتَ زوجتكَ تريدُ حجاباً شرعيّاً كاملاً،
فإياكَ أن تكون عثرةً بينها وبين أوامر اللهِ،
شجِّعها، وأعطِها المال بقدر استطاعتكَ لتشتري،
بالأساس أنتَ مأمور بهذا قبلها، وهذه مهمَّتك قبل أن تكون مهمّتها،
وليس هناكَ أحقر من الذي يرفضُ الحجاب بسبب «البرستيج» الاجتماعي،
فيعمدُ إلى طلب يد فتاةٍ محجبةٍ ثم يشترطُ عليها خلعه!
وهذا واللهِ من فعل الأباليس!

إذا أراد ابنُكَ أن ينتسبَ إلى حلقةٍ لتحفيظ القرآن،
فلا تقل له: ستفشل في دراستكَ!
من قال لكَ أن حُفَّاظ القرآن فاشلون في دراستهم ووظائفهم،
هذا القرآن ما نزلَ بساحةٍ إلا باركها،
ثم إن العيبَ أن تنتظر ابنكَ ليُبادر هو بالفكرة،
أيُّ أبٍ أنتَ إن لم تحثَّه، وتشجِّعه، وتكافئه!
وإذا أرادت ابنتُكِ أن تُغطي وجهها،
فلا تمنعيها بحجة أن النقاب يُؤَخِّرُ العريس!
ملايين المنقبات متزوجات، وملايين السَّافرات عزباوات،
العريسُ كالمال، والصِّحة، والوظيفة، والسَّعادة، رزق يسوقه اللّه إلى عباده،
واللّه أكرم من أن يسوق الرِّزق إلى عاصٍ ويمنعه عن طائع!

الدَّرسُ الرّابع:

المرءُ في ظلِّ صدقته يوم القيامة!
هذا وعدُ نبيِّكَ ﷺ، فصدِّقْه،
وعِشْ المشهد بقلبكَ وروحكَ،
تخيَّلْ أنّه يوم القيامة وقد دَنت الشَّمسُ من رُؤُوس العباد،
هناك حيث لا ينفع النَّدم،
ويقول العاصي: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾،
وأنتَ جالسٌ في ظل صدقتكَ، آمنٌ مطمئن،

تصدَّقتَ لأجل هذه اللحظة وها هي قد أتتْ!
مالُكَ بين يديكَ الآن فاشترِ به ليوم القيامة ظلاً،
لا تتركْ مالكَ للورثة يتنعمون به ثم تجلس في قبرك وحيداً،
تنتظر أن يتصدَّقَ أحدُهم عنكَ، أو يجعلَ لكَ صدقةً جارية،
لا بأس أن تُفكِّر بأولادكَ من بعدكَ،
ولكن ليس على حساب أن تنجو بنفسِكَ،
الميت في قبره تسعده صدقته، فتصدَّقْ أنتَ،
وتسره صدقةً جارية يجري عليه أجرها، فاجعل لك على الأقل واحدة،
ثم من قالَ لكَ إن الصَّدقة تُنقص المالَ،
كان وعداً على الله أنه ما أنفقَ عبدٌ نفقةً يريدُ بها رضوانه سبحانه،
إلا وأخلفَ عليه أمثالها، لا أحد أوفى ولا أكرم من الله،
ثم هناك شيء اسمه البركة ما أنزلها الله في شيء إلا كثَّرته،
وكل مالٍ منزوعِ البركة لا يكفي وإن كثُر،
وكل مالٍ نزلتْ فيه البركة يكفي وإن قلَّ!

10

﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾

سيقُولُونَ فيكَ ما ليس فيكَ،
وسيحَاوِلُون جاهدينَ أن يعُرقِلُوا سيرك، ويكسِرُوا مجاذيفكَ،
وحتى عندما تَصِلُ سيحَاوِلُون التَّقليل من إنجازِكَ!
هذا هو دأبُ الفاشلين والفَارِغين دوماً،
يُعزُّون أنفسَهم بالاستنقاصِ من نجاحِ الآخرين،
وسيدخُلُون في نواياكَ ليُزيحُوا عن فعلك الجميلِ بريقَه!
الكثيرُ من الأيدي ستُطفئك غدراً وحقداً،
والكثيرُ من الألسُنِ ستلُوكُ لحمك غيظاً وقهراً!
تابِعْ طريقكَ ولا تلتفتْ،
ولو أنّ كلّ من رماكَ بحجرٍ وقفتَ لتردَّه عليه، فمتى تبلغُ وجهتَك؟!
ليكُنْ ردُّك َهو نجاحُك، وانتقامُك هو إنجازُكَ،
وكلّما حاولُوا أن يُنزلُوكَ إلى مستواهم، ترفّعْ
ورتّلْ عليهم قول الصَّالحين مرِّ التّاريخ: وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا!

11

دخل أبو بكرٍ الصّديق ذات يومٍ كُتَّاباً لليهود،
فوجدهـم قـد اجتمعـوا إلـى رجـلٍ مـن علمائهـم اسـمه «فنحـاص بـن عـازوراء»،
فقـال أبـو بكـرٍ لفنحـاص: اتـقِ اللّه وأسـلِمْ، فإنـكَ تعلـمُ أنّ محمـداً رسـول اللّه،
قد جاءكم بالحقِّ تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة،
فآمِنْ، وصدِّقْ، وأَقرِض اللّه قرضـاً حسـناً يدخلـكَ الجنـة ويضاعـف لـكَ الثواب!
فقال له فنحاص: يا أبا بكرٍ، تزعُمُ أنَّ اللّهَ يستقرضنا أموالنا،
وما يستقرِضُ إلا فقيرٌ من غنيٍّ، فإن كان حقاً ما تقول،
فإنَّ اللّه إذن فقير ونحن أغنياء، ولو كان غنياً ما استقرضنا أموالنا!
فغضبَ أبو بكرٍ، وضربَ وجه فنحاص ضربةً شديدة،
وقال له: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا لضربتُ عنقكَ!
فجاء فنحاص إلى النبيِّ ﷺ، فقال:
يا محمد، أُنظُرْ إلى ما صنعَ بي صاحبُكَ!
فقال النبيُّ ﷺ لأبي بكر: ما الذي حملكَ على ما صنعتَ؟!
فقال: يا رسول اللّه، إن عدوَّ اللّهِ قال قولاً عظيماً،
زعمَ أنَّ اللّه فقيرٌ وأنهم أغنياء، فغضبتُ للّهِ وضربتُ وجهه،
فأنكـرَ فنحـاص ذلـكَ، فأنـزل اللّه تعالـى قولـه رداً علـى فنحـاص وتصديقـاً لأبـي بكـرٍ:

﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾

الدَّرسُ الأوّل:

الحلال والحرام ثابتان لا جدال في هذا، ولكن لكلّ مجتمع خصوصيته،
هناك مجتمعات تحملكَ على الحلال حملاً،
ومن أراد الحرام عليه أن يبحث عنه بشقِّ النَّفس والحيلة،
وهناك مجتمعات تَحملُكَ على الحرام حملاً،
ومن أراد الحلال فيها كان غريباً، وطوبى للغرباء!
في بلاد المسلمين أقلّ الواجب أن تكون ضد الشُّذوذ الجنسيّ قولاً،
أن تكون ضدَّه عملاً في أيِّ نشاطٍ يُقام لمناهضته،
وأن تكون ضدَّه في تنشئة أولادك على الفطرة السليمة،
والاشمئزاز من كل ميل يخالفها!
أمّا في بلاد غير المسلمين إن أقمتَ فعالية ضدَّ الشُّذوذ سجنوك،
وإن رفضته قولاً، وكرَّهتَ الناس به اتهموك برُهاب المثليَّة وربما أدانوكَ،
ولكن بيتك هو ساحة ميدانك وجهادكَ!

وإنّ السَّـاكت هنـاك قـد يكـون فـي قلبـه إيمـان أكبـر مـن إيمـان المتكلـم هنـا،

وإن كان المتكلـم هنـا تحرقـه شـرارة، فـذاك فـي سـعير جنونهـم وشـذوذهم،

فقبـل أن تحكمـوا علـى النـاس تفهَّمـوا طبيعـة المجتمعـات التـي يعيشـون فيهـا،

لا تكونوا أنتم ومجتمعاتهم عليهم،

أنتـم لا تعرفـون أيّ جهـادٍ يلـزم المـرأة هنـاك لتضـع حجابهـا علـى رأسـها،

ولا تعرفون أيّ جهاد يلزم الرجل هناك ليكون من روَّاد المسجد،

لا تنخدعوا بقشـور الحريَّة البراقَّـة، هنـاك عفنٌ في الداخل، عفن قبيـح جداً!

سَلُوا الذين يعيشون هناك ما الذي يتعلمه أولادهم في المدارس؟!

ولمَّا كان دين المرء أغلى من روحه،

فالأصل ألا يسكن إلا في البيئة التي تعينه على حفظ دينه،

لهذا فالهجرة إلى بلاد الغرب لمجرد الحصول على رغد العيش،

هو إلقاء للنَّفس والأهل في مستنقع آسنٍ قلما ينجو أحدٌ منه،

فاتقوا اللّه في أنفسكم وأهليكم!

ومن أجبرته الظُّروف، وضاقتْ به السُّبل،

عليه أن يعلم أنّه لا عذر لأحد في أن ينتهك حرمات اللّه،

أما في شؤون الحياة فليس هناك إلا قانون واحد:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾

الدَّرسُ الثّاني:

الأصـل أن يبتعـد الإنسـان عـن أهـل الضَّـلال والمِلـل الأخـرى مـا اسـتطاع،
نعم، الجار غير المسلم يُكرمُ ولا يُهان وهذا من أخلاق ديننا،
وزميل العمل على غير مِلَّتنا نزوره إذا مرض، ونُعزيه بمن فقد،
هذا الدِّين هو دين أخلاقٍ وإحسانٍ أولاً!
ولكن حفظ العقيدة والدِّين مُقدَّمان على أيّ سلوك،
إذا ما تعلّقَ الأمر بالدُّنيا فكُنْ سمحاً ما استطعتَ،
وإذا ما تعلّقَ الأمر بالدِّين فكُنْ كالصخرة!

الدَّرسُ الثّالث:

لا تقصد غير المسلمين في كنائسهم، ولا كُنُسِهم، ولا مذابحهم،
لا بنيَّـة الاطـلاع، وحُـبِّ المعرفـة، ولا بنيَّـة النقـاش والمحاججـة والدعـوة!
هذا باب قلّما يأتي بخير!
ثمّ فِعلُ أبي بكرٍ لا يُقاس عليه ليكون خطة عملٍ ونهج حياة،
أولاً أبو بكر ليس أحدٌ أعلى إيماناً منه إلا الأنبياء،
فما أدراك أنتَ أيّ لوثةٍ قد تُصيب دينك؟!
والمدينة وقتذاك مجتمع مُختَلَطٌ فيه المسلمين وفيه اليهود،
وهذا الاختلاط ينشأ عنه نوع من الاحتكاك تفرضه الضَّرورة،

ثم قبل كلّ شيءٍ الإسلام عزيز وله دولة!
أما نحن فقلّما تجتمع لنا هذه الأشياء كلّها،
فلا نحن بالإيمان نبلغ شسع نعل أبي بكر، ولا بالعقيدة نبلغ بعض مبلغه!
ولا يخرج حالنا عن أحد أمرين:
إما نحن الأكثريّة وهم القلّة والعمل عليهم عمل مجتمع لا عمل أفراد!
وإما نحن الأقليّة وهم الكثرة ونأي القليل عن الكثير حكمة!
ثم هل سَلِمَ أبو بكرٍ لتسلمَ أنت؟!

الدَّرسُ الرّابع:

المؤمن يغضبُ للّهِ أكثر مما يغضبُ لنفسه،
وقد كان النبيُّ ﷺ لا يغضب لنفسه أبداً،
أما إذا اُنتهِكَتْ حُرمات اللّه فلا يخشى في اللّه أحداً،
فإذا تعلّقَ الأمر في دنيا فالسَّماحة خُلق المؤمن،
وإذا ما كان الأذى في شؤون الحياة فالصَّبر من شيم النُّبلاء،
أما إذا تعلّقَ الأمر في جنب اللّه فكُن بطلاً،
اِضبطْ انفعالاتك، واعرِفْ متى يجب أن تتغاضى وتصفح،
ومتى يجب أن تثور وتحزم،
إنَّ من الناس من يُشعلُ حرباً في البيت لأن الغداء تأخَّر عن موعده،

ولا يهزه أن تخرجَ زوجته بكامل زينتها!
ومن الناس من يُقيم الدُّنيا ولا يُقعدها،
بسبب أنَّ أحد أولاده قد نقصتْ علامته في المدرسة أو الجامعة،
ولكن لا يتمعَّرُ وجهه لأنَّ ابنه لا يُصلي!
ولا تتحرك فيه ذرَّة دِينٍ ولا غَيرة إن كان لابنته صديق مُقرَّب،
يخرج معها، وتخرج معه، باسم الانفتاح والحريَّة!

الدَّرسُ الخامس:

أهلُ الدِّيانات الأخرى في أخلاقهم، كالمسلمين في أخلاقهم، مذاهبُ شتّى!
ونحن إذ نُقدِّر حسن الخُلق من المسلم وغيره،
ونُنكر ونستقذر سوء الخُلق من المسلم وغيره،
فلا ننسى أنّ الكُفر بحدِّ ذاته قلّة أدبٍ مع اللّه،
بغض النظر عن أدب صاحبه مع الناس!
وأيّ قلّة أدبٍ مع اللّه أكثر من أن يُنسب له الزَّوجة والولد،
أو أن يُقال عنه فقير، أو أن يُعبدَ معه غيره سبحانه،
أو أن يُنكر وجوده أساساً من ملحدٍ خلوق؟!
نحترم صدق الكافر، وأمانته، والتزامه بعمله،
ونمقتُ كذب المسلم، وخيانته، وإخلاله بمواعيده،
ولكن المسلم مسلم على أي حالٍ كان، والكافر كافرٌ على أي حالٍ كان!

الأمر عقيدة، ولا هو هوىً ولا استنساب،
ولا يحقُّ لكَ أن تزوِّج ابنتك لغير مسلمٍ ولو كان خلوقاً،
ولا أن تأكل ذبيحة مشركٍ ولو كان أميناً!

12

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾

لا يُوجَدُ فُرَصٌ ضائعةٌ،
كلُّ شيءٍ فاتَكَ لم يكُنْ بالأصلِ لكَ،
ولو تأمّلتَ كلَّ ما أردته فلمْ تنَلْه،
لوجدتَ أنَّ الخيرَ كلَّه كان في ألّا تنالَه،
إنّ النّجاةَ أحياناً في أن تفوتَكَ الأشياءُ!
إنّ رحمةَ اللّهِ في المنعِ لهيَ أبلغُ منها في العطاء،
ذاك أنَّ العطاءَ اختيارُك لنفسِكَ وإنْ كان بكرمِ اللّه،
أمّا المنعُ فهو اختيارُ اللّه لكَ بحكمتِه،
وخيرةُ اللّهِ لعبده خيرٌ من خيرة العبدِ لنفسِه
وكلُّ أقدارِ اللّهِ خيرٌ وإن أوجعتكَ!

13

كان حبيبُ بن ضمرةَ الليثيِّ شيخاً كبيراً هَرِماً،
فلم يُهاجر إلى المدينة المنورة كما فعل الصحابة،
ولما أنزل اللّه تعالى قوله:
﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾
قال لأولاده: احملوني إلى رسول اللّه ﷺ!
فحملَه أولاده على سريرٍ يريدون أن يُهاجروا به،
فلما بلغَ التنعيم إلى مشارف مكة حضره الموت،
صَفَّقَ بيمينه على شماله وقال:
اللهم هذه لكَ، وهذه لرسولك، أبايعكَ على ما بايعتكَ يدُ رسول اللّه ﷺ،
ثم ماتَ... وبلغَ خبر موته الصحابة في المدينة،
فقالوا: لو وصلَ إلى المدينة لكان أَوْفى أجراً!
فأنزلَ اللّه تعالى قوله:
﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

الدَّرسُ الأوّل:

نيَّةُ المؤمن من عملِه، وقد يبلغُ بنيَّتِه ما لم يبلغه بعمله،
وفي الأثر أنَّ قحْطاً أصاب النَّاسَ على عهد موسى عليه السلام،
فنظـر راعٍ إلـى الجبـال وقـال: اللهُـمَّ لـو كان لـي مثـل هـذه ذهبـاً لتصدَّقـتُ بهـا علـى عبـادكَ،
فأوحى اللّه تعالى إلى موسى عليه السلام: أن يا موسى قُلْ لعبدي أنّي قبلتُ منه صدقته!
لحظة صدقٍ في النيَّة اطَّلع اللّه تعالى عليها فرضيها، فكتب بها أجر عمل لم يقع!
وفي العودة من غزوة تبوك قال النبيُّ ﷺ لأصحابه:
إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً، إلا شركوكم في الأجر، حبسهم المرض!
هذا هو أجر صلاح النيات أخذوا أجر المجاهدين وهم على فراشهم،
علمَ اللّه تعالى صدقهم وأنهم لولا أعذارهم لخرجوا،
فكتب لهم أجر جهادٍ لم يمشوا فيه خطوة!
فأصْلِحْ نيّتكَ دوماً، واجعلْ كل خطوةٍ تخطوها مقصدها وجه اللّه تعالى،
فكل عملٍ قُصِدَ به غيره سبحانه، كان غنياً عنه وعن صاحبه ولم يُثِبْ عليه،
ورُبَّ زائران لمريضٍ واحد، أحدهما جاء يطلبُ منفعةً والآخر يطلبُ الأجر من عند اللّه،

اشتركا في الفعل ولكن تباينت النِّيات،
واللّه مُطَّلع وناظر، ونحن ليس لنا إلا الظّاهر!
ورُبَّ متصدِّقان على فقير، أحدهما يُرائي، والآخر يحتسبُ الأجر من ربه،
تشابهت الأفعال واختلفت النِّيات!
من عمِلَ لأجل الناس كان عمله هباءً،
ومن عملَ لأجل اللّهِ فإنَّ اللّه شاكرٌ عليم!

الدَّرسُ الثّاني:

يُحدِّثنا النبيُّ ﷺ عن الذي قتل تسعةً وتسعين نفساً،
فقصدَ عابداً يسأله إن كان له توبة، فلما أخبره أن لا توبة له، قتله فأتمَّ به المئة!
ثم ندم بعد ذلك وقصد عالماً يسأله إن كان له توبة،
فقال له: سبحان اللّه ومن يمنعك من التوبة!
ولكنَّك بأرضِ سُوءٍ، وإنّ في القرية الفلانيّة عباداً صالحين فاتهم،
فخرج الرَّجلُ يريدُ قرية الصَّالحين ليتوب، وفي الطِّريق أدركَه الموتُ،
فجاءت ملائكة العذاب تريدُ أن تأخذه لأنَّ فعل التَّوبة لم يحصل منه،
وجاءت ملائكة الرحمة تريدُ أن تأخذه لأنَّ نيَّةَ التوبة تحققتْ فيه،
فأرسلَ اللّهُ تعالى مَلكاً يحكم بينهم وقال لهم: قِيسوا المسافة

بيـن القريتيـن:

فإلى أيهما كان أقرب فهو من أهلها،

فأوحـى اللّه تعالـى إلـى قريـة الصَّالحيـن أنْ تقاربـي، وإلـى قريـة الفاسـدين أن تباعـدي،

فلما قاسـوا المسـافة وجدوه أقـرب إلـى قريـة الصالحيـن، فأخذتـه ملائكـة الرحمـة!

ما أعظمه من ربٍّ، وما أرحمه من إله،

يُباعد قريةً، ويُقرِّب أخرى لأجل نيَّةٍ صالحة لعبد له،

أعطاه أجر التَّوبة لأنه مشى فقط دون أن يصل،

وحدها النَّوايا تقطعُ ما عجزت الأقدامُ أن تقطعه!

الدَّرسُ الثّالث:

إنَّ اللّه تعالـى إذا رأى النِيَّـة خالصـةً لـه، أعـانَ صاحبهـا علـى إتمـام العمـل،

وإنْ قضـتْ حكمتُـه ألا يتـمَّ هـذا العمـل، جـاءتْ رحمتُـه لتكتـبَ الأجـر كامـلاً!

وإذا رأى النيَّةَ ليستْ لوجهه الكريم، تركَ صاحبها وعمله،

فلا هو إنْ بلغ تمام العمل مأجور، ولا هو إنْ بلغ نقصانه مجبور!

روى الحسن البصريُّ قصةً عظيمةً عن إخلاص النوايا فقال:

كانـت شـجرةٌ تُعبـد مـن دون اللّه، فجـاء إليهـا رجـلٌ فقـال: لأقطعـنَّ هـذه الشَّـجرة!

فجاء إليها ليقطعها غضباً للّه، فلقيه الشيطان في صورة إنسانٍ
فقال له: ما تريدُ؟
فقال: أريدُ أن أقطع هذه الشجرة التي تُعبدُ من دون اللّه!
فقال له: إذا أنتَ لم تعبدها، فما يضرّكَ من عبدها؟
فقال: لأقطعنَّها!
فقال له الشّيطانُ: لأمنعنّكَ!
فتصارعا، فصرَعه المؤمنُ!
فقال له الشَّيطانُ: هل لكَ بما هو خيرٌ لكَ من ذلك؟ لا تقطعها ولكَ ديناران إذا أصبحتَ عند وسادتك!
قال: فمن لي بذلك؟
قال: أنا لكَ!
فرجعَ، فأصبحَ فوجدَ عند وسادته دينارين!
ثم أصبح بعد ذلكَ فلم يجد شيئاً، فقام غضبان ليقطعها فتمثَّل له الشيطان،
فقال له: ما تريدُ؟
فقال: أقطع الشَّجرة التي تُعبدُ من دون اللّه.
قال: كذبتَ ما لكَ إلى قطعها من سبيل،
فتصارعا، فصرَعَه الشّيطانُ، ثم له قال: أتدري من أنا؟
أنا الشَّيطان، عندما جئتَ أول مرّةٍ غضباً للّه لم يكن لي عليكَ سبيل،
فخدعتك بالدينارين فتركتها،
فلما فقدتهما جئت غضباً للدينارين، فسُلِّطتُ عليكَ!

الدَّرسُ الرّابع:

سِرْ إلى اللّه تعالى على أية حالٍ كنتَ،
فإذا كان فيكَ مرضٌ فنعم عبادة المريض، لا يُنسيه ألمه حقَّ ربّه عليه ،
وإن كنت ذا ذنبٍ فنعم عودة التائبين،
ثم هي قاعدة واحدةً لا ثاني لها : إذا لم تستطعْ ترك ذنبٍ فحاصره بالطّاعات!
إياكَ أن تغادر الطريق المؤدية إلى اللّه،
سِرْ ولو بعَرجٍ فنِعمَ الخطى العرجاء في الحقّ، وبئس الخطى القويّة في الباطل!
وإن كنت فقيراً فإنَّ للّه عباداتٍ لا شأن لها بالمال،
هذه ميدانك وساح جهادك فالزمْ ثغركَ،
وإن كنت غنياً فدونك حوائج الناس فاقضِها،
فما عُبد اللّه تعالى بشيءٍ أحبُّ إليه بعد ما افترضه على عباده،
من جبرِ خواطر النَّاس، وقضاءِ حوائجهم،
وإنّ النَّاسَ عيال اللّه وأحبُّهم إلى اللّه أنفعهم إلى عياله!

14

﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾

الحياةُ ليستْ فانُوساً سِحريًّا
يختبئُ فيه جنيٌّ لتحقيقِ أُمنياتِكَ!
هناك نِعمٌ كُتِبتْ لكَ،
وستنالها رغماً عن الدّنيا كلّها،
وهناك حِرمانٌ كُتِبَ عليكَ،
لن تعوِّضه ولو كان معكَ الإنسُ والجنُّ قبيلاً،
هذا هو أبلغ درْسٍ في حياتك فاحْفَظه جيداً:
عظِّمْ النِّعم التي بين يديك، تراها كافيةً وتفيض،
واستصْغِر الحِرمان تجدُ الحياةَ تمضِي به،
وما دون ذلك همّ أنزلتَهُ على نفسِكَ
ووهْمُ سعادةٍ قيّدتَ نفسك فيه،
اِقْنَعْ ترضَ، ولا سَعادة إلا لقانِعٍ!

15

عن البراء بن مالك قال:
لمّا نزلتْ: ﴿لَّا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ﴾،
قال لي النبيُّ ﷺ: ادْعُ لي زيد بن ثابت، وليأتِ باللّوح والدَّواة.
فلما جاء زيدٌ، أملاها عليه النبيُّ ﷺ ليكتبها،
وخلفَ ظهر النبيِّ ﷺ عمرو بن أم مكتوم الأعمى،
فقال: يا رسول اللّه، فما تأمرني، فإنّي رجلٌ ضريرُ البصر؟
فأنزل اللّه تعالى مكانها قوله:
﴿لَّا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ﴾

الدَّرسُ الأوّل:

إنّه الجِهاد، ذروة سَنام الإسلام وحامي حماه،
شوكة المسلمين في حلوق أعدائهم، وساعدهم الضارب بعزم مرعب،
وقبضتهم اللاكمة وجوه الطامعينِ فيهم بقوة لا تلين،
وإنّها سُنّة التّدافع التي جعلها اللّه بين الأفكار والأمم،
ولا بُدَّ للتدافع من قوة ماديّةٍ،

لأنَّ الفكرة مهما كانت صائبة يستهينُ بها النَّاسُ دون قوة،
وكم قامتْ من ممالك ودول وإمبراطوريات بقوَّتها الماديَّة فقط،
بينما كانت في قوامها الفكريِّ والروحيِّ أضلّ من حمير أهلها!
والإسلامُ العظيمُ فكرة من الأفكار، والمسلمون أُمَّة من الأمم،
صحيح أنَّ الإسلام العظيم لم ينتشر بالسَّيف،
وإنّما بالحق الكامن فيه فهو دين الخالق العظيم،
وها هو ما زال قائماً وإن زال نوعاً ما سلطان سيفه،
ولكن السَّيف هو الذي مهَّدَ الطريق أمام هذا الدين كي يصل إلى الناس،
لولا بدرٌ وأُحدٌ ما كان بعد ذلك فتح مكة!
ولولا القادسية ما قُرِئ القرآنُ في بلاد فارس،
ولولا اليرموكُ ما فُتِح بيت المقدس ولا القسطنطينية،
وإنَّ الحضارة العظيمة التي أقمناها في الأندلس،
أقمناها بهذا الدِّين العظيم، بروحه وفِكره وتعاليمه،
ولكن كل هذا ما كان ليصلَ إلى هناك دون سيف!
هذا هو صراع الحضارات في أبسط صورة:
إما أن تُغلَبَ تُقلِّد غالبكَ، أو تغلبه فيصير منكَ ويحملُ معكَ السَّيفَ نحو بلاد جديدة،
من بلاد فارس المفتوحة بالسَّيف خرج علماء الحديث،
ومن المغرب المفتوح بالذِّراع واليد خرج فاتحو الأندلس،
وعلى يد الأتراك العثمانيين رفرفتْ راية الإسلام خفاقةً في أوروبا!

الدَّرسُ الثّاني:

اُدْعُ لي زيدَ بن ثابت!
هذه الدُّنيا اختصاصٌ بالدرجة الأولى،
والعاقلُ ينظرُ في نفسه ويبصرُ قدراته التي أعطاها اللّه تعالى إياها،
فهي ميدان عمله، ومكان تكليفه،
ولأن الإسلام العظيم دين حياة ففيه متسعٌ للجميع،
حسان بن ثابت لم يحمل السَّيف، ولكنه كان شاعراً بارعاً مرَّغَ أنفَ قريشٍ بقصائده،
فقال له النبيُّ ﷺ: اُهْجُهم وروح القُدس معك!
ولأن المعاركَ موضع السَّيفِ لا موضع القصيدة،
سدَّ خالد بن الوليد غياب حسَّان بن ثابت،
كان البخاريُّ ومُسلمٌ والتَّرمذيُّ وابنُ ماجة والنّسائيِّ للحديث،
وكان طارقُ بن زيادٍ وعُقبة بن نافعٍ للمعاركِ،
كان أبو حنيفة ومالكٌ والشافعي وأحمد للفقه،
وكان قُطز وصلاح الدِّين أُسوداً أمام الأعداء!
وعندما كانت عقيدة المسلمين على المحك، كان لفتنة خلق القرآن أحمد بن حنبل!
وعندما أراد النبيُّ ﷺ تجهيز جيش العسرة،
حان دور الثريِّ عثمان بن عفان،
وحين كان صوت القعقاع في الجيش بألفٍ،
كان العِزُّ بن عبد السّلام يبيعُ أمراء المماليك في الأسواق!

فإنْ كنتَ صاحب فقهٍ فتعليمُ النّاس ميدانك،
وإنْ كنت صاحب أدبٍ وفِكر فالدِّفاع عن العقيدة مكانك،
وإن كنت صاحب مالٍ فحوائج النِّاس محرابك،
وإن كنت طبيباً فعلاج الفقير قبل الغنيِّ عبادتك،
وإن كنت مهندساً فتنفيذ المشاريع بأمانةٍ مكان تكليفك،
وإن كنت مُدرِّساً فصناعة الأجيال مهمّتك،
وإن كنت حداداً أو نجاراً أو ميكانيكياً أو عامل نظافة،
فأنتَ أساس في المجتمع ولا نستغني عنكَ،
وأداء عملك بصدقٍ وأمانة عبادة،
من قال لكَ أن الورشة لا يمكنُ أن تكون محراباً،
وإن كنتِ ربّة منزلٍ فصناعة العظماء ثغرك،
مالكٌ، وأحمدُ، والشافعيُّ، وابنُ تيمية ربّتهم أمهاتُهم!

الدَّرسُ الثّالث:

روى الحافظ ابن عبد البر: إنَّ عبد اللّه العمريِّ العابد،
قد اعتزلَ النَّاسَ للصِّيام والصلاة والقرآن،
وأنه استصغر ما يقومُ به الإمام مالك من تعليم الناس وانشغاله بالفقه،
فكتبَ إليه يحضُّه على اعتزال الناس، والإقبال على العبادة،
والاشتغال عنهم بأمر نفسه!
فكتبَ إليه الإمام مالكٌ يقول: إنَّ اللّه تعالى قسمَ الأعمال كما
قسم الأرزاق،

فرُبَّ رجلٍ فُتِحَ له في الصَّلاة ولم يُفتح له في الجهاد،
ورُبَّ رجلٍ فُتِحَ له في الصيام ولم يُفتح له في الصَّدقة،
وإنَّ نشر العلم من أفضل أعمال البِرِّ، وقد رضيتُ بما فتح اللّٰه تعالى لي فيه،
وما أظنُّ ما أنا فيه أقل مما أنتَ فيه من الأجر، وأرجو أن يكون كلانا على خير!
يا لمالكٍ ما أفقهه!
فإن فتحَ اللّٰه تعالى لكَ باب عبادةٍ فاركُض بها كالريح،
وجاهِدْ نفسك على أن تقوم بالمفروض عليكَ، وإنْ وجدتَ هذا الجهاد عسيراً!
ولكن إياكَ أن ترى ما أنتَ فيه أفضل مما فيه غيرك! فهذا باب من أبواب الكِبر الخفيّة،
وأيُّ كبرٍ أعظم من أن يستعظم العبد عبادته، ويستصغر عبادة غيره!
فإنْ كنتَ من أهل القرآن فلا تستخفَّ بأهلِ الصَّدقة،
وإنْ كنت من أهل المساجد فلا تستصغرْ أهل الجهاد،
وإن كنتَ من أهل القيام فلا تستقلَّ عمل أهل الصِّيام،
ونظرة المرء إلى نفسه على أنَّه عبدٌ فيها كل خيرٍ على أيِّ حال!

الدَّرسُ الرّابع:

مـن قواعـد هـذه الشَّـريعة الرحيمـة: إذا أخـذَ اللّه مـا أوهَـبَ، أسـقطَ مـا أوجـب!

فالوقوف في الصلاة ركن من أركانها على الإنسان الصحيح،

أمـا المـريض الـذي لا يسـتطيعُ القيـام فيصلّـي قاعـداً، فـإن عجـز عـن القعـود صلـى ممداً،

واللّه أعدل وأرحم من أن يأخذ منكَ شيئاً ثم يطالبكَ به!

لهذا يُباحُ للمريض أن يُفطر، ويُسَنُّ للمسافر أن يقصر الصلاة،

وتسـقطُ الـزكاة عـن الفقيـر ويُطالـب بهـا الغنـيِّ، بـل إنّ الفقيـر يُعطـى مـن زكاة الغنـيِّ!

ومـن رحمـة اللّهِ بالنسـاء أنهـنَّ يقضيـنَ الصيـام فـي الحيـض والنفاس، ولا يقضيـنَ الصلاة!

تخفيفـاً مـن ربنـا ورحمـة رغـم أنَّ الصَّـلاة هـي ركـنُ الإسـلام الأوَّل بعـد التوحيـد!

فسـبحان مـن تجلّتْ رحمتُـه حتـى فـي أوامـره، كمـا تتجلّـى فـي منحـه وأعطياتِه!

16

﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾

سيُغريكَ الشَّيطانُ لكنّه لن يُجبِرك!
وسيفتحُ لك بعضُ النّاس بابَ المعصيةِ ولكنَّهم لن يجُرُّوك عُنوة،
ستبقى دوماً مالِكَ قرارِكَ وسيّد أمرِكَ،
ما تفعلُهُ ستفعلهُ مختاراً،
وما تتركُهُ ستتركهُ مختاراً،
والمعصيةُ تقعُ من الجميعِ ولكن لا تتذرَّعْ بغيرِكَ،
ولا تحتجّ بالظُّروف،
اللّه حاضرٌ دوماً وإنْ غاب النّاسُ،
سيّدةُ القصر الجميلة في غُرفةٍ مُغلَّقةٍ بسبعة أبواب،
لم تُجبِرّ يوسف عليه السَّلام على المعصية!
من أرادَ أن يعصي سيجدُ من ثقبِ البابِ مدخلاً
من أراد أن يفرَّ من المعصيةِ سيجدُ من ثقبِ الباب مهرباً!

17

يقولُ أنسُ بن مالكٍ خادمُ رسول اللّه ﷺ:
غَابَ عَمّي أَنَسُ بنُ النّضْرِ عن قِتَالِ بَدْرٍ،
فَقالَ: يا رَسولَ اللّهِ، غِبْتُ عن أَوّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ المُشْرِكِينَ،
لَئِنِ اللّهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ المُشْرِكِينَ لَيَرَيَنّ اللّهُ ما أَصْنَعُ،
فَلَمّا كانَ يَوْمُ أُحُدٍ وانْكَشَفَ المُسْلِمُونَ،
قالَ: اللّهُمّ إنّي أَعْتَذِرُ إلَيْكَ ممّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ يَعْنِي أَصْحَابَهُ،
وأَبْرَأُ إلَيْكَ ممّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ يَعْنِي المُشْرِكِينَ،
ثُمّ تَقَدّمَ ...
فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ، فَقالَ: يا سَعْدُ بنَ مُعَاذٍ،
الجَنّةَ ورَبِّ النّضْرِ،
إنّي أَجِدُ رِيحَهَا مِن دُونِ أُحُدٍ!
قالَ سَعْدٌ: فَما اسْتَطَعْتُ يا رَسولَ اللّهِ ما صَنَعَ!
فَوَجَدْنَا به بِضْعًا وثَمَانِينَ ضَرْبَةً بالسّيْفِ،
أَوْ طَعْنَةً برُمْحٍ، أَوْ رَمْيَةً بسَهْمٍ،
ووَجَدْنَاهُ قدْ قُتِلَ وقدْ مَثّلَ به المُشْرِكُونَ،
فَما عَرَفَهُ أَحَدٌ إلّا أُخْتُهُ ببَنَانِه،
قالَ أَنَسٌ: كُنّا نُرَى أنّ هذِه الآيَةَ نَزَلَتْ فيه وفي أَشْبَاهِهِ:
﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّه عَلَيْهِ﴾
وَإنّ أُخْتَهُ -وهي تُسَمّى الرُّبَيِّعَ- كَسَرَتْ ثَنِيّةَ امْرَأَةٍ،
فأمَرَ رَسولُ اللّهِ ﷺ بالقِصَاصِ،

فَقالَ أَنَسٌ: يا رَسولَ اللّٰهِ، والذي بَعَثَكَ بالحَقِّ لا تُكْسَرُ ثَنِيَّتُهَا.
فَرَضُوا بالعوض والدِّية، وتَرَكُوا القِصَاصَ،
فَقالَ رَسولُ اللّٰهِ ﷺ: إنّ مِن عِبَادِ اللّٰهِ مَن لو أَقْسَمَ علَى اللّٰهِ لَأَبَرَّهُ.

الدّرسُ الأوّل:

خرجتْ قُريش من غزوة بدر مُثخنة،
ومرّغ الإسلام كبرياءها في التّراب، وقتلَ أبرز رؤوس الكفر فيها،
لهذا لم تكن غزوة أُحُد مجرّد جولة ثانية من صراع الحق والباطل،
كانتْ بالنسبة إلى قُريش تعني الثأر،
أما المُسلمون فقد كانوا على موعد مع واحد من أبلغ الدروس في تاريخ الإسلام!
لاحظَ النبي ﷺ ميمنة جيش قريش بقيادة خالد بن الوليد،
فخشِي أن يلتفّ بفرسانه من وراء الجبل ويُصبح المسلمون بين فكّي كماشة،
فوضع سبعين من الرُّماة على الجبل، وأصدر إليهم أمراً عسكرياً واضحاً:
لا تبرحوا أماكنكم، إن رأيتمونا نُهزم فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا نُنصر فلا تُشاركونا!
وبدأت المعركة، وأبلى المسلمون بلاءً حسناً،

وذاقتْ قُريش بعض الذي ذاقته في بدر، فرّ جنودها، وتبعهم المسلمون،

ثم ظنّ الرُّماة على الجبل أن الأمر انتهى، فنزلوا يُريدون الحظ من النصر والغنائم!

عندها حدث ما كان النبي ﷺ يخشاه،

التفّ خالد بفرسانه وصار المسلمون بين فكّي كماشة، وتحوّل نصرهم إلى هزيمة،

وتعلّموا الدرس البليغ:

هذه الأُمة لن تُحقِّق النصر ما لم تلتزم بأوامر نبيِّها وقائدها!

فإن كانتْ غزوة أُحُد قد انتهتْ،

فإنّ مهمة الرُّماة الذين يحفظون ظهور المسلمين لم تنتهِ بعد،

فطوبى للمُدافعين عن هذا الدّين كلّ في مجاله،

طوبى للقابضين على الجمر رافضي الانحناء والتلوّن،

كلما وهنوا قليلاً تعزّوا بصوت النبي ﷺ يُنادي فيهم: لا تبرحوا أماكنكم!

فلا تبرحوا أماكنكم!

الأمهات اللواتي يُربِّين أولادهن على الصلاة والصيام والأخلاق،

أنتنّ تحمين ظهورنا فلا تبرحن أماكنكن!

الآباء الذين يسألون أولادهم عن جزء عمّ كما يسألونهم عن علاماتهم المدرسية،

أنتم تحمون ظهورنا فلا تبرحوا أماكنكم!

المُدرِّسون الذين يُؤمنون أنّ هذا الجيل إذا تربّى جيداً،

يُمكن أن يخرج منه أبو بكر وعمر وعثمان وعليٌّ مرة أخرى،

أنتم تحمون ظهورنا فلا تبرحوا أماكنكم!

المُوظفون الذين يُؤدون أعمالهم بمهنية وضمير، ويُراقبون اللّه قبل مدرائهم،

أنتم تحمون ظهورنا فلا تبرحوا أماكنكم!

المهندسون الذين يُشيِّدون الجسور ويشقون الطُرُق،

دون غشٍّ واحتيال وصفقاتٍ مشبوهة،

أنتم تحمون ظهورنا فلا تبرحوا أماكنكم!

فتيات الحجاب والعفة اللواتي يُربين أنفسهن استعداداً لتربية أولادهن،

أنتنَّ تحمينَ ظهورنا فلا تبرحن أماكنكنَّ!

شباب صلاة الفجر، ومجالس الحديث، ودُور القرآن،

أنتم ترسانة الإسلام الأفتك والأقوى، فلا تبرحوا أماكنكم!

كل واحد فينا لو تأمّل موضع قدميه لاكتشف أنّه جنديٌّ لأجل هذا الدين،

وأنّه لو حارب بشراسة وأمانة فإنّه سيسد ثغراً هاماً، ويدفع خطراً عظيماً،

كل واحد منا في مكان وضعه اللّه فيه، وألقى على كتفه مسؤولية وأمانة،

فلا تبرحوا أماكنكم!

الدَّرسُ الثّاني:

بعد نزول الرُّماة عن الجبل انكشفَ المسلمون،
وأعملت قُريش فيهم السّيف، وارتقى الشهداء واحداً تلو الآخر،
لهذا انسحبَ المسلمون إلى الجبل ليصعُبَ على قريش تتبعهم،
وشُجّ رأس النبي ﷺ وكُسرتْ مقدمة أسنانه،
وهو يمسحُ الدم عن وجهه الشريف ويقول: كيف يفلح قوم شجُّوا رأس نبيهم؟!
وعند الجبل أراد النبيُّ ﷺ أن يصعد على صخرة فلم يستطع بأبي هو وأمي،
بسبب ثقل الدرعين، وما أصاب الجسد الشريف من جراح،
عندها انحنى طلحة بن عبيد اللّه وجعل من جسمه درجاً يرقى عليه النبي ﷺ ليصعد إلى الصخرة،
فلما وصل إليها قال: أوْجَبَ طلحة! أي وجبتْ له الجنة!
أوجبَ طلحة لأنه جعل من نفسه سُلّماً يرقى عليه النبي ﷺ،
ولكن باب الوجوب لم يُغلق بعد، فما زال بإمكاننا أن نُدركَ طلحة،
النبي ﷺ ليس معنا بجسده لنذلّلَ له الظُّهور والرِّقاب ليصعد عليها،
ولكن دينه وشرعه وسُنَّته بيننا،
وكل من حمل هذا الدين على عاتقه يرقى فقد أوجبَ، وأدركَ بإذن اللّه طلحة!
أيها المجاهد الذي وضع روحه على كفه، لإعلاء كلمة لا إله إلا اللّه قد أوجبتَ!

أيها الداعية الذي قال كلمة الحق ولم يخش في اللّه لومة لائم،
ودلّ الناس على اللّه قد أوجبتَ!
أيَّتُها الفتاة التي امتثلتْ أمر النبي ﷺ بالحجاب والعفة،
ليعود الإسلام سيرته الأولى قد أوجبتِ!
أيُّها الشَّابُّ الذي راوده الإعلام الهابط عن دينه فقال معاذ اللّه،
وزاحم في حِلق الذِّكر، وحلقات التحفيظ، وأدام السير إلى المسجد قد أوجبتَ!
أيُّها الأبُ الذي أمر أولاده الصلاة أبناء سبع،
ودرَّبهم على الصِّيام منذ نعومة أظفارهم، قد أوجبتَ!
أيّها المُدرِّس الباحث بين تلاميذه عن أبي بكر وعمر قد أوجبتَ!
أيَّها الطبيب الإنسان، وأيُّها النَّجار الصادق، وأيُّها الموظف الأمين،
وأيُّها الابن البار، وأيُّها الجارُ الصَّالح، وأيُّها الأخ الحنون،
وأيّتها الزّوجة المُحبّة، وأيتها الكِنّة الخلوقة،
قد أوجبتم جميعاً بإذن اللّه!
فكلما ضاقت الدُّنيا بكم، وراودتكم عن أخلاقكم ودينكم،
تذكّروا أنّ الجنّة قد وجبتْ لطلحة لأنّه كان سُلّماً لهذا الدّين،
وتخيَّلُوا النبيَّ ﷺ يقول: أوجبتَ فلان وينطقُ اسمك!

الدّرسُ الثّالث:

لمّا دنا العدوُّ من النبي ﷺ يوم أحُد،
دافعَ عنه مصعب بن عمير حتى قُتل، وأبو دُجانة حتى كثُرتْ فيه الجراح،

فقال له النبيُّ ﷺ: مَنْ رجلٌ يبيعُ لنا نفسه؟!
فوثبَ زياد بن السّكن، فقاتلَ حتى أثخنته الجراح،
فقال له النبيُّ ﷺ: أُدنُ مني، فوسّده فخذه حتى ماتَ عليها!
نعم، انتهتْ غزوة أُحد، ولكن صوتَ النبيِّ ﷺ ما زال يصدح:
مَنْ رجلٌ يبيعُ لنا نفسه!
رحلَ النبيُّ ﷺ عن هذه الدنيا بجسده،
ولكنه باقٍ أبد الدّهر بدينه وشريعته وأمته،
وما زال السُّوق مستقراً، وعرض البيعِ سارياً فمن يبيعُ له نفسه!
كلما رأيتَ فقيراً ذا حاجةٍ وعيالٍ، تذكّر قول نبيِّك: من يبيعُ لنا نفسه؟
وقُلْ: أنا يا رسول الله! وأخرجْ من مالكَ وتصدّق!
وكلما جُمع مالٌ لعملية جراحية طارئة لفقير، تذكّر قول نبيك: من يبيعُ لنا نفسه؟
وقل له: أنا يا رسول الله! وساهِمْ بقدر ما تستطيع!
وكلّما مرض عندكَ أم أو أب وأنتَ غارقٌ في وظيفتك وتجارتك،
تذكّرْ قول نبيك: من يبيعُ لنا نفسه؟
وقُلْ له: أنا يا رسول الله! ثم فرِّغْ وقتك، وخذ المريض منهما إلى الطبيب!
وكلما نشبَ خلافٌ عائلي لن يُحلّ إلا إذا تنازل أحدهم وبادر بالصلح والتنازل،
تذكرْ قول نبيّك: من يبيعُ لنا نفسه؟
وقل له: أنا يا رسول الله! وكُنْ الأطيب قلباً، والأسرع مبادرة!
وكُلّما فُتح لكَ بابٌ لشهوة حرام ميسورة مستورة،

تذكّرْ قول نبيّك: من يبيعُ لنا نفسه؟
وقُلْ له: أنا يا رسول الله! ثم تعففْ متحسِّساً أنّ من تركَ شيئاً لله عوّضه الله خيراً منه!
بيعُ النّفس لله ورسوله ليس في المعارك فقط، وإن كان هذا أجملَ البيع وأجلّه،
وإنّما في كل يوم هناك سوق بيعٍ للنَّفس في سبيل اللهِ ورسوله، فبِعْ نفسكَ!

الدّرسُ الرّابع:

إنّ اللهَ يُحِبّ صادقَ العهدِ معه، ليس في الحربِ فقط، وإنما في السِّلم كذلك،
فالحياة في سبيلِ اللهِ عمل جبّار تماماً كالموت في سبيل الله!
فإذا عاهدتَ الله أن إذا أعطاكَ المالَ أن تكون كثير الصدقة،
فإياكَ إن أغناكَ أن تحنث بالعهد،
فإنه لا شيء أحب إليه من وفاء عبده على ما عاهده،
وتذكر أن الذي أغناك بعد فقرٍ قادر على أن يفقركَ بعد غنى!
وإذا عاهدتَ الله أن إذا شفاك من مرضٍ، أن تُكثر من الخطى إلى المساجد،
وأن تثني الركب في حلق العلم وتحفيظ القرآن،
وأن تحج وتعتمر، فإياك إن شفاكَ أن تحنث بالعهد،
فإنه لا شيء أحبُّ إليه من وفاء عبده بما عاهد،

وتذكر أن اللّه الذي شفاك بعد مرضٍ قادر على أن يمرضكَ بعد عافية!
وإذا عاهدتَ اللّه أن لا تعصِه، فجاهد نفسكَ على ألا تعصي،
الذنب الذي تركته للّهِ لا تعد إليه مهما كان،
وإن انتكستَ فعُدْ أدراجكَ على الفور، وجدد العهد،
وقل له يا رب: أنا على عهدك ووعدك، ليست إلا زلة قدم، وسوسة شيطان، وزينة نفس،
فإن الباب الذي فُتح لأنس بن النضر لم يُغلق بعد،
فيا لحظِّ الدَّاخلين إلى اللّه منه!

الدَّرسُ الخامس:

بينما النبيُّ ﷺ يُشرفُ على دفن شُهداء غزوة أُحدٍ قال:
ادفنوا عمرو بن الجموح وعبد اللّه بن حرام في قبرٍ واحدٍ، فإنّهما كانا متحابين!
وانْظُرْ إلى جمال قول النبيّ ﷺ: فإنهما كانا مُتحابين!
ما أجمل أن يُعرف الإنسان بين الناس بصفاته العذبة،
أن يُعرف بالمُحب، والشهم، والكريم، والنبيل،
إذا ذُكر اسمه لمعتْ صورة وجهه في أذهان السامعين كأنها قلب أحمر،
كذلك الذي نضعه وراء العبارات الجميلة التي نكتبها!
ترجمَ الذهبيُّ في سِيَرِ أعلام النُّبلاء لمحمد بن ميمون فقال:

أبـو حمـزة السُّـكري، محمـد بـن ميمـون المَـرْوَزِي، ولـم يكـن يبيـعُ السُّـكر،
وإنما سُمِّيَ بالسُّكري لحلو كلامه!
فيا تُرى لو أراد الذين يعرفوننا أن يستبدلوا أسماءنا بصفاتنا التي نُعاملهم بها فماذا عساها تكون؟!
مـاذا سـيختار الأبـوان لنـا اسـماً، الابـن البـار المرضـيُّ المُبـارك، أم الابـن العـاق الفـظُّ السَّـليط؟!
مـاذا سـتختار الزوجـة اسـماً لنـا، الـزوج الحنـون الكريـم المُتسـامح، أم الـزَّوج العنيـف القاسـي؟!
ماذا سيختار الزوج لكِ اسماً، الحنونة المُحبّة الكريمة الصَّبورة، أم سليطة اللسان قاسية القلب جارحة الكلام؟!
مـاذا سـيختارُ الجـار لـكَ اسـماً، الشـهمُ المعطـاء المُسـالم، أم الغـادر الجشِـع سـيء الخُلـق؟!
مـاذا سـيختارُ زمـلاء العمـل لـكَ اسـماً، حافـظ السـر الأميـن المُهـذب المُؤدب، أم الواشـي والفاضـح؟!
أسـماؤنا لنـا أمـا صفاتنـا فللنّـاس، وهـم الذيـن يضعـون لنـا صفـةً بنـاءً علـى تعاملنـا معهـم،
ويومـاً مـا سـترحل الأسـماءُ وتبقـى الصفـات، فاتركـوا وراءكـم مـن يترحَّـم عليكـم!

الدَّرسُ السّادس:

جاء أعرابيٌّ من الصحراء وبايع النبيّ ﷺ على الهجرة والجهاد.
لم يكُنْ يعرفه من الصّحابة أحد! رجلٌ مجهولٌ في غمار النّاس،
ولكن فيما بعد سيتمنى الصحابة جميعهم لو كانوا ذلك الرجل!
نادى مُناديَ الجهاد أن يا خيل اللّه اركبي،
وخرج الأعرابي مُدافعاً عن هذا الدين في جُملة من خرج،
ثم منّ اللّه على المسلمين بالنصر، وقسم النبي ﷺ الغنائم بين أصحابه،
وترك للأعرابي نصيبه، فلما جاء وقيل له تركَ لك رسول اللّه ﷺ هذا،
أخذَ الغنيمة وتوَجّه إليه، وقال له: يا رسول اللّه ما هذا؟
فقال له: قسمته لكَ،
فقال: ولكن ما على هذا اتبعتكَ يا رسول اللّه،
ولكني اتبعتكَ على أن أُرمى بسهمٍ ههنا، وأشار إلى رقبته،
فأموت فأدخل الجنة!
فقال له النبي ﷺ: إنْ تَصدُقِ اللّهَ يصدُقُك!
فلما كانت جولة أُخرى من القتال،
أُتِيَ به إلى النبي ﷺ محمولاً، والسَّهمُ مغروز في رقبته حيث أشار سابقاً،
فقال النبي ﷺ: أهو هو؟
فقالوا: نعم يا رسول اللّه
فقال: صدقَ اللّه فصدقه اللّه!

ثم كفّنه النبي ﷺ في جُبّتِهِ، وصلى عليه،
وكان ممّا سمعوا من دعائه يومها أنه قال:
اللهم هذا عبدك خرج مُهاجراً في سبيلك، فقُتِلَ شهيداً وأنا شهيد على ذلك!
إنْ تصْدِقِ اللّه يصدُقُك!
يُمكنك أن تتحدث طويلاً عن رغبتك في الجهاد،
وعن نيتك في الالتزام بصلاة الفجر،
وعن أُمنيتك في حفظ القرآن الكريم،
وعن عزمك على الصَّدقة كثيراً لو كنتَ غنياً،
ونحن لا يُمكن أن نحكم عليكَ إلا بظاهركَ، ولكن اللّه سبحانه يراك من الداخل،
ينظر إلى قلبك عارياً من فنون الخطابة، وحسن البلاغة، وضجّة الإعلام والبيانات،
وعلى ما في قلبك سيعطيك!
إنّ اللّه يُعطي على نيّة العمل أجر عمل كامل لم يُعمل،
حين يعلم في قلب عبده صدقاً أنه لو استطاع لعملَ،
ولا يقبل الطاعة على حسن ظاهرها إن علم أن وراءها رياءً وحب شُهرة ونفاقاً،
وقد كان عبد اللّه بن سلول يُصلي الفجر جماعة خلف النبي ﷺ،
وهو في الدرك الأسفل من النار،
لقد عمِلَ بجوارحِه عمَل الصَّالحين وعمِلَ بقلبه عمَل المنافقين،
وإنّما المرءُ بقلبه!

الدَّرسُ السّابع:

كان عمرو بن الجموح رجلاً أعرج شديد العرج،
وكان له أربعة أولادٍ كالأُسُود شجاعةً وإقداماً، شهدوا مع النبيّ ﷺ بدراً.
فلما كانتْ غزوة أُحُدٍ وأرادوا الخُروج في جيش المسلمين،
قالوا لأبيهم: إنّ اللّه عزّ وجلّ قد عذركَ.
فأتى النبيّ ﷺ وقال له: إنّ بَنِيّ يُريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه،
والخروج معك فيه،
واللّهِ إني لأرجو أن أطأَ بعرجتي هذه في الجَنّة!
فقال له النبيُّ ﷺ: أما أنتَ فقد عذركَ اللّه، فلا جِهاد عليكَ.
وقال لأولاده: ما عليكم أن لا تمنعوه، لعلّ اللّه أن يرزقَه الشّهادة!
فأذِنوا له بالخروج فخرجَ،
وفي الطريقِ قال للنبيّ ﷺ: أرأيتَ إن قاتلتُ في سبيل اللّهِ حتى أُقتل،
أمشي برجلي هذه صحيحةً في الجنة؟!
فقال له: نعم!
فقُتِلَ يوم أُحُد، فمرّ عليه النبيُّ ﷺ وهو بين القتلى،
وقال له: كأني أنظُرُ إليكَ تمشي برجلكَ هذه صحيحةً في الجَنّة!
يا لها من بطولةٍ يا عمرو بن الجموح، تخرجُ للجهاد وقد تخلّفَ كثيرٌ من الأصِحّاء،

يا له من درس بليغ مفاده: سِرْ إلى اللّٰه على أيّةِ حالٍ كنت!
لا تدعْ شيئاً يُكبلك، تحاملْ على نفسك، فإنها أيام تمضي والموعد الجنة إن شاء اللّٰه!
من أكثر ما يُدني الناس من الجَنّة فعل الخير طلباً لرضى اللّٰه،
ولو لم يفعلوا عُذروا ولم يلُمْهُم أحد!
البطنُ الجائعُ الذي تُطعمه وليس بينك وبينه قُربى ولا رَحِم،
تبتغي بذلك وجه اللّٰه خطوة إلى الجنة!
والخلافُ الزوجيُّ الذي تُنهيه وليس بينك وبين الزوجين قُربى ولا رَحِم،
تريدُ بهذا الصلح أن تجمعَ الأُسرة، وتحفظَ الأولاد من الضياع،
تبتغي بذلك وجه اللّٰه خطوة إلى الجنة!
الحقُّ الذي تُحاول أن تعيدَه لأصحابه لا ناقة لكَ ولا جملٌ فيه،
تبتغي بذلك وجه اللّٰه هو خطوة إلى الجنة!
الولدُ العاقُّ الذي تُعيدُه إلى بِرِّ أبيه،
ولا يربطك بالاثنين رَحِم ولا قُربى خطوة إلى الجنة!
المريضُ الذي تسعى في علاجه،
والمسكينُ الذي تساعده في الحصولِ على عملٍ،
والأرملةُ التي تُغنيها عن سؤالِ الناس،
كل هؤلاء خطوات إلى الجنة،
وما تُعُبِّدَ اللّٰه بشيءٍ أحسن من الإحسان إلى خلقه!

الدَّرسُ الثامن:

قد يخسرُ الحقُّ معركةً، ولكنه نهاية المطاف يكسِبُ الحربَ!
وعلينا ألا ننشغِلَ بالنَّصرِ والهزيمة،
وإنما بأن نكون في صفوف الحقِّ، كارهين وهاجرين لصفوف الباطل!
فالنَّصرُ والهزيمةُ مجرّد طقس، أمّا الإيمانُ مناخ!
فلا يجعلكم تقلُّبُ الطقس تشُكُّون في صحّة المناخ!
إنّ هذا الدِّين يُمتحنُ أهلُه بالهزائم لحكمةٍ بالغةٍ،
وهي ألا تمتلئ صفوفه بالمنافقين!
ويمُنُّ اللّٰه تعالى على أهلِ هذا الدِّين بالنّصرِ لحكمةٍ بالغةٍ،
وهي أن لا يشُكُّوا في سلامة المنهج!
وهزيمةٌ تجعلُكَ تلجأُ إلى اللّٰه، وتُراجع حساباتك،
خير من نصرٍ يُطغيكَ، فتحسبُ معه أنك سيّدُ الدُّنيا!
وسبحان من يُؤَدّبُ عباده بما يكرهون لحكمةٍ بالغةٍ،
وهي أن يجعلهم له كما يُحِبُّ!

18

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾

ليس مخيفاً أن تُطيعَ اللّهَ تعالى فيحرِمكَ،
فإنّه وقتذاك يُقرِّبُكَ،
وإنّما المخيفُ أن تعصيَه فيُعطيكَ،
فإنّه وقتذاك يُملي لكَ!
أحياناً يُغدِق اللّهُ تعالى بالأُعطياتِ استدراجاً!
إطباقُ البحرِ على فرعون سبقَه: أليسَ ليَ ملكُ مصر!
والنِّعالُ على رأس النُّمرود سبقَها: أنا أُحيي وأُميتُ!
والرِّيحُ التي اقتلعتْ عاداً من جذورها كان قبلها: من أشدُّ منَّا قوَّة!
خذها عندكَ قاعدة:
النِّعمةُ مع الطَّاعة إكرام، والنِّعمةُ مع المعصيةِ استدراج!

19

روى البُخاريُّ في صحيحه:
أنَّ رَجُلًا أتَى النَّبيَّ ﷺ، فقال: يا رسول الله أصابني الجَهْدُ أي الجوع!
فَبَعَثَ النبيُّ ﷺ إلى نِسَائِهِ،
فَقُلْنَ: ما معنَا إلَّا المَاءُ!
فَقالَ رَسولُ اللَّه ﷺ: مَن يُضِيفُ هذا؟
فَقالَ رَجُلٌ مِنَ الأنْصَارِ: أنَا ...
فَانْطَلَقَ به إلى امْرَأَته، فَقالَ: أكْرِمِي ضَيْفَ رَسولِ اللَّهِ ﷺ،
فَقالَتْ: ما عِنْدَنَا إلَّا قُوتُ صِبْيَانِي!
فَقالَ: هَيِّئِي طَعَامَكِ، وأَصْبِحِي سِرَاجَكِ، ونَوِّمِي صِبْيَانَكِ إذَا أرَادُوا عَشَاءً،
فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا، وأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا، ونَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا،
ثُمَّ قَامَتْ كَأنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فأطْفَأَتْهُ،
فَجَعَلَا يُرِيَانِهِ أنَّهُما يَأْكُلَانِ، فَبَاتَا جائعَيْنِ،
فَلَمَّا أصْبَحَ غَدَا إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ، فَقالَ له: ضَحِكَ اللَّهُ اللَّيْلَةَ مِن فَعَالِكُما.
فأنْزَلَ فيكما قوله:
﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

الدّرسُ الأوّل:

إنّه الإيثار، أحد أروع الأخلاق التي يتحلّى بها الإنسان،
وقد عدّها العربُ في الجاهلية، والصّحابةُ في الإسلام،
والتّابعون فيما بعد،
رأس الأخلاق، وقمّة الكرم، وذروة الجود،
فالإيثارُ أعلى رُتبةً من الكرم، لأن الكرم هو إعطاء بعض ما تملكُ
ولا تحتاجُ إليه،
أما الإيثار فإعطاء إنسانٍ ما أنتَ بحاجةٍ إليه!
وقد ضربوا أمثلةً في الإيثار لولا أنها جاءت في الصحيح، لقلنا:
هذا خيالٌ ومُحال!
يقولُ أنسُ بن مالكٍ: لما قَدَمَ المهاجرون المدينةَ،
نزلوا على الأنصار في دورهم،
فقالوا: يا رسول اللّه، ما رأينا مثل قومٍ نزلنا عليهم،
أحسن مواساة في قليل، ولا أبذل في كثيرٍ منهم،
لقد أشركونا في المهنأ وكفونا المؤنة، ولقد خشينا أن يكونوا
ذهبوا بالأجر كلِّه.
فقال رسول اللّه ﷺ: كلَّا ما دعوتم اللّه لهم
وأثنيتم به عليهم!
ومن أمثلةِ إيثارِ الأنصار المهاجرين على أنفسهم:
جاء عبد الرّحمن بن عوفٍ إلى المدينة مهاجراً،
فآخى النَّبيُّ ﷺ بينه وبين سعد بن الرَّبيع
الأنصاريِّ،

وعند سعد بن الرّبيع الأنصاريِّ امرأتان، فعرضَ عليه أن يُناصفه أهله وماله،

فقال له: خُذ نصفَ مالي، وانُظُرْ أي زوجتيَّ فأُطلّقها، فتتزوجها!

فقال له عبد الرحمن: باركَ اللّه لكَ في أهلكَ ومالكَ،

دلُّوني على السُّوق!

انُظُرْ لإيثار سعد بن الرّبيع، ينزلُ عن نصف ماله لأخيه المهاجر،

المالُ الذي كدَّ فيه يجمعه ويدّخره، هان عليه في لحظة!

بل وأكثرَ من هذا ما يدعو إلى العُجُب،

يريدُ أن يُطلّق إحدى زوجتيه ليتزوّجها أخوه المهاجر بعد انقضاء عدّتها!

هؤلاءِ قومٌ هيأ اللّه قلوبهم ليكونوا سيف النّبيّ ﷺ،

وكهفَ صحابته،

وجيش دينه، وعكّازه التي يتكئُ عليها فيجتازُ مصاعب الأيام!

وإن كنتَ عَاجِباً من سعد بن الرّبيع على إيثاره،

فاعجَبْ كذلك من عزّة نفس عبد الرّحمن بن عوف،

فهو على رغم إيثار أخيه، إلا أنه أبى أن يأخذ شيئاً،

وقال دلّوني على السُّوق، فذهبَ واشترى وباعَ وتاجرَ،

حتى أصبحَ أحد أغنياء الصّحابة!

الدَّرسُ الثّاني:

إنّ كنتَ تحسبُ إنّ الإيثار كان عند الصّحابة في ساعاتِ وُسعَتِهم،
فقد حانَ الوقتُ لترى كيف أنهم آثروا إخوانهم بحياتهم!
وهذا غاية الجود، ومنتهى البذل والعطاء.
يقولُ عكرمة بن أبي جهل عن جهاده في معركة اليرموك، لمّا اجترأ الرُّومُ وانكفأ المسلمون:
قاتلتُ رسول الله ﷺ في مواطن كثيرة وأفرُّ منكم اليوم؟!
ثمَّ نادى: مَن يبايع على الموت؟
فبايعه عمُّه الحارث بن هشام، وضرار بن الأزور في أربعمائة مِن وجوه المسلمين
وفرسانهم،
فقاتلوا قدَّام فسطاط خالد حتى أُثْبِتُوا جميعًا جراحًا،
وقُتِل منهم خلقٌ، منهم ضرار بن الأزور، فلمَّا كثُرتْ فيهم الجراح طلبُوا ماءً،
فجيء إليهم بشربة ماء، فلمَّا قربت إلى أحدهم نظر إليه الآخر،
فقال: ادفعها إليه.
فلما دُفِعَت إليه نظر إليه الآخر،
فقال: ادفعها إليه.
فتدافعوها كلُّهم، مِن واحد إلى واحد، حتى ماتوا جميعًا ولم يشربها أحد منهم!
اُنظُرْ لإيثارِهم ما أروعه، الحرُّ شديد وهم جرحى في ميدان المعركة،

ممددون على الأرض، دمهم نازفٌ، وحُلوقهم جفّتْ من العطش!
يطلبُ أحدهم ماءً فيأتيه السّاقي،
فينظرُ إلى أخيه بجانبه، فيرى في ملامح وجهه أنه يطلبُ الماء،
فقد خارتْ قواهم حتى عن الكلام!
فيشيرُ إلى السّاقي أن يذهبَ ليسقيَ أخيه،
ثمَّ يطلبُ ثالثٌ الماء، فيفعلُ الثّاني فعل الأول!
فلما وصل إليه الساقي وجده قد أسلمَ الرُّوح إلى بارئها،
فعادَ إلى الثاني فوجده قد ماتَ، وعادَ إلى الأول فوجده قد ماتَ أيضاً،
ماتوا ثلاثتهم عطشى، كُلُّ واحدٍ منهم قد آثر أخاه بشربةٍ أخيرة!
فاللهُمَّ تقبّلْ منهم إيثارهم، وجهادهم، ودماءهم، واجزِهِمْ خيرَ ما جزيتَ سلفاً عن خَلف!

الدَّرسُ الثَّالث:

وإن كنتَ تحسبُ أنَّ رجالهم فقط قد حازُوا بمجد الإيثار دوناً عن نسائهم،
فهذا أوانُ أن أُحدِّثكَ بإيثار أُمّكَ عائشة!
لما طُعِن أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب، قال لابنه عبد الله:
اذهب إلى أُمِّ المؤمنين عائشة، فقل: يقرأ عمر بن الخطَّاب عليك السَّلام،
ثمَّ سلها أن أُدْفَن مع صاحبيَّ.
فقالتْ: كنتُ أريده لنفسي، فلأوثرنَّه اليوم على نفسي.

فلمَّا أقبل، قال له: ما لديك؟
قال: أذِنَتْ لكَ يا أمير المؤمنين.
فقال عُمر: ما كان شيء أهمَّ إليَّ من ذلك المضجع،
فإذا قُبِضت فاحملوني، ثمَّ سلِّموا، ثمَّ قل: يستأذن عمر بن الخطّاب،
فإن أذنت لي فادفنوني، وإلَّا فردُّوني إلى مقابر المسلمين!
وإنكَ واللّهِ لا تدري ممن تعجبُ في هذه الواقعة،
من عُمر الخليفة الذي كان يمكنه أن يُصدِرَ أمراً رئاسياً يُحدِّدُ فيه موضعَ دفنِه،
فهما صاحبيه، وكثيراً ما كان النبيُّ ﷺ يقولُ:
خرجتُ أنا وأبو بكرٍ وعُمر، ودخلتُ أنا وأبو بكرٍ وعُمر!
ولكنّه راعى حقوق الملكيّة للرّعيّة، فهذه حُجرة عائشة، والأدبُ أن يستأذنها!
حتى بعدما أَذِنَتْ له، خشيَ أن يكون هذا الإذن حياءً منه وهو حيّ،
فطلبَ منهم إذا حملوه على نعشِه أن يستأذِنوا مرّةً أخرى له وهو ميت!
فإنْ هيَ أَذِنتْ دفنوه مع صاحبيه، وإلا فمدفنه في البقيع!
أم تعجبُ من عائشة التي كانت تُمنّي نفسها أن تُدفن هناك،
فهي أولاً وأخيراً حُجرتها، وثانياً في الحُجرة زوجها وأبوها!
ولكنّها آثرتْ عُمر بن الخطّاب على نفسها بهذا الجوار المبارك!
وهكذا بقيَ الثلاثةُ صُحبةً في الحياة وفي الممات!
وليسَ هذا كُلُّ إيثارها رضي اللّه عنها وإن كان أرفعه!
دخلَ عليها مسكينٌ فسألها وهي صائمة وليس في بيتها إلَّا

رغيف!

فقالت لمولاةٍ لها: أعطيه إيَّاه.

فقالت: ليس لك ما تفطرين عليه؟

فقالت: أعطيه إيَّاه.

فلمَّا أمسوا أهدى لهم أهل بيتٍ من الأنصار شاةً!

فدعت عائشة خادمتها فقالت: كلي مِن هذا، فهذا خيرٌ مِن رغيفك!

يا للإيثار يا عائشة، يا للإيثار!

هي صائمة، والصّائمُ أحوجُ ما يكون إلى طعام، وليس في البيت إلا رغيف!

ولكنها تطلبُ من خادمتها أن تُعطيه إياه،

لم تُفكّرْ بأيِّ شيءٍ تُفطر إذا ارتفعَ أذان المغربِ منادياً: اللّه أكبر!

ولكن لأنها كانت تعرفُ أن اللّه الأكبر لن يتركها وقد ابتغتْ وجهه،

وكان ربُّها سبحانه عند حُسْنِ ظّنها به! أبدلها بالرّغيف اليتيم شاةً،

فنادتْ على خادمتها تُطعمها معها، وتُخبرها أنَّ عوض اللّه إذا حلَّ أنسى الإنسان ما فقدَ!

الدَّرسُ الرَّابع:

إن كان إيثارُ الإنسان الصحيحِ موقف يدعو إلى العَجَبِ،

فإنَّ إيثارَ المريضِ أدعى!

مرض عبد اللّه بن عمر فاشتهى عنبًا،

فأرسلت صفيَّةُ زوجتُه خادمهم فاشترى عنقودًا بدرهم،

فتبِعَ الخادمُ سائلاً حتى باب البيت!

فلمَّا دخلَ الخادمُ بالعنب، قال السَّائل: الأجر يرحمكم اللّه!

فقال ابن عمر: أعطوه إيَّاه.

فأعطوه إيَّاه...

ثمَّ أرسلتْ بدرهم آخر، فاشترت عنقودًا،

فتبعَ الخادمُ ذات السائل!

فلمَّا دخل الخادمُ بالعنب، قال السَّائل: الأجر يرحمكم اللّه.

فقال ابن عمر: أعطوه إيَّاه.

فأعطوه إيَّاه...

فأرسلت صفيَّة إلى السَّائل، فقالت: واللّه إن عُدتَ لا تصيبُ منه خيرًا أبدًا.

ثمَّ أرسلتْ بدرهم آخر فاشترت به!

يا للإيثارِ يا ابن عُمر، يا للإيثار!

هو مريضٌ، والمريضُ بالكاد يشتهي طعاماً،

فإذا ما اشتهاه كان ذاك عيداً عند أهل بيته،

وابنُ عمرٍ بالأساس من فقراء المسلمين،

فلا تقُل: هو قطف عنب!

بل سَلْ نفسَكَ كم قطف عنبٍ يستطيعُ أن يشتري؟

ثم ها هو لما صار العنب بين يديه، يعطيه للسائل الذي لا يعرفه،

مريضٌ يُؤثِرُ صحيحاً على نفسه!

الدَّرسُ الخامس:

كانوا أحوج النّاسِ إلى المال، فإذا وصلهم تذكّروا المساكين ونسوا أنفسهم!

أراد عمر بن الخطاب أن يمتحنَ إيثار أصحابه،

فأخذَ أربعمائة دينار، فجعلها في صرَّة،

ثمَّ قال للغلام: اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجرَّاح،

ثمَّ تلكَّأ ساعةً في البيت عنده حتى تنظرَ ماذا يصنع بها.

فذهب بها الغلام إليه، فقال: يقول لك أمير المؤمنين:

اِجعلْ هذه في بعض حاجتك.

فقال: وصله اللّه ورحمه.

ثمَّ قال: تعالي يا جارية، اذهبي بهذه السَّبعة إلى فلان،

وبهذه الخمسة إلى فلان. حتى أنفدها،

فرجع الغلام إلى عمر، فأخبره فوجده قد أعدَّ مثلها لمعاذ بن جبل.

وقال: اذهبْ بهذا إلى معاذ بن جبل،

وتلكَّأ في البيت عنده ساعة حتى تنظر ماذا يصنع.

فذهب بها إليه، فقال: يقول لك أمير المؤمنين:

اجعلْ هذه في بعض حاجتك.

فقال: رحمه اللّه ووصله.

وقال: يا جارية، اذهبي إلى بيت فلان بكذا وبيت فلان بكذا.

فاطَّلعت امرأة معاذ فقالت: ونحن واللّه مساكين فأعطنا.

ولم يبق في الخرقة إلَّا ديناران فأعطاهما!

فرجع الغلام إلى عمر فأخبره، فسُرَّ بذلك عمر، وقال: إنَّهم إخوة بعضهم مِن بعض!
يا لفرحِ الفقيرِ بالمالِ إذا جاءه، فإنه يُسرعُ في إصلاحِ شأنه به، يشتري ما ينقصه، ويأكل ما كان يشتهيه، يسدُّ دَيْناً، ويَصِلُ رحماً!
هذا هو شأن النّاس، ولكنّهم الصحابة، كأنهم ملائكة وليسوا من النّاس!
لا يتذكّرُ معاذٌ أنه فقير إلا عندما ذكّرته زوجته!
أول ما وقع المال بين يديه تذكّر المساكين،
فجعل يُرسلُ إليهم منه،
إيثار يُكتبُ بماء الذّهب على صحافٍ من الفضّة!

الدّرسُ السّادسُ:

إنْ كنتَ تحسَبُ أن إيثارهم كان محصوراً بالنّاس،
فهذا أوان أخبرك فيه أنهم آثروا حتى الحيوان على أنفسهم!
في طريق عمر بن الخطاب إلى فتح بيت المقدس، رافقه محمد بن مسلمة،
هذا هو موكب عمر الرّئاسيّ: هو ومحمد بن مسلمة والنّاقة!
فكان عمر يركبُ حيناً، ويُركِبُ محمد بن مسلمة حيناً، ويدعُ النّاقة تسيرُ وحدها حيناً!
فهي وإن كانتْ دابةً قد خُلقت بالأصل للركوب،

إلا أن عمر اعتبرها رفيق سفر لا مجرّد راحلة!
كان يمشي على قدميه، يُؤثر ناقةً على نفسه لترتاح!
فإنْ عجبتَ من فعل عمر، وهو نهاية المطاف عُمر،
فتعال تعجّبْ معي على إيثار غِلمان المسلمين ومواليهم في ذاك الزمان!
خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعةٍ له، فنزل على نخيل قوم،
وفيه غلام أسود يعمل فيه،
إذ أتى الغلام بقوته فدخل البستان كلبٌ ودنا مِن الغلام،
فرمى إليه الغلام بقرصٍ فأكله، ثمَّ رمى إليه الثَّاني والثَّالث فأكله،
وعبد الله ينظر إليه، فقال: يا غلام، كم قوتك كلَّ يوم؟
قال: ما رأيت.
قال: فلِمَ آثرت به هذا الكلب؟!
قال: ما هي بأرض كلاب، إنَّه جاء مِن مسافة بعيدة جائعًا،
فكرهتُ أن أشبع وهو جائع.
قال: فما أنت صانع اليوم؟!
قال: أطوي يومي هذا.
فقال عبد الله بن جعفر: أُلام على السَّخاء!
إنَّ هذا الغلام لأسخى منِّي.
فاشترى البستان والغلام وما فيه مِن الآلات، فأعتق الغلام ووهبه منه!
يا للإيثار يا غلام، يا للإيثار!
وحيدٌ في برّيةٍ، قوته فيها ثلاثة أرغفة، رمى بها إلى الكلب،

لأنه علمَ أنّ هذه الأرض لا تأتيها الكلاب عادةً،
وهذا الكلب إنما وصل إلى هنا جائعاً ومُجهداً!
فآثَرَ أن يجوع هو على أن يشبعَ الكلب!
لقد عامله معاملة الضُّيوف، تخيّل!
ويا لعبد اللّه بن جعفر كيف يُكرمُ مواقف الإيثار ويُثيبُ عليها!
هكذا هم النُّبلاء يُقدّرون في الآخرين نُبلهم!
فاشترى البستان، والغلام، ثم أعتقه ووهبَ له البستان!

20

﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾

هذه الدُّنيا دارُ الأشياء المنقُوصة،
قد تمشي ولا تَصِلُ،
ولكنّ الأجرَ على السَّعي لا على الوُصُول!
وقد تزرعُ الخيرَ ولا يُثمِرُ،
ولكنَّ زراعة الخيرِ عبادة،
ليس كلُّ الذين يستحِقُّون التتويجَ سيعتلُون المنصّات،
ولا كلُّ المعروفينَ في السَّماءِ مَعرُوفونَ في الدُّنيا،
ولا كلُّ الذين يُحمَلون إلى الجنةِ في التّوابيت ستكون جنازاتهم حاشدة!
ثمّة بطولاتٌ لن يكون معها نياشين،
ثمّة انتصاراتٌ لن يصحبَها التُّصفيق،
ثمّة عباداتٌ عظمَتهُا أن تكون في الخفاء،
ثمّة شيءٌ يُهوِّن فوات الجزاءِ في الدُّنيا،
إنّه قول ربّكَ: خُذُوا عبدي إلى الجنّة!

21

زنى رجلٌ من اليهودِ وامرأةٌ في المدينة،
فقـال اليهـودُ بعضُهـم لبعـض: اِذهبُـوا بنـا إلـى هـذا النبـيِّ، فإنّـه مبعـوثٌ للتَّخفيـف،
فـإذا أفتانـا بفُتيـا غيـر الرَّجـم قبلناهـا، واِحتَجَجْنـا بهـا عنـد اللّه، وقلنـا: فُتينـا بنبـيٍّ مـن أنبيائـك!
فأتوا النبيَّ ﷺ وهو جالس في المسجد مع أصحابه،
فقالوا: يا أبا القاسم ما ترى في رجلٍ وامرأةٍ زنيا؟!
فلم يكُلِّمهم حتى أتى البيتَ الذي يتدارسون فيه التوراة،
فوقف على الباب وقال: أنشدكم بالذي أنزلَ التوراة على موسى،
ما تجدون في التوراة على من زنى إذا أُحصنَ؟!
قالوا: يُحمَّمُ وجهه، ويُجلد، ويُحملُ على حمارٍ ويُطاف بهما!
وسكتَ شابٌ منهم، فلما رآه النبيُّ ﷺ ساكتاً، ألحَّ عليه النَّشدة!
فقال: اللهُمَّ إذْ أنشدتنا فإنّا نجدُ في التوراة الرَّجم!
فقال النبيُّ ﷺ: فما أوّل ما أرخصتم أمرَ اللّهِ عزَّ وجل؟
فقال: زنى رجلٌ ذو قرابةٍ من ملكٍ من ملوكنا، فأُخِّرَ عنه الرَّجم،
ثـم زنـى رجـلٌ مـن عـوامِ النَّـاسِ، فـأراد رجمـه، فحـالَ قومُـه دونـه، وقالـوا:
لا يُرجم صاحِبُنا حتى يجيءَ بصاحبكم فيرجمه!
فاصطلحوا على هذه العقوبة بينهم!
فقال النبيُّ ﷺ: فإني أحكم بما في التوراة! وأمرَ برجمهما.

فأنزل اللّه تعالى قوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾

الدَّرسُ الأوّل:

للأسف إن كثيراً من المسلمين ضعفاء نُفوس،
يتصرّفون في أمور الحلال والحرام كما تصرَّف اليهود في هذه القصة،
اليهودُ يعرفُون ما هو حدَّ الزَّاني المُحْصَن: الرجم بالحجارة حتى الموت،
وهو مكتوبٌ عندهم في التوراة!
ولكنّهم أرادُوا أن يحُصِّلوا من النبي ﷺ على فتوى تُناسب هواهم،
فإن أفتى لهم بما يرضيهم قالوا: هو حكم نبيٍّ وعصبُوها برأسه،
وإن لم يوافقْ هواهم بحثوا عن فتوى أخرى،
وهذا حال بعضنا للأسف هذه الأيام، يعرفُ أحدُنا أنَّ أكل الرِّبا حرام،
ولكنه يريدُ أن يأكله بفتوى ليريحَ ضميره إن كان عنده ضمير!
فيبقى ينتقلُ من شيخٍ إلى شيخ ومن فقيه إلى فقيه،
حتى يجد من له اجتهاد أعوج في المسألة، فيجعل من فتواه الشاذة مسألة خِلافيّة،
ويقول: هذه فتوى عَالِمٍ وليس من شأني،

نسيَ أنَّ اللّه تعالى مُطّلع على النَّوايا وما في الصُّدور،
وتعرفُ الواحدةُ منا أنّ الحِجاب فريضة،
وأنها ليست من مسائلِ الاجتهاد أساساً ليُقال إنها موضع إجماع،
وإنما هي نصٌّ ثابتٌ في القرآن كالصَّلاة والصِّيام،
فتبقى تنتقلُ من منشور إلى منشور، ومن «فيديو» إلى «فيديو»
حتى تعثر على بغيتها،
ثمّة من أرادُوا الشّهرة كالبائل في ماء زمزم،
فخالَفُوا صريح القرآن ليُقال عنهم أصحاب رأيّ واجتهاد،
تنسى أنّ اللّه قد رأي النِيَّة قبل أن تخطو الخطوات،
من أخذ بالفتاوى الشّاذة وهو يحسبُ أنه قد سَلِمَ، وأن الوزر على
من أفتى وهو براء،
فهو صاحب وِزْرَين: وزر عدم الانصياع لأوامر اللّه،
ووزر الاحتيال والاستهانة برقابة اللّه تعالى!
وفاعلُ المعصيةِ وهو عالمٌ حرمتها ولكنّه يفعلها ضعفاً وتقصيراً،
خير ألف مرَّةٍ ممن يحللها ثم يقترفها،
فهما وإن اشتركا في المعصية إلا أنّ النَّوايا ليستْ واحدة!

الدَّرسُ الثّاني:

الإسلامُ واحدٌ ولكن الشَّرائعُ مختلفة،
بمعنى أن الأنبياء جميعاً قد جاؤوا بدين الإسلام والتَّوحيد،
ولكن العبادات ليس بالضرورة أن تكون واحدة،

والحـلالُ والحـرامُ بعضـه واحـد بيـن كلّ الشـرائع، وبعضـه يختلـف بيـن شـريعة وأخـرى،

فالسُّـجود للتَّكريـم دون العبـادة للآخريـن كان مُباحـاً فـي الشَّـرائع السَّـابقة،

وقـد سـجدَ إخـوةُ يوسـف وأبويـه لـه تكريمـاً، ولكـن هـذا محـرَّم فـي شـرعنا!

وكذلك فإنّ أخذ الغنائم كانت مُحرَّمةً في الشَّرائع السابقة،

ولكن اللّه تعالى قد أحلَّها لنا عن دون الأمم،

لهذا فإنَّ شريعة الإسلام ناسخةٌ لكلّ الشَّرائعِ التي قبلها،

فلا يُفترضُ على المسلمِ إلا ما جاء به النبيُّ ﷺ،

ولا يُحرَّمُ على المسلمِ إلا ما نهى عنه النبيُّ ﷺ!

الدَّرسُ الثَّالث:

اُنظُرْ إلى قول اليهود عن النبي ﷺ: فإنه مبعوثٌ للتخفيف!

وإنـكَ وإنْ طفـتَ أرجـاء القوانيـن والشَّـرائع، فلـن تجـد شـريعةً أكثـر سـماحةً مـن الإسـلام،

والسَّماحةُ ليست مفردةً مرتبطة بإباحة كل شيء،

وإنما هي مرتبطة بالرحمة الباطنة في كل تشريع!

فالنهـيُّ لا يتعـارضُ مـع السَّـماحة، بـل إنَّ السَّـماحة لا تتحقـق إلا بجملـة منهيَّـاتٍ،

ولا يقوم مجتمع بشريٍّ دون أن يكون فيه بعضُ المحظور،

وكذلك فإن السماحة لا تتحقق إلا بجملة أوامر،
ولا يوجد مجتمعٌ بشريٌّ إلا وفيه أمورٌ يجب أن يقوم بها النَّاس،
وإنما سماحة الإسلام العظيم أنها تُراعي الفرد، فلا تجعله فريسةً للمجتمع ينهشُه،
وتراعي المجتمع دون أن تجعل الفرد يستبيحه!
قوانين قائمةٌ على الموازنة، تحفظُ للفرد كرامته، وتحفظُ للمجتمع هيبتَه وحرمتَه!
تعترِفُ بغريزة الإنسان ولا تكبتها،
ولكنها لا تطلقها بصورة حيوانية تنتقص من كرامة الإنسان وفطرته!
حتى الحدود التي هي ليست الشريعة كما يعتقد البعض،
وإنما هي نظام العقوبات في الشريعة،
تجد الرَّحمة تنبع من عقوباته حتى!
فإنَّ حدَّ الرَّجم الذي يبدو بالنَّظرةِ السَّطحيَّة قاسياً، فإنّه بالنَّظرة المتعمقة عدلاً وقسطاً،
إنّك بالسَّطحية تنظرُ بعين العطف إلى الجاني، ولكن ماذا عن المَجنِيِّ عليه؟!
ماذا عن زوجٍ استبيح عرضُه، وأولاد مسَّهم القرحُ في عِرض أُمِّهم!
ماذا عن الأُسرة التي ضُربتْ في أساس وجودها؟!
أنتَ بالنظرة السَّطحية تتعاطف مع فردٍ جانٍ، أنا أشاركك الأسفَ والتَّوجعَ عليه،
ولكنّي بالنَّظرةِ العميقة أتعاطف مع الأبرياء ضدَّ الجاني،
ثم هو تشريع ربٍّ هو أعلمُ وأحكمُ بما يقيم الإنسان والمجتمع،

وما اُشتُقَّ اسم الإسلام إلا من التسليم،
فمتى ما سلَّمتَ له بالوحدانية فسلِّم له بحكمته في التشريع،
ومتى ما اعتقدتَ أنكَ أكثر رحمة بالناس من ربهم،
فإسلامك منقوص، وإنسانيتك مشوَّهة، ونظرتك عوراء!

الدَّرسُ الرَّابع:

المجتمعُ الذي يفرضُ عضلاته على المسكين، ويتغافلُ عن القويّ هو مجتمع ظالم،
والظلم مؤذِنٌ بخراب العمران كما يقول ابن خلدون،
وإنَّ اللّه تعالى ينصرُ الدولة الكافرة العادلة،
على الدولة الظالمة المسلمة كما يقول ابن تيمية!
وإنَّ اللّه يستجيبُ دعاءَ المظلوم الكافر،
على الظَّالم المسلم لا بغضاً بالمسلم ولا حُباً بالكافر،
وإنما بُغضاً بالظلم وحُباً بالعدل كما يقول ابن عثيمين!
فإياك والظّلم فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة،
فإن أحببتَ ولداً أكثر من ولد فإيَّاكَ أن تظلم في الأُعطيةِ والوصيَّة،
وإن أحببتَ زوجةً أكثر من زوجة، فلا تنسَ أنَّ اللّه لا يُؤاخذ المرء على ما في قلبه،
ولكنه يُحاسبه على الظلم في معاملته،
وكما أنَّ كلّ دولةٍ تقوم على الظُّلمِ مصيرها الخَراب،
فكلّ بيتٍ يقوم على الظُّلمِ مصيره الخَرابُ كذلك!

22

﴿وَجَآءُوا أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾

دُموعُ التَّماسيحِ على الفريسةِ بعد التِهَامِها،
وقولُ الجدّات: ضربنِي وبكى، وسبقنِي واشتكى!
فلا تتسرّعْ في إصدارِ الأحكام،
ولا تتعجلْ في إبداءِ التعاطف،
كثيراً ما يلبسُ الظَّالمُون ثيابَ المظلومين،
والنَّاسُ حين يروُون قصَصَهُم فهم إمّا أبطالٌ أو ضحايا!
الغادِرونَ يُجيدُون الحديثَ عن الوفاء،
واللصُوصُ أبلغ ما يكونون حين يتحدّثُونَ عن الأمانة،
وخلف الوجوه البريئة قد تختبئُ القلوب القذرة،
فانتبِهْ جيّداً:
الكلامُ الجميلُ أحياناً يكون مجرّد قِناع،
والدُّموعُ عُدّةُ نصْب!

23

جاء ثعلبةُ بن حاطب الأنصاريِّ إلى النبيِّ ﷺ وقال له:
يا رسول اللّٰه اُدْعُ اللّٰه أن يرزقني مالاً!
فقال له النبيُّ ﷺ: ويحكَ يا ثعلبة،
قليل تُؤدي شُكره، خير من كثيرٍ لا تُطيقه!
فعاودَه ثعلبة مرَّةً أخرى يسألُه أن يدعو له بالمال،
فقال له النبيُّ ﷺ، أما ترضَى أن تكون مثل نبيِّ اللّٰه؟
فوالذي نفسِي بيده لو شئتُ أن تسيلَ معي الجبال فضَّةً وذهباً لسالتْ!
فقال ثعلبة: والذي بعثكَ بالحق لئن دعوتَ اللّٰه أن يرزقني مالاً،
لأوتينَّ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه!
فقال النبيُّ ﷺ: اللهُمَّ اُرْزُق ثعلبةَ مالاً،
فرزقَ اللّٰه ثعلبة مالاً، فاتَّخذَ غنماً،
فنمتْ كما ينمُو الدُّودُ من البَركة، وضاقتْ عليه المدينة،
فانتقلَ منها إلى واد من أوديتها،
حتى جعلَ يُصلّي الظُّهرَ والعصرَ في جماعةٍ ويترك ما سواهما،
وغنمُه لا يزال ينمو ويتكاثر حتى تركَ صلاة الجمعة!
فسألَ النبيُّ ﷺ: ما فعلَ ثعلبة؟
فقالوا: اِتَّخذَ غنماً، وضاقتْ عليه المدينة،
وأخبرُوه بخبره كيف ترك صلاة الجماعة أوّلاً، ثم تركَ صلاة الجمعة لاحقاً،
فقال النبيُّ ﷺ: ويحَ ثعلبة!

وأنـزل اللّه عـزَّ وجـلَّ قولـه: ﴿خُـذْ مِـنْ أَمْوَالِهِـمْ صَدَقَـةً تُطَهِّرُهُـمْ وَتُزَكِّيهِـم بِهَـا﴾

فبعثَ النبيُّ ﷺ رجُلين ليجمَعا الزَّكاة،

وقال لهما: مُرَّا بثعلبةَ وفُلانٍ من بني سُليم فخذا منهما صدقاتِهما،

وكتبَ لهما كتاباً بنصابِ الزَّكاةِ وكيفيَّة استحقاقها،

فانطلقَا حتى أتيَا ثعلبةَ، فأقرآه قولِ اللّه تعالى في الزَّكاة،

وأطلعاه على كتاب النبيِّ ﷺ في نِصابها،

فقال: ما هذه إلا جزية! انْطَلِقا حتى تفرغا ثم عُودا إليَّ!

فانطلقَا حتى إذا أتيا الرَّجل من بني سُليم وطلبا منه الزَّكاة،

فقام إلى أفضل إبلِه ثم أعطاهما إيَّاها،

فقالا: ما يجبُ عليكَ كلُّ هذا! لا نريدُ أن نأخذه!

فقال لهما: بلى خُذوه فإنَّ نفسي بهذا طيّبة!

فأخذُوها منه وعادا إلى ثعلبة، فقال: أعطوني الكتاب،

فنظرَ فيه ثم قالَ: ما هذه إلا أُختُ الجِزية!

ولم يدفَع الزَّكاة المُستحقّة عليه!

فرجعا إلى النبيِّ ﷺ، فلما رآهُمَا قال: يا ويحَ ثعلبة!

قبل أن يكلِّمهما، قد أوحيَ إليه بما كان!

فدعا للسُّلَمِيِّ بالبركةِ في ماله، وسكتَ عن ثعلبة،

فأنـزلَ اللّه تعالـى قولـه: ﴿وَمِنْهُـمْ مَـنْ عَاهَـدَ اللَّهَ لَئِـنْ آتَانَـا مِـنْ فَضْلِـهِ لَنَصَّدَّقَـنَّ وَلَنَكُونَـنَّ مِـنَ الصَّالِحِـينَ فَلَمَّـا آتَاهُـمْ مِـنْ فَضْلِهِ بَخِلُـوا بِـهِ وَتَوَلَّـوْا وَهُـمْ مُعْرِضُـونَ فَأَعْقَبَهُـمْ نِفَاقًـا فِي قُلُوبِهِـمْ إِلَى يَـوْمِ يَلْقَوْنَـهُ بِمَـا أَخْلَفُـوا اللَّهَ مَـا وَعَـدُوهُ وَبِمَـا كَانُـوا يَكْذِبُـونَ﴾

وكان عند النبيِّ ﷺ رجلٌ من أقاربِ ثعلبة،

فسمعَ الآية، فخرجَ إليه، وقال له: ويحكَ يا ثعلبة،
قد أنزلَ اللهُ فيك قرآناً، وتلا عليه الآية!
فجاء ثعلبة إلى النّبيِّ ﷺ يسألُه أن يقبلَ منه الزَّكاة،
فقال له النبيُّ ﷺ: هذا عملك، قد أمرتُكَ فلم تُطعني!
ورجعَ ثعلبة بالزَّكاةِ إلى منزله، ولم يلبث النبيُّ ﷺ أن ماتَ!
وجاء ثعلبةُ بالزَّكاة إلى أبي بكرٍ يسألُه أن يقبلها منه!
فقال له: لمْ يقبلها رسولُ الله ﷺ منكَ فكيفَ أقبلُها أنا؟
ثم ماتَ أبو بكر، ووليَ على النَّاسِ عمر بن الخطاب،
وجاء ثعلبةُ إلى عُمر يسأله أن يقبلَ منه الزَّكاة!
فقال له عُمر: لم يقبلها النبيُّ ﷺ، ولا أبو بكرٍ، فكيفَ أقبلُها أنا؟
وحكم عمر المسلمين عشر سنوات ثم ماتَ، ووَلي الأمرَ
عثمان بن عفَّان.
وجاء ثعلبةُ إلى عثمان يسألُه أن يقبلَ منه الزَّكاة،
فقال له عثمان: لم يقبلها النبيُّ ﷺ، ولا أبو بكرٍ، ولا عُمر، فكيف
أقبلُها أنا؟!
ثمَّ ماتَ ثعلبة في خلافة عثمان!

الدَّرسُ الأوّل:

هذه حادثةٌ مخصوصةٌ لا يصحُّ تعميمها،
والأصلُ أنَّ لكل ذنبٍ توبة مهما كان هذا الذَّنب عظيماً،
فما من ذنب إلا والشِّرك بالله أكبر منه،

ولمَّا كان للشِّرك باللّهِ توبة فمن البديهيِّ أن يكون لِما دونه توبة،
فلا تستعظِمْ ذنبكَ أمام رحمة اللّه تعالى وعفوه،
إنَّ اللّه تعالى ما سمَّى نفسَه الغفور إلا للمذنبين أمثالي وأمثالك،
وإنَّه سُبحانه يمدُّ يده بالنَّهار ليتوبَ مُسيءُ الليل،
ويمدُّ يده بالليل ليتوبَ مُسيءُ النَّهار،
لأنّه يعلمُ أن عباده خطَّائين،
فإياك أن يوهمكَ الشَّيطانُ أن ليس لذنبِكَ توبة!

الدَّرسُ الثّاني:

ارْضَ بما قسمَه اللّهَ لكَ تكُنْ أغنى الناس،
فإن اللّه سُبحانه لا يمنعُ من قلَّةٍ، ولا يحرمُ من فقر،
خزائنه ملأى لا تنضبُ، وأمره بينَ كافٍ ونون،
ولكنّه سبُحانه جلَّتْ قدرتُه له في كل أمرٍ حكمة عُلويّة تخفى عنَّا،
ولو أدركناها لاحمرَّتْ وجوهنا خجلاً من سوءِ ظنِّنَا به!
وكما يقولُ ابنُ القيِّم في كتابه عدَّة الصَّابرين:
قد يكون الفقرُ لبعضِ النَّاس أنفع، والغِنى لآخرين أنفع!
كما تكون الصِّحةُ لبعضِهم أنفع، والمرضُ لبعضهم أنفع!
وأنفع هذه مرتبطة بالدِّين لا بالدُّنيا،
فكلُّ ما يحفظُ دين العبد أنفع له ولو نشُرَ بالمناشير،
وكلُّ ما أتلف دينَه شرٌّ له ولو ملكَ الدُّنيا،
وفي الحديث الذي رواه البغويُّ وغيره من أهل الحديث:

يقولُ اللّه تعالى في الحديث القدسيِّ:
إنَّ من عبادي من لا يُصلِحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسَده ذلك،
وإنَّ من عبادي من لا يُصلِحه إلا الفقر ولو أغنيتُه لأفسَده ذلك،
وإنَّ من عبادي من لا يُصلِحه إلا الصِّحة ولو أسقمتُه لأفسَده ذلك،
وإنَّ من عبادي من لا يُصلِحه إلا السَقم ولو أصححتُه لأفسَده ذلك،
إنّي أُدبِّرُ عبادي وأنا بهم خبيرٌ بصيرٌ!

الدَّرس الثالث:

من أعجبِ ما يقولُه النَّاسُ بلا ضوابط: العمل عِبادة!
وهذا قول صحيح، وإنّما ضابِطُه أنَّ العملَ الذي يُفسِدُ عبادةَ اللّهِ هو عبادةٌ الشَّيطان!
هناك من يضبطُ مُنبِّهه على صلاةِ الفجرِ،
وهناك من يضبطُ مُنبِّهه على وقت الدوام،
الأوّل يعرِفُ أنه عبدٌ قد خُلِقَ للعبادة وأنَّ أمرَ اللّهِ أولاً،
والثَّاني يحسبُ أنه قد خُلِقَ للحراثة فيجعل أمر اللّهِ آخِراً!
يكون العملُ عبادة عندما نقومُ بحقِّ اللّهِ أولاً،
كان المسيحُ عليه السَّلام نجَّاراً في أرضِ الجليل،
ولكنّه في المقابل كان يقوم بحقِّ النُّبوة والعِبادة،
نعم على الإنسانِ ألا يكون عالةً،

وما أكل عبدٌ طعاماً خيراً من أن يأكلَ من كسبِ يده،
ولكن متى ما كانت الحياةُ كلُّها عمل دون عبادة،
فما هي إلا حياة تُشبه حياة الأبقارِ التي خُلقتْ لتُحلبَ طول العمر!

الدَّرسُ الرَّابع:

نحن قاصِرُو النَّظر، ومَحدُودُو التَّفكير،
وكثيراً ما نطلبُ ما فيه دمارنا،
ومن تمام الإيمانِ بحكمة اللّٰه سبحانه أن نعلم،
أنَّ ما قضاه اللّٰه علينا، وما قسمَه لنا فهو الأصلح لحالنا،
ورحمَ اللّٰه عمر بن الخطاب ما أفقهه حين قال:
لو كُشفت لنا حُجب الغيب،
ما اختارَ أحدُنا لنفسِه إلا ما اختارَ اللّٰه له،
ظنَّ أحدُ محدودي البصيرة أنّ همّه أعظم همٍّ في الدُّنيا،
وكان كلّ يوم يأتي إلى شيخ القرية الحكيم شاكياً ما هو عليه،
فأراد الشَّيخُ الحكيمُ أن يُلقِّنه درساً عمليّاً،
جمعَ رجال القرية وطلبَ من كل واحدٍ منهم أن يكتبَ همَّه في ورقة،
ويضع هذه الورقة في صُندوق،
ثم قال لهذا الشَّاكي. هذه هموم النَّاسِ أمامكَ فاخترْ همّاً غير همّك،

فجعلَ يقرأُ ورقةً ثم يُلقيها ويأخذ غيرها،
وهكذا حتى أتى على كلِّ الأوراقِ في الصُّندوق،
ثم قال للحكيم: لا أريدُ إلا همِّي!
الحياةُ لا تستقيم إلا لقانعٍ، فاقنَع تسْعَدْ!

الدَّرسُ الخامس:

إنَّ اللّه تعالى إذا أعطاكَ فقد أعطاكَ ما ليس لكَ،
وإذا حرمكَ فقد حرمكَ مما ليس لكَ،
فإن أُعطيتَ فاشكُرْ، وإن مُنعتَ فاصبِرْ،
والصَّبرُ والشُّكرُ عبادتان قلبيَّتان أوّلاً قبل أن يكونا سلوكاً،
على أن من تمام الشُّكر أن يكون سلوكاً،
فشكر المال مساعدة الفقراءِ فيه،
وشكر الصّحة إعانة الضُّعفاء،
وشكر المنصب الرَّفيع قضاء حوائج النَّاس،
وشكر العلم إرشاد النَّاس وتعليمهم،
ولو عقلَ النَّاس تمام العقل ما تسخَّطُوا على قدر اللّه،
لأنَّ السَّخطَ والتَّذمّرَ لا يُغيِّرانِ في قدر اللّهِ شيئاً،
وإنّما بالسُّخطِ يجمعُ الإنسان على نفسِه مُصيبتين،
الأولى: منع اللّهِ له،
والثانية: إثم التَّذمر وعدم الرضا!
على أن يُعلم أنَّ للّهِ في المال حقٌّ افترضَه يجب أن يُؤدَّى،

والزَّكاة حقُّ اللّهِ في المال،
فمن بلغَ مالُه نصاب الزَّكاة، ولم يؤدِّها كان كالسَّارقين،
لأنه سرقَ حقَّ المساكينِ والفقراءِ من ماله الذي أعطاه اللّهُ إيّاه!

الدَّرسُ السَّادس:

عندما عَلِمَ قريبُ ثعلبةَ بالخطأ الذي بدرَ منه سارع إلى نصيحتِه،
الصّديقُ الحقُّ مرآةُ صديقه،
وليس صديقكَ من جمّلَ لك الخطأ وساعدكَ على البقاء فيه!
وأما الصَّديق الذي يأخذ على يدكَ حين تُخطئ،
يوقظك من غفلتكَ إذا أنتَ غفلتَ،
ويُنبهكَ للخطأ إذا أنتَ سهوتَ،
ويدلُّكَ على الطَّريق إذا أنت تهتَ،
ويُخرجكَ من مستنقعِ الباطل إذا أنتَ وقعتَ،
الصَّديقُ الحقُّ هو درعكَ التي تحميك من أعدائكَ،
حتى وإن كنتَ أنتَ عدوَّ نفسِكَ!

الدَّرسُ السابع:

الحياةُ مواقف، وقد تكون الجنَّة في موقف واحد، والنّار كذلك!
وإنَّ إبليس عليه لعنة اللّهِ قد أهلكَ نفسَه ومعه خلقٌ كثيرون

بموقـف كبيـر واحـد،
هو رفض السجود ليس إلا،
وقد كان من قبلُ يُسابقُ الملائكة في العبادة،
فما انقضى الموقف إلا وهو شيطان رجيم!
وهكذا هلكَ ثعلبة بموقفِ بُخلٍ واحد!
قدَّم حُبَّ المالِ على أمرِ اللّهِ،
وليته رفضَ أداء الزَّكاة تقصيراً لكان الأمر قابلاً للتَّدارك،
ولكنه شبَّه الزَّكاةَ بالجِزية!
وإنَّ ثلاثةً من السَّبعة الذين يُظِّلهم اللّه تعالى يوم القيامة،
تحت ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه،
إنما حازوا هذا الشَّرف العظيم بموقفٍ واحد!

24

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ﴾

لا تتمنَّ حياةَ أحدٍ،
أنت تعلمُ ما أُعطيَ النَّاسُ،
ولكنّك تجهل مما حُرِمُوا!
غلافُ الكتابِ شيءٌ، ومضمُونُه شيءٌ آخر،
الشُّهرة امتحانٌ رسبَ فيه كثيرُون!
والمنصِبُ فتنةٌ أعمتْ كثيرين عمّا خُلِقُوا له!
والمالُ ساحرٌ أخذ بلُبِّ قارون،
والجاهُ غوايةٌ ظلمتْ فيه زُليخةُ نبيّاً!
أنت في أنسبِ مكانٍ لكَ،
فلا تُقارن حياتَك بحياةِ غيركَ،
إنَّ المشغُولَ بالمُقارنةِ محرومٌ من السَّكينة!

25

روى البخـاريُّ ومسـلمٌ فـي صحيحهمـا عـن الصِّديقـة بنـت الصّديـق عائشـة،

أنها قالتْ تروي حادثة الإفكِ من أولها حتى آخرها:

كانَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ إذَا أرَادَ سَفَرًا أقْرَعَ بيْنَ أزْوَاجِهِ،

فأيُّهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بهَا رَسولُ اللَّهِ ﷺ معهُ،

فأقْرَعَ بيْنَنَا في غَزْوَةٍ غَزَاهَا فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي،

فَخَرَجْتُ مع رَسولِ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ ما أُنْزِلَ الحِجَابُ،

فَكُنْتُ أُحْمَلُ في هَوْدَجِي وأُنْزَلُ فِيهِ،

فَسِرْنَا حتَّى إذَا فَرَغَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ من غَزْوَته تلكَ وقَفَلَ،

دَنَوْنَا مِنَ المَدِينَةِ قَافِلِينَ، آذَنَ لَيْلَةً بالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بالرَّحِيلِ،

فَمَشيتُ حتَّى جَاوَزْتُ الجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أقْبَلْتُ إلى رَحْلِي، فَلَمَسْتُ صَدْرِي،

فَإِذَا عِقْدٌ لي مِن جَزْعِ ظَفَارِ قَدِ انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ،

وأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يُرَحِّلُونِي،

فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ علَى بَعِيرِي الذي كُنْتُ أرْكَبُ عليه،

وهُمْ يَحْسِبُونَ أنِّي فِيهِ، وكانَ النِّسَاءُ إذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَهْبُلْنَ،

ولَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، إنَّما يَأْكُلْنَ العُلْقَةَ مِنَ الطَّعَامِ،

فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ القَوْمُ خِفَّةَ الهَوْدَجِ حِينَ رَفَعُوهُ وحَمَلُوهُ،

وكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الجَمَلَ فَسَارُوا،

ووَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ ما اسْتَمَرَّ الجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وليسَ
بهَا منهمْ دَاعٍ ولَا مُجِيبٌ،
فَتَيَمَّمْتُ مَنْزِلِي الذي كُنْتُ به، وظَنَنْتُ أنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إلَيَّ،
فَبيْنَا أنَا جَالِسَةٌ في مَنْزِلِي، غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ،
وكانَ صَفْوَانُ بنُ المُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِن ورَاءِ الجَيْشِ،
فأصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إنْسَانٍ نَائِمٍ فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي،
وكانَ رَآنِي قَبْلَ الحِجَابِ،
فَاسْتَيْقَظْتُ باسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي، فَخَمَّرْتُ وجْهِي بجِلْبَابِي،
ووَاللَّهِ ما تَكَلَّمْنَا بكَلِمَةٍ، ولَا سَمِعْتُ منه كَلِمَةً غيرَ اسْتِرْجَاعِه،
وهَوَى حتَّى أنَاخَ رَاحِلَتَهُ، فَوَطِئَ علَى يَدِهَا، فَقُمْتُ إلَيْهَا فَرَكِبْتُهَا،
فَانْطَلَقَ يَقُودُ بي الرَّاحِلَةَ حتَّى أتَيْنَا الجَيْشَ مُوغِرِينَ في نَحْرِ
الظَّهِيرَةِ وهُمْ نُزُولٌ،
فَهَلَكَ مَن هَلَكَ، وكانَ الذي تَوَلَّى كِبْرَ الإفْكِ عبدُ اللَّهِ بنُ أُبَيٍّ
ابنُ سَلُولَ!
فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا، والنَّاسُ يُفِيضُونَ في قَوْلِ
أصْحَابِ الإفْكِ،
لا أشْعُرُ بشيءٍ مِن ذلكَ، وهو يَرِيبُنِي في وجَعِي أنِّي لا أعْرِفُ
مِن رَسولِ اللَّهِ ﷺ اللطف الذي كُنْتُ أرَى منه
حِينَ أشْتَكِي،
إنَّما يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسولُ اللَّهِ ﷺ فيُسَلِّمُ، ثُمَّ
يقولُ: كيفَ تِيكُمْ، ثُمَّ
يَنْصَرِفُ!
فَذلكَ يَرِيبُنِي ولَا أشْعُرُ بالشَّرِّ، حتَّى خَرَجْتُ حِينَ نَقَهْتُ،

فَخَرَجْتُ مع أُمِّ مِسْطَحٍ قِبَلَ المَنَاصِعِ، وكانَ مُتَبَرَّزَنَا،
وكُنَّا لا نَخْرُجُ إلَّا لَيْلًا إلى لَيْلٍ،
وذلكَ قَبْلَ أنْ نَتَّخِذَ الكُنُفَ قَرِيبًا مِن بُيُوتِنَا،
وأَمْرُنَا أمْرُ العَرَبِ الأُوَلِ في البَرِّيَّةِ قِبَلَ الغَائِطِ، وكُنَّا نَتَأَذَّى
بالكُنُفِ أنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بُيُوتِنَا،
فَانْطَلَقْتُ أنَا وأُمُّ مِسْطَحٍ، وهي ابْنَةُ أبِي رُهْمِ بنِ المُطَّلِبِ بنِ عبدِ
مَنَافٍ، وأُمُّهَا بنْتُ صَخْرِ بنِ عَامِرٍ، خَالَةُ أبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وابنُهَا
مِسْطَحُ بنُ أُثَاثَةَ بنِ عَبَّادِ بنِ المُطَّلِبِ،
فأَقْبَلْتُ أنَا وأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بَيْتي حِينَ فَرَغْنَا مِن شَأْنِنَا،
فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ في مِرْطِهَا فَقالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ!
فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ ما قُلْتِ، أتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا؟
فَقالَتْ: أيْ هَنْتَاهْ ولَمْ تَسْمَعِي ما قالَ؟
قلتُ: ما قالَ؟
فأَخْبَرَتْنِي بقَوْلِ أهْلِ الإفْكِ! فَازْدَدْتُ مَرَضًا علَى مَرَضِي،
فَلَمَّا رَجَعْتُ إلى بَيْتي دَخَلَ عَلَيَّ رَسولُ اللَّهِ ﷺ
فَسَلَّمَ، ثُمَّ قالَ: كيفَ
تِيكُمْ؟
فَقُلْتُ له: أتَأْذَنُ لي أنْ آتِيَ أبَوَيَّ؟
إنما أُرِيدُ أنْ أسْتَيْقِنَ الخَبَرَ مِن قِبَلِهِمَا!
فأذِنَ لي رَسولُ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ لِأُمِّي: يا أُمَّتَاهُ، مَاذَا يَتَحَدَّثُ
النَّاسُ؟

قالَتْ: يا بُنَيَّةُ، هَوِّني عَلَيْك، فَوَاللَّه لَقَلَّما كَانَت امْرَأَةٌ قط وضِيئَةً عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا، لَهَا ضَرَائِرُ، إلَّا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا!

فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّه، أوَلقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بهذا؟

فَبَكَيْتُ تلكَ اللَّيْلَةَ حتَّى أصْبَحْتُ لا يَرْقَأُ لي دَمْعٌ ولَا أكْتَحِلُ بنَوْم، ثُمَّ أصْبَحْتُ أبْكِي!

ودَعَا رَسولُ اللَّه ﷺ عَلِيَّ بنَ أبِي طَالِبٍ وأُسَامَةَ بنَ زَيْدٍ، حِينَ اسْتَلْبَثَ الوَحْيُ، يَسْأَلُهُما ويَسْتَشِيرُهُما في فِرَاقِ أهْلِه، فأمَّا أُسَامَةُ فأشَارَ علَى رَسولِ اللَّهِ ﷺ بالَّذِي يَعْلَمُ مِن بَرَاءَةِ أهْلِه، وبِالَّذِي يَعْلَمُ لهمْ في نَفْسِه،

فَقالَ أُسَامَةُ: أهْلَكَ، ولَا نَعْلَمُ إلَّا خَيْرًا،

وأَمَّا عَلِيٌّ فَقالَ: يا رَسولَ اللَّه، لَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْكَ، والنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وسَلِ الجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ!

فَدَعَا رَسولُ اللَّهِ ﷺ بَرِيرَةَ، فَقالَ: أيْ بَرِيرَةُ، هلْ رَأَيْتِ مِن شيءٍ يَرِيبُكِ؟

قالَتْ له بَرِيرَةُ: والذي بَعَثَكَ بالحَقِّ، ما رَأَيْتُ عَلَيْهَا أمْرًا قَطُّ أغْمِصُهُ، غيرَ أنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، تَنَامُ عن عَجِينِ أهْلِهَا، فَتَأْتي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ!

فَقَامَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ مِن يَومِهِ فَاسْتَعْذَرَ مِن عبدِ اللَّهِ بنِ أُبَيٍّ، وهو علَى المِنْبَرِ،

فَقالَ: يا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، مَن يَعْذِرُنِي مِن رَجُلٍ قدْ بَلَغَنِي عنْه أذَاهُ في أهْلِي،

واللَّهِ ما عَلِمْتُ علَى أهْلِي إلَّا خَيْرًا، ولقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا ما عَلِمْتُ عليه إلَّا خَيْرًا،

وما يَدْخُلُ علَى أهْلِي إلَّا مَعِي!

فَقَامَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ أخُو بَنِي عبدِ الأشْهَلِ، فَقالَ:

أنَا يا رَسولَ اللَّهِ أعْذِرُكَ،

فإنْ كانَ مِنَ الأوْسِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ، وإنْ كانَ مِن إخْوَانِنَا مِنَ الخَزْرَجِ أمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أمْرَكَ!

فَقَامَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ، وهو سَيِّدُ الخَزْرَجِ، وقد احْتَمَلَتْهُ الحَمِيَّةُ، فَقالَ لِسَعْدٍ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لا تَقْتُلُهُ، ولَا تَقْدِرُ علَى قَتْلِه،

ولو كانَ مِن رَهْطِكَ ما أحْبَبْتَ أنْ يُقْتَلَ. فَقَامَ أُسَيْدُ بنُ حُضَيْرٍ، وهو ابنُ عَمِّ سَعْدٍ، فَقالَ لِسَعْدِ بنِ عُبَادَةَ:

كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لَنَقْتُلَنَّهُ، فإنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ المُنَافِقِينَ!

فَثَارَ الحَيَّانِ الأوْسُ، والخَزْرَجُ حتَّى هَمُّوا أنْ يَقْتَتِلُوا، ورَسولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ علَى المِنْبَرِ!

فَلَمْ يَزَلْ رَسولُ اللَّهِ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ، حتَّى سَكَتُوا وسَكَتَ!

فَبَكَيْتُ يَومِي ذلكَ كُلَّهُ لا يَرْقَأُ لي دَمْعٌ ولَا أكْتَحِلُ بنَوْمٍ حتَّى إنِّي لَأَظُنُّ أنَّ البُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي!

فَبيْنَا أبَوَايَ جَالِسَانِ عِندِي وأَنَا أبْكِي، فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنَ الأنْصَارِ،

فأذِنْتُ لَهَا، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي!

فَبيْنَا نَحْنُ علَى ذلكَ دَخَلَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْنَا فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ، ولَمْ يَجْلِسْ عِندِي مُنْذُ قيلَ ما قيلَ قَبْلَهَا،

وقدْ لَبِثَ شَهْرًا لا يُوحَى إلَيْهِ في شَأْنِي بشيءٍ،

فَتَشَهَّدَ رَسولُ اللَّه ﷺ حِينَ جَلَسَ، ثُمَّ قالَ:
أَمَّا بَعْدُ، يا عَائِشَةُ، إنَّه بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وكَذَا، فإنْ كُنْتِ بَرِيئَةً، فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّه،
وإنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بذَنْبٍ، فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وتُوبِي إلَيْه، فإنَّ العَبْدَ إذَا اعْتَرَفَ ثُمَّ تَابَ، تَابَ
اللَّه عليه!
فَلَمَّا قَضَى رَسولُ اللَّهِ ﷺ مَقالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي حتَّى ما أُحِسُّ منه قَطْرَةً،
فَقُلتُ لأَبِي: أجِبْ رَسولَ اللَّهِ ﷺ عَنِّي فِيما قالَ
فَقالَ أبِي: واللَّهِ ما أدْرِي ما أقُولُ لِرَسولِ اللَّهِ ﷺ،
فَقُلتُ لأُمِّي: أجِيبِي رَسولَ اللَّهِ ﷺ فِيما قالَ
قالَتْ أُمِّي: واللَّهِ ما أدْرِي ما أقُولُ لِرَسولِ اللَّهِ ﷺ،
فَقُلتُ: وأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ: لا أقْرَأُ مِنَ القُرْآنِ كَثِيرًا:
إنِّي واللَّهِ لقَدْ عَلِمْتُ: لقَدْ سَمِعْتُمْ هذا الحَدِيثَ حتَّى اسْتَقَرَّ في أنْفُسِكُمْ وصَدَّقْتُمْ به،
فَلَئِنْ قُلتُ لَكُمْ: إنِّي بَرِيئَةٌ، لا تُصَدِّقُونِي،
ولَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بأَمْرٍ، واللَّهُ يَعْلَمُ أنِّي منه بَرِيئَةٌ، لَتُصَدِّقُنِّي،
فَوَاللَّهِ لا أجِدُ لي ولَكُمْ مَثَلًا إلَّا أبَا يُوسُفَ حِينَ قالَ:
﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ واللَّهُ المُسْتَعَانُ علَى ما تَصِفُونَ﴾،
ثُمَّ تَحَوَّلْتُ واضْطَجَعْتُ علَى فِرَاشِي، واللَّهُ يَعْلَمُ أنِّي حِينَئِذٍ بَرِيئَةٌ،
وأنَّ اللَّهَ مُبَرِّئِي ببَرَاءَتِي،
ولَكِنْ واللَّهِ ما كُنْتُ أظُنُّ أنَّ اللَّهَ مُنْزِلٌ في شَأْنِي وحْيًا يُتْلَى،

لَشَأْنِي في نَفْسِي كانَ أحْقَرَ مِن أنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِيَّ بأَمْرٍ،
ولَكِنْ كُنْتُ أرْجُو أنْ يَرَى رَسولُ اللَّهِ ﷺ في النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللَّهُ بهَا،
فَوَاللَّهِ ما رَامَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ مَجْلِسَهُ،
ولَا خَرَجَ أحَدٌ مِن أهْلِ البَيْتِ،
حتَّى أُنْزِلَ عليه، فأخَذَهُ ما كانَ يَأْخُذُهُ مِنَ البُرَحَاءِ،
حتَّى إنَّه لَيَتَحَدَّرُ منه مِنَ العَرَقِ مِثْلُ الجُمَانِ،
وهو في يَومٍ شَاتٍ مِن ثِقَلِ القَوْلِ الذي أُنْزِلَ عليه،
فَسُرِّيَ عن رَسولِ اللَّهِ ﷺ وهو يَضْحَكُ،
فَكَانَتْ أوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بهَا أنْ قالَ: يا عَائِشَةُ، أمَّا اللَّهُ فقَدْ بَرَّأَكِ.
فَقالَتْ لي أُمِّي: قُومِي إلَيْهِ،
فَقُلتُ: واللَّهِ لا أقُومُ إلَيْه، فإنِّي لا أحْمَدُ إلَّا اللَّهَ عزَّ وجلَّ،
وأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنكُمْ﴾،
ثُمَّ أنْزَلَ اللَّهُ هذا في بَرَاءَتِي،
قالَ أبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: وكانَ يُنْفِقُ علَى مِسْطَحِ بنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ منه وفَقْرِهِ:
واللَّهِ لا أُنْفِقُ علَى مِسْطَحٍ شيئًا أبَدًا، بَعْدَ الذي قالَ لِعَائِشَةَ ما قالَ،
فأنْزَلَ اللَّهُ:﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾،
قالَ أبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: بَلَى واللَّهِ إنِّي لَأُحِبُّ أنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي،
فَرَجَعَ إلى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتي كانَ يُنْفِقُ عليه، وقالَ:

واللَّهِ لا أَنْزِعُهَا منه أبَدًا،
وكانَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ سَأَلَ زَيْنَبَ بنْتَ جَحْشٍ عن أمْرِي، فَقالَ لِزَيْنَبَ:
مَاذَا عَلِمْتِ، أوْ رَأَيْتِ؟
فَقالَتْ: يا رَسولَ اللَّهِ أحْمِي سَمْعِي وبَصَرِي، واللَّهِ ما عَلِمْتُ
إلَّا خَيْرًا،
وهي الَّتي كَانَتْ تُسَامِينِي مِن أزْوَاجِ النبيِّ ﷺ فَعَصَمَهَا اللَّهُ بالوَرَعِ،
وطَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ تُحَارِبُ لَهَا، فَهَلَكَتْ، فِيمَن هَلَكَ!

الدَّرسُ الأوّل:

الزَّوجةُ رفيقٌ دائم فلا تزهَدْ بها!
وعندما أراد اللّه تعالى أن يُؤنسَ آدم عليه السّلام خلقَ له زوجة!
زوجةٌ صالحةٌ تُغنيك عن الدُّنيا كلها،
والدُّنيا كلها لا تُغنيك عن زوجة صالحة!
رباط مقدّس حفَّه اللّه بالمودة والرَّحمة،
تحملُكَ مرَّةً وتحملها مَّرةً، تتغاضى لها وتتغاضى لكَ،
صديقٌ موثوقٌ إن قلَّ حولك الأصدقاء،
ورفيقٌ عذبٌ إن جفا عنك الرفاق،
وصدر حنون إن رمتكَ الدُّنيا بنبال قسْوتها،
وكتفٌ متين إن أردتَ الاتكاء،
مدبّرٌ أمين إن خانكَ التدبير،
وناصح محبّ إن زلَّتْ بك الخطوات،

ولكن تذكرّ أن الحُبَّ قبل أن يكون ثماراً تُجنى،
فهو بذور تُزرع، ولا حصاد إلا لزارع،
والطَّريقة الوحيدةُ للحصول على الحُب هي تقديمه!
وانُظُرّ للنبيُّ ﷺ كيف أنَّه وحتى وهو في الجيش،
يحرصُ أن يكون معه زوجة،
فلا تمشِ وحدكَ وقد جعل اللّه لكَ رفيقاً!

الدَّرسُ الثّاني:

العدلُ بين الزَّوجات واجبٌ في النَفقة والمبيت،
أما الحُبُّ فلا أحد يملكُ قلبه،
وقد كان نبياً ذلك الذي قال: اللهم لا تؤاخذني فيما لا أملِكُ،
قالها قاصداً قلبه لأنه كان يُحِبُّ عائشة أكثر من غيرها،
ولكنّه كان يعدلُ بين زوجاته عدلاً عجيباً،
فلا يعطي عائشة أكثر من غيرها،
ولا يبيتُ عندها أكثر مما يبيتُ عند ضرائرها رضي اللّه عنهنّ أجمعين،
ولو أنه أراد أن يُطيعَ قلبه لكان اصطحب عائشة معه كل مرّة،
ولكنه كان يقترعُ بين نسائه فأيُّها خرج اسمها كانت معه،
وبهذا لا تشعُر أيّ واحدة منهنَّ بالظُّلم،
وقد كانت عائشة معه في الغزوة التي كانت فيها حادثة الإفك،
وكانت أم سلمة معه في صلح الحديبية!
معذورٌ أنتَ حين تميلً بقلبك،

ولكنك موزور ومحاسب حين تظلم في معاملتك،
والظُّلم ليس في أخذ مالِ النَّاسِ فقط،
وإنّما هو في ألا تُعطي النَّاسَ حقوقهم التي هي لهم عندكَ،
ولو كانت هذه الحقوق معنويّة!

الدَّرسُ الثّالث:

العاقل لا يضعُ نفسه في موضع الشُّبهة،
لأنَّ النَّاسَ مفطورة على سُوء الظنِّ!
ودفع الشُّبهة سُنّة نبوية شريفة،
كان النبيُّ ﷺ معتكفاً في المسجد،
فجاءت إليه أُمنا صفية تزوره ليلاً،
فجلستْ عنده ثم قامتْ لتذهب إلى بيتها،
فقام معها النبيُّ ﷺ ليوصلها،
فمرَّ رجُلان من الأنصار بهما في الطَّريق،
فلما رأيا النبيُّ ﷺ أسرعا،
فقال لهما: على رِسلكما إنّها صفيّة بنت حُيي،
فقالا: سبحان اللّه يا رسول اللّه،
يريدان أن يقولا له أنتَ فوق الشُّبهة،
فقال لهما: إنَّ الشَّيطان يجري من الإنسان مجرى الدَّم،
فخشيتُ أن يقذفَ في قلوبكما شرّاً!
وبالعودة إلى حادثة الإفك..

فإنَّ أمنا عائشة أطهر من ماء زمزم،
وصفوان بن المُعطل صحابي جليل فوق التُّهمة،
ولكن تأخرهما عن الجيش هو الذي أطلق ألسنة المرضى والمنافقين،
حتى وقعُوا في عرضها رضي اللّه عنها،
فإن كانت أم المؤمنين وصحابيٌّ جليل لم ينجُوا من سوء الظنِّ،
لأنَّ النَّاسَ رأوهما في موضعِ شُبهة،
فلا تتوقع أن أسلمَ أنا وأنتِ وهي،
من يراكَ مع امرأة ليست من محارمك في مقهى،
لن يحسن الظنَّ ويقول إنك تُساعدها في مشكلة ما،
أنتَ تتحمل بعض التبعات إذ وضعتَ نفسك في موضع شُبهة،
فانتبه جيّداً إلى موضع خطواتك!

الدَّرسُ الرَّابع:

إيّاك ونقل الإشاعات،
فشأن النَّاسِ دوماً أن يفتريَ بعضُهم على بعض!
لا تُصدِّق تهمة بلا دليل!
والأهمّ لا تبحث عن دليل للتهمة التي سمعتها،
ما لكَ وللنَّاس، ومن تتبَّع عوراتِ النأَّسِ تتبَّعَ اللّه عورته،
لا تخُضْ في ذمة رجل لم تشهد خيانته،
ولا في عرض امرأة لأنَّ فلاناً قال،

كفى بالمرءِ إثماً أن يُحدِّث بكل ما سمعَ!
وحتى وإن رأيتَ، فإنَّ اللّٰه ستير يُحِبُّ السِّتر،
وما منا من أحدٍ إلا وله عيوب يكره أن يراها الناس،
فلا تَفضَحْ، فتُفضَح!

الدَّرسُ الخامس:

خدمةُ الإنسان المقطوع نُبل،
وعليه أن يُراجع إنسانيَّته وأخلاقه وإسلامه،
من رأى مقطوعاً في الطَّريق وكان قادراً على مساعدته فلم يفعل!
حتى العرب في جاهليتها وهي على الشِّرك،
قد عدَّتْ خدمة المقطوع من أنبل أخلاقها وتغنَّتْ به،
عندما عزمَ أبو سلمة على الهجرة إلى المدينة،
ركبَ على بعير وأركبَ زوجته أم سلمة وابنه سلمة على بعير،
فلما كانوا على مشارف مكة، جاء بنو مخزوم قوم أم سلمة،
وقالوا له: هذه نفسك غلبتنا عليها، أما زوجتك فلا نتركك
تهاجر بها!
فأخذوها منه، ومضى أبو سلمة مهاجراً!
وليزداد الطين بلة جاء قوم أبي سلمة إلى بني مخزوم،
وقالوا لهم: لا نترك ابننا عندكم، فأخذوه من أمه!
وهكذا صارت أم سلمة بلا زوج ولا ابن!
وبقيت على هذه الحال سنةً كاملة،

تخرج كل يوم وحيدة إلى مشارف مكة،
وتبكي فراق زوجها وابنها، إلى أن مرَّ بها أحد أولاد عمومتها فرقَّ لحالها،
وقال لقومه: ما لكم ولهذه المسكينة فرَّقتم بينها وبين زوجها وولدها!
فقالوا لها: الحقي بزوجكِ إن شئتِ.
وأعاد لها أهل أبي سلمة ابنها..
فركبتْ بعيرها، وأخذت ابنها في حجرها، وانطلقتْ تريدُ المدينة،
فلما كانت بالتنعيم على مشارف مكة لقيها عثمان بن طلحة وهو مشرك،
فقال لها: إلى أين يا أم سلمة؟
فقالتْ: إلى زوجي في المدينة
فقال: أوَمَا معكِ أحد؟
فقالتْ: لا واللّهِ، إلا اللّهَ وابني هذا
فقال: ما لكِ من متركِ! أي لا أتركِ حتى أوصلكِ
فأخذ بخطام بعيرها يقوده إلى المدينة،
فكان إذا أراد أن يجعلها تنزل لتستريح أناخ البعير، ثم ابتعد عنها لتنزل،
وإذا أراد أن يمضي أناخ البعير لها مجدداً، ثم ابتعدَ عنها،
فإذا ركبت جاء وأخذ بخطام البعير، ومشى بها،
فلم يزل يصنع هذا حتى أوصلها إلى مشارف المدينة قال لها:
إن زوجكِ في هذه القرية فادخلي على بركة اللّه، وعادَ أدراجه

إلى مكة!
أبعدَ هذا النُّبل نُبل، وبعد هذه الأخلاق أخلاق؟!
هذا وهو رجل مشرك، فإن لم يزدْكَ دينك خُلقاً
فأنت لم تفهم بعد أنّ أهم درسٍ من دروس الإسلام العظيم هو
أن تكون خلوقاً!

الدَّرسُ السَّادس:

اللطفُ مع الزَّوجةِ واجبٌ!
وقد كان الأوائل يقولون: إننا لا نُسمي الرجل رجُلاً،
حتى ننظر إلى زوجته، أعزيزة هي أم مُهانة!
وإنَّ أمنا عائشة لم ترتَبْ مما يحدث،
إلا أنها لم تعد تجدُ من النبيُّ ﷺ، ذاك اللطف الذي كانت تجده
عادة منه،
وإنما كان يسأل عنها سؤالاً عابراً: كيف تلك؟!
وفي هذا الموقف موقفين على غايةٍ من الأهمية،
الأوّل: أنَّ النبيُّ ﷺ لو لم يكن يُغدق عليها اللطف،
ما كانت لتشعر بتغيُّرِه معها،
وتوقُّف المرء عن بذل شيءٍ يعني أنه لطالما كان يبذله!
الثّاني: في الخلاف بين الأزواج أدب يجب أن يُراعى،
لم يضربها النبيُّ ﷺ ولم يشتمها،
كما نرى ونسمع كل يوم من سفهاء الأزواج!

وإنما على عظمة الكرب الذي هو فيه،
ما زاد على أن أوقف إظهار اللطف الذي كان يتلطَّف به إليها،
فإذا ما وقع الخلاف بينكما فلا تفجُرّ!
قليل من الإعراض يكفي حتى ترجع الأمور إلى مجاريها،
أمّا تحويل البيت إلى ساحة معركة فهذا من قلَّة الفَهم والمُروءة!

الدَّرسُ السَّابع:

اِعْترِفْ بفضل النّاس السَّابق ولو صدر منهم الخطأ،
ولا تنسَ معروفهم القديم وإن بدا منهم الآن ما يزعجك،
كان حسان بن ثابتٍ على فضله من الذين تكلَّمُوا في عائشة،
وقالوا فيها ما قال الأفَّاكون والجُناة،
ولكن عائشة كانت ترفض أن يَسُبَّ أحدٌ حساناً عندها،
ودخلَ عليها مرّةً عروة بن الزبير ابن أختها اسماء بنت أبي بكر،
وكان لم ينسَ بعد ما كان من حسَّان في حقِّ خالته عائشة،
فأراد أن يسبَّه، فنهرته عائشة،
وقالتْ: لا تسبُّه فطالما ذاد عن عرض النبيِّ ﷺ،
ثم تترنمُ بقوله:
فإنَّ أبي ووالده وعرضي،
لعرضِ محمد منكم وقاءُ!
ثم بعد ذلكَ اعتذَر منها حسَّان في واحدة من أروع قصائد الاعتذار في تاريخ الأدب.
حَصَانٌ رزانٌ ما تزن بريبةٍ
وتصبحُ غرثى من لحوم الغوافلِ!

الدَّرسُ الثَّامن:

من الحكمةِ ستر الأخبار الحزينة عن المريض،
لأنَّ النفسيَّة إذا ساءتْ أدّتْ إلى تفاقم المرض،
والعكس مُشاهَدٌ عياناً، مُسَلَّمٌ به في الطبِّ،
أنَّ إبعاد الحزن عن المريض يُسرِّع شفاءه بإذن اللّه،
وحين أصابت الحُمّى عائشة ونامتْ في فراشها،
لم تكُنْ تدرِ بالذي يُقال عنها في عِرضها،
وقد حرصَ أبواها ألا تعلم كي لا تسوء حالتها،
وهذا من أدبهما وفهمهما في مراعاة المشاعر وأصول التَّداوي،
فلا تجمعوا على المريض سوأتين:
سوأة المرض التي يُعانيها في جسده،
وسوأة الأخبار الحزينة التي تكسِرُ خاطره وتُكدِّر مشاعره!

الدَّرسُ التَّاسع:

إذا وقع الخصام بين الأحبّة فإنه من النُّبل أن لا يهْجُرُوا بالكُليَّة،
كان النبيُّ ﷺ في موقفٍ صعبٍ لا يُحسد عليه،
وأيّ شيءٍ أقسى على الزَّوج من أن يتكلَّمَ النَّاسُ في عرض زوجته،
وهو بين نارين: نار الإشاعات، ونار حبه لعائشة وما يعرفه من صلاحها!
وصحيحٌ أن معاملته لها قد تغيَّرتْ كما سبقَ،

لكنّه كان يأتي ويعودها في مرضها وإن بدفء أقلّ من المعهود،
فيسأل سؤال المجروح الذي لا يريدُ أن يتخلّى عن مسؤوليته
وقلبه: كيف تينك؟
فإن خاصمتَ زوجتكَ فتذكَّرْ أنها تبقى زوجتُكَ،
ولها عندك حقوقٌ لا يُسقطها الخصام أبداً،
لها حقَّ أن تنفقَ عليها، وتعالجها، وتتفقدها،
أما الحُبُّ والودُّ فيعودان تلقائياً إذا عادت المياه إلى مجاريها!
وإن خاصمتِ زوجكِ فتذكري أنه رغم الخصام زوجكِ،
وله عندكِ حقوقٌ لا تُبيح لكِ الخلافات ألا تعطيه إياها،
تقومين على أمر بيته، وتُعدِّين طعامه، وتُصلحين شؤونه،
الدُّنيا لا تقوم على الحُبِّ فقط، وإن كانت بالحُبِّ أجمل،
وإنما تقوم على المعروف وأداء الواجب قبل طلب الحقوق!
وانُظُرْ لأدبِ عائشة، وفهمها، وحُسن طباعها واحترامها لزوجها،
إنها رغم كلّ شيءٍ، وهي الموجوعة لا شكَّ،
تستأذن النبيَّ ﷺ أن تُعالج في بيت أهلها،
هي مجروحة بعرضها وكرامتها قبل أن تكون مُصابة بالحمى،
ولكنها لا تُسقط لزوجها حقّ طاعته واستئذانه،
وهذه هي إحدى أكبر مشكلاتنا، ليستْ وقوع الخلافات، فهي من الطَّبيعيِّ أن تقع،
ولكننا لا نعرفُ كيف نختلف!

الدَّرسُ العاشر:

إذا اضطرت المرأةُ إلى الخروج من البيت فحبّذا ألا تخرج وحيدة،
وهذا ليس شكّاً بها وإنما إكرامٌ لها!
الرّفقة حماية، والمرأة وحدها عُرضة للأذى!
لم يكن النّاسُ يومذاك قد جعلوا المراحيض في البيوت،
فكانوا يخرجون إلى الصَّحراءِ لقضاء الحاجة،
فاصطحبتْ عائشة معها أمَّ مسطح،
جعلتْ لها رفقةً في موضع هو أغنى ما يكون عن الرِّفقة!
فـلا تخرجْـنَ مـن بيوتكـنَّ وحيـدات إن كان بإمكانكـنَّ الخـروج مـع رفقـة!

الدَّرسُ الحادي عشر:

المؤمنُ لا يقبلُ أن يُساءَ إلى أحدٍ في حضرته،
وعندما دعتْ أم مسطحٍ على ابنها،
لأنه آذاها أن يكون ممن خاضوا في عرض عائشة،
نهرتْها عائشةُ لما تعرفُ من تاريخه المُشرق وأنّه من أهل بدر،
فـإن كانـت أُمُّنـا عائشـة تعُلمنـا درسـاً بليغـاً، فـي حفـظ أعـراض وسـمعات الغائبيـن،
فإنَّ أمَّ مسطحٍ هي الأخرى تُعلِّمنا درساً عظيماً مفاده:
لا تقبلْ بالباطل ولو جاء به أقربُ النَّاسِ إليكَ!

الدَّرسُ الثاني عشر:

عندما ينزلُ بك أمرٌ تكرهه فلا تتسرعْ باتِّخاذِ قرار،
واستشِرْ من الناس من تعرفُ دينَه وعقله،
وهذا ليس من ضعف العقل وإنّما من تمامه،
فلا أحد في عقله وإيمانه وقلبه كالنبيِّ ﷺ،
وعلى الرَّغم من هذا ها هو يستشير من يثق في الأمر الذي نزل به،
المشورة تتيح لكَ استخدام عقول الآخرين،
ولا شكَّ أنَ حلّاً جاء عن طريق أكثر من عقل،
أنجح وأقوَمُ من حلٍّ جاء من عقلٍ واحدٍ،
ثم إن صاحب المشكلة تشغله مشكلته عن بعض تفاصيلها،
مهم جداً أن ننظر للأمر بعيون الآخرين أحياناً،
فإن المشكلات إذا نزلتْ جعلت الحليمَ حيراناً،
وجعلت القادر على حل مشكلات النَّاس عادةً عاجز عن حلِّ مشكلته،
أحياناً تبدو مشكلتنا صعبة في عيوننا،
ليس لأنّها صعبة فعلاً، بل لأنّها مشكلتنا!

الدَّرسُ الثّالث عشر:

لا تقُلْ إلا حقاً ولو كنتَ خصماً، وهذه من أعلى مراتب النُّبل!
ويا لنُبل أمنا زينب بنت جحشٍ!

هي ضرة عائشة وهي التي بينها وبينها المنافسة عند النبيِّ ﷺ،
ولو كانتْ تبحثُ عن نصرٍ مُلوَّثٍ فهذه فرصة سانحة،
ولكن عندما سألها النبيُّ ﷺ وماذا علمتِ؟ وماذا رأيتِ؟
قالتْ: يا رسول اللّهِ أحمي سمعي وبصري، واللّهِ ما علمتُ إلا خيراً!
ترفَّعتْ عن كلِّ ما يكون بين الضَّرائر،
ألقتْ غيرتها بعيداً وانتصرتْ لدينها وأخلاقها،
وأنتَ، فاعلَمْ أنَّ النَّاس في الوفاق نبلاء جميعاً،
ولكنّ النَّبيل حقاً من حافظ على نبله في موقفٍ يمكنه أن يتخلّى عنه!

الدَّرسُ الرَّابعُ عشر:

مواقف الجبر في لحظات الانكسار لا تُنسى!
المرأة من الأنصار عندما علمتْ بمصاب عائشة،
جاءتها تواسيها فخانتها مفرداتها، فلم تزِدْ على أن جلستْ تبكي معها!
فلم تنسها لها عائشة أبداً!
النّاسُ أحياناً لا يريدون من الآخرين أكثر من أن يشعُروا بهم،
أن يحسُّوا بأوجاعهم فيأخذونها على محمل الجدِّ،
نحن عندما ننكسرُ لا نريدُ حلولاً بالضَّرورة،

نحن نعرفُ أن الحلول ليست بأيديهم،
نحن لا نريدُ حلولهم وإنما نريدُ قلوبهم!

الدَّرسُ الخامسُ عشر:

البكاءُ مُستراحٌ!
لا تكتُمْ أحزانكَ في قلبك فقد ينفجر!
مُرَّ بلحظاتِ ضعفك ولا تخجلْ منها أبداً فهي جزءٌ من إنسانيتك!
قال أبو بكر بن عياش: كنتُ وأنا شاب إذا أصابتني مصيبة
تصبَّرتُ لها،
وردَدْتُ البكاءَ عن نفسي، فكان ذلك يُوجعني ويَزيدني ألماً!
حتى رأيتُ يوماً أعرابياً وقد اجتمع النَّاسُ حوله، وإذا هو ينشد:
خليليَّ عُوجا من صُدور الرَّواحل
بجمهور حُزوى فابكيا المنَازلِ
لعلَّ انحدار الدمعِ يُعقبُ راحةً
من الوجدِ أو يشفيَ نَجيَّ البلابلِ

فسألتُ عنه فقيل: هذا هو الشَّاعر ذو الرِّمّة!
فأصابتني بعد ذلك مصائب، فكنتُ أبكي منها فأجدُ بعد البكاء
راحةً،
وأقول في نفسي: سبحان الله، ما أبصرَ هذا الأعرابي وما أعلَمه!

يحسبُ البعض أن البكاء دليل ضعفٍ، وهذا من أقسى ما يظنه الناس،
إنَّ البكاء دليل على الإنسانية، وسلامة الشُّعور،
المهم أن لا يذرفَ الإنسان دمعته في موضع الشَّماتة!
ولو كان حبس الدموع دليلاً على الرجولة لما بكى رسول اللّه ﷺ وهو سيد الرِّجال،
ولكنه كان رقيق القلب، تجري دمعتُه من عينه في موقف الحزن،
وبأبي هو وأمي يوم موت ابنه إبراهيم يبكي أمام النِّاس،
حتى قال له ابن مسعود: وأنتَ يا رسول اللّه؟!
فقال: إنّ العين لتدمع، وإنّ القلب ليحزن، وإناّ على فراقك يا إبراهيم لمحزونون،
ولا نقول إلا ما يرضي ربَّنا، إناّ للّه وإنّا إليه راجعون!

الدَّرسُ السّادس عشر:

عندما هجمَ الحزنُ على عائشة لم تتذكرْ إلا يعقوبَ عليه السَّلام،
وأخذتْ تُرددُ قوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾
فتعزَّ.. في قصص الصالحين قَبلكَ فإن فيها عزاءً،
فإنْ كذَّبوكَ فها هو نوح عليه السّلام شيخ المرسلين قد كذّبوه قبلكَ،
ألف سنةٍ يدعوهم إلى اللّه ليلاً ونهاراً، سرّاً وجهراً، فما آمن معه إلا قليل!

وإنْ عصوكَ وأنتَ تريدُ لهم الخيرُ،
فقد عُصيَ موسى عليه السّلام قبلكَ وكان يدعوهم إلى النَجاة،
فما عرفوا صدق دعواه إلا وقد أطبقَ عليهم البحر!
وإن ظلموكَ وافتروا عليكَ وأنتَ النقيُّ كماء المطر،
فقد ظُلم يوسف عليه السّلام قبلكَ وكان أنقى منكَ،
ألقاه إخوته في الجُبّ بلا إثمٍ ولا خطيئة،
وباعه السيّارة بثمنٍ بخسٍ وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم،
وألقته زليخة في السِّجن وما له من إثم غير أنّه عفيفٌ!
وإن افتقرتَ فقد افتقرَ من هو خيرٌ منكَ،
كان عيسى عليه السّلام لا يجدُ رغيفاً فينام جائعاً!
وكان النبيُّ ﷺ يربطُ حجراً على بطنه من الجوع،
وإن ابتُليتَ بولدٍ عاقٍ،
فقد تجرَّع نوحٌ عليه السَّلام مرارة العقوق قبلكَ،
وإن ابتُليتَ بزوجةٍ لا تخاف الله فيكَ،
فقد كانت زوجة لوطٍ عليه السَّلام كافرة!
وإن ابتُليتِ بزوجٍ عاصٍ،
فقد كان زوج آسيا بنتُ مزاحم يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾
ما عمُّكَ بشرٍّ من أبي لهبٍ وهو عمُّ النبيُّ ﷺ،
فتعزَّ يا صاحبي بأهل العزاء فإنّ في قصصهم عبرة!

26

﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾

ليسَ لديَّ تجارب فاشِلة،
لديَّ خِبرةٌ، والإنسانُ لا يتعلَّمُ إلا من كِيسه!
ليسَ لديَّ أعداء،
لديَّ دروسٌ على هيئةِ ناس، علّمُوني كيف أجتنب أمثالهم،
ليسَ لديَّ جُروح،
لديَّ ندوبٌ، تُذكِّرني دوماً أني نجوتُ!
أكرهُ أن أعيشَ كضحيّة، الضَّحايا يندُبون دائماً،
أحبُّ أن أعيش كناج،
النّاجُون يُكملُون طرِيقَهم أكثر ثقةً وإشراقاً،
وأقلّ التفاتاً إلى الوراء،
فسبحان من يصقلنا بالهمّ والحزنِ والعثرات،
لنخرجَ منها نسخةً أكثر قوَّةً وأقلّ مبالاةً!

27

أسلمَ سعدُ بن أبي وقاص باكراً،
ولما علمتْ أُمُّه بإسلامه، وهي على الشِّركِ، قالت له: يا سعدُ بلغني أنكَ صبوتَ!
فواللّهِ لا يُظلني بيتٍ من الشّمس والرِّيح،
ولا آكلُ ولا أشرب، حتى تكفر بمحمدٍ،
وترجعَ إلى ما كنتَ عليه من دين قريشٍ،
فرفضَ سعدٌ ذلكَ، ولم يأبه بتهديدها،
فبقيتْ ثلاثة أيام لا تأكل ولا تشربُ ولا تستظلُّ،
حتى غُشيَ عليها!
فقام ابنٌ لها يُقال له عمارة: فسقاها، وأطعمها، وأظلَّها،
وجعلتْ أمُّ سعدٍ تدعو على سعدٍ،
فأتى سعدٌ إلى النبيِّ ﷺ وشكا إليه ذلك،
فأنزل اللّه تعالى قوله في كتابه الكريم:
﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

الدَّرسُ الأوّل:

لو لم يكن للصَّحابة من معارك غير تلك المعارك العاطفيةِّ،

التي خاضوها في مواجهة أهاليهم لكفاهم!
فتخيّلْ نفسكَ مكان سعد بن أبي وقاصٍ،
وقد أقسمت أمَّكَ ألا تأكلَ ولا تشربَ ولا تستظلّ حتى تكفر!
تخيَّلْ تلك اللحظة ما أقساها وقد خطر لك،
أنَّ أمك قد تموت بسبب فعلها هذا،
فلا أنتَ بتاركٍ دينك لأجل أحدٍ،
ولا أنتَ تستطيع بعدها أن تواجه قلبكَ،
وقد ماتت أمُّكَ بسببك ثم هي فوق كل هذا في النَّار!
وتخيَّلْ نفسكَ مكان مصعب بن عمير،
وأمكَ هي خُناس بنت مالك التي من قوة شخصيَّتها يهابُها الرِّجال!
وهي على دين قريش حتى العظم لا تنزاح قيد أُنملة،
وأنتَ ابنها الوسيمُ المدلَّلُ التي تتقبل منك أي شيءٍ،
إلا أن تفارقَ دينها إلى دين الإسلام،
ويقذفُ الله الحقَّ في قلبكَ وتحين تلك اللحظة الحاسمة،
لحظة المواجهة بين المُدلَّلِ البار وبين الأمِّ الهادرة كالرَّعد،
لقد همَّتْ أن تصفعه أمام الناس ولكنها تمالكت نفسها،
ثم ذهبتْ به وقيَّدته في زاويةٍ من زوايا البيت،
فلا تفكُّه إلا ليأكل ويشرب ويقضي حاجته ثم توثقه من جديد،
تخيَّلْ كم هو صعب أن يغدو المرءُ أسيراً في بيته!
تخيَّلْ تلك اللحظة في غزوة بدرٍ،
أبو حذيفة بن عتبة في صفوف المسلمين وأبوه وأخوه في صفوف المشركين،

تخيَّله يرى أباه وأخاه ينزلان إلى المبارزة،
تخيَّلْ نفسكَ مكانه وأخبرني أين قلبكَ وقتها؟!
مع أبيكَ الذي جاء لقتال الرجل الذي أخرجكَ من الضَّلالة إلى الهدى،
ومع أخيك شقيق روحك ورفيق صباك،
أم مع أصحابك وإخوتك في هذا الدِّين وقد ربطتكم العقيدة في رباطها المُقدَّس،
أخبرني عن مشاعركَ وأنتَ لا تدري أيّهما تحتملُ،
أن يقتلَ أبوكَ رجلاً مسلماً فيحمل يوم القيامة إثم دمه،
أم يُقتل مشركاً وأنتَ تعلمُ أنه ذاهب إلى النّار؟!
هنا كانت معاركهم الكُبرى لقد اُمتحنوا في قلوبهم!

الدَّرسُ الثّاني:

يوم فتح مكّة ذهبَ أبو بكر إلى بيته،
وأتى بأبيه أبي قُحافة الطَّاعن في السِّن الذي لا تكاد تحمله قدماه،
ولم يكُن قد أسلمَ بعد، رغبةً أن يدعو له النبيُّ ﷺ،
فلما رآه النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال لأبي بكر:
هلَّا تركتَ الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه؟!
فقال أبو بكر: يا رسول الله هو أحقُّ أن يمشيَ إليكَ من أن تمشيَ أنتَ إليه!
فأجلسَهُ النبيُّ ﷺ بين يديه،

ومسحَ على صدره، وقال له: أَسْلِمْ!
فأسلم أبو قُحافة، وبكى أبو بكر!
الرَّجلُ الذي أسلم على يديه كبار الصَّحابة، أكرمَه اللّه بإسلامِ أبيه،
والجزاءُ من جنس العمل!
وانظُرْ لأدبِ النبيِّ صلَّى اللّه عليه وسلَّم لم يهُن عليه أن يُؤتى بأبي قُحافة لِكِبَرِ سِنه،
ويُخبرُ أنّه كان على استعدادٍ أن يذهبَ هو إليه بنفسه!
وانُظُرْ لشفقة أبي بكرٍ على أبيه،إنه لا يكاد يطيق الدّنيا وأبوه على الشّرك،
كيف يُشيّعُ المرءُ أباه إلى النّار إن هو ماتَ ولم يُسلم،
فاهتمَّ بدين أبويكَ ففيه مجامع البّر كلّه،
لا يهدأ لكَ بالٌ حتى يستقيما على الصَّلاة والصِّيام،
ولا ترضَ أن يموتَ أحدُهما دون أن يحجَّ ولو أكلت الخبزَ الجاف!
فإن لم تستطع فلا يُكلف اللّه نفساً إلا وسعها،
ويكفيك أن يرى اللّه صدقَ السّعيّ وقبلَه صدق النّية!

الدّرسُ الثّالث:

يُحدِّثنا أبو هريرة عن قصة إسلام أمه فيقول:
كنتُ أدعو أُمِّي إلى الإسلام وهي مُشْرِكَةٌ،
فدعوتها يوماً فَأَسْمَعَتْنِي في رسول اللّه ﷺ ما أكره،

فأتيتُ رسول اللّه ﷺ وأنا أبكي، وقلتُ:
يا رسول اللّه، إني قد كنت أَدْعُو أُمِّي إلى الإسلام فَتَأْبَى عَلَيَّ،
فدعوتها اليوم فَأَسْمَعَتْنِي فيكَ ما أكره،
فَادْعُ اللّه أن يهديَ أُمَّ أبي هريرة،
فقال رسول اللّه ﷺ: اللهم اهْدِ أُمَّ أبي هريرة.
فخرجتُ مُسْتَبْشِراً بدعوة نبي اللّه ﷺ،
فلما جئت فَصِرْتُ إلى الباب، فإذا هو مشقوق،
فَسَمِعَتْ أُمِّي دعسَ قَدَمَيَّ، فقالت: مَكَانَكَ يا أبا هريرة،
وَسَمِعْتُ خَضْخَضَةَ الماء!
فَاغْتَسَلَتْ، وَلَبِسَتْ دِرْعَهَا، وَعَجِلَتْ عَنْ خِمَارِهَا،
فَفَتَحَتِ الباب ثم قالت: يا أبا هريرة إني أشهد أن لا إله
إلا اللّه وأشهد أن محمداً رسول اللّه.
فرجعتُ إلى رسول اللّه ﷺ، فأتيته وأنا أبكي من الفرح،
وقلت: يا رسول اللّه، أَبْشِرْ، قد استجاب اللّه دعوتك،
وهدى أُمَّ أبي هريرة!
فقال النبيُّ ﷺ: أخيراً.
ثمَّ قلت: يا رسول اللّه، ادْعُ اللّه أن يُحَبِّبَنِي أنا وأمي إلى عِبَادِهِ
المؤمنين وَيُحَبِّبَهُم إلينا،
فقال رسول اللّه ﷺ: اللَّهم حَبِّبْ عُبَيْدَكَ هذا وَأُمَّهُ إلى عبادك
المؤمنين،
وَحَبِّبْ إِلَيْهِمُ المُؤْمِنِينَ!
فما خُلِقَ مُؤْمِنٌ يَسْمَعُ بي ولا يراني إلاَّ أَحَبَّنِي!
يا للبِرِّ يا أبا هُريرة، يا للبَرِّ،
لم يهدأ له بال وأمه على غير الإسلام،

يدعوها بينه وبينها، ويدعو لها وحده،
فلما غلبته على أمره استعانَ عليها بالمبارك الذي يجلبُ القلوب بالدَّعوات!
فخُذْ بأيدي أبويكَ إلى الجنّة ولو كلّفكَ الأمر أن تكون ممسحة عند قدميهما!

الدَّرسُ الرّابع:

البرُّ حقُّ الأبوين على الأولاد على أية حالٍ كانا!
ولو كان شيءٌ يُسقط واجب البرِّ من الأبناء للآباء،
لكان الشِّرك وهو أعظم ذنبٍ وأفظعُ حالٍ،
ولكن المسلم مأمورٌ ببر والديه ولو كانا مشركين،
جاءت أمُّ أسماء إلى النبيِّ ﷺ تسأله:
قدِمتْ عليَّ أمي وهي راغبة، أفأصِلُ أمي؟
فقال لها: نعم، صِلي أُمَّكِ!
ولكن هناك فرقٌ شاسع بين البرِّ وبين الطاعة العمياء،
فلو أمرَ الأبوان ابنهما بمعصيةٍ فلا طاعة لهما،
وطاعتهما في المعصية ليس براً،
بل هو إساءة لهما لجهة تحميلهما ذنبٌ اقترفه هو،
وإساءة للنفس المأمورة بحملها على طاعة الله،
وإنما البرّ في المعاملة، ولين الجانب، وحُسن الخُلق،
ولو كان يلقى منهما أذىً وإعراضاً،
أما في الحلال والحرام فالله قبل النَّاس!

28

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾

بعضُ العتبِ لا طائلَ منه،
لأنَّ النَّاسَ يُدركُون جيّداً ما يفعلُون،
وبعضُ المعاركِ، الفوزُ فيها بعدم خوضِها أساساً،
ليس كلُّ النَّاسِ يستحِقُّون أن يكُونُوا خصُوماً،
عمرُكَ أثمن من أن تقضيه في معارِك جانبيّةٍ تافهةٍ،
وأعصابُكَ أغلى من أن تُتلفها في نزالاتٍ وضيعةٍ،
وقلبُكَ أعزُّ من أن يتّسِخَ بلوثة البغضاء،
ترَفَّعْ عن الوضيع وإلا أنزلكَ إلى مستواه،
وتغافل عن الكريم لأنه سيُقدِّرُها لكَ،
وفي نهاية الأمر الطريقُ واحدة:
ليس كلُّ ما يُعرفُ يُقال!

29

بلغَ النّبيُّ ﷺ أن بني المصطلق يجتمعون لحربه،
فخرجَ إليهم حتى لقيهم على ماءٍ من مياههم يقال له المريسيع،
فقاتلهم وانتصرَ عليهم،
والماء عند العين يومئذ قليل، فتزاحمَ النّاسُ عليه.
وكان مع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له
جهجاه بن سعيد،
فازدحم جهجاه وسنان الجهني من بني عوف بن خزرج على
الماء فاقتتلا،
فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار،
وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين،
فأعانَ جهجاهاً رجلٌ من فقراء المهاجرين اسمه جُعَال!
فقام عبد اللّه بن أبيّ بن سلول وشتمَ جُعالاً هذا!
فردَّ جُعالٌ على عبد اللّه بعض شتيمته!
وقامَ جماعةٌ من المهاجرين والأنصار فحالوا بين الفريقين
وأنهوا الشّجار!
وغضب ابن سلولٍ وعنده رهطٌ من قومه فيهم زيد بن أرقم،
وكان يومذاكَ حديث السّنِّ،
فقال ابن سلولٍ: قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، واللّه ما مثلنا
ومثلهم،
إلا كما قال القائل: سمِّن كلبك يأكلك!
أما واللّه لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذلّ،

يعني بالأعزّ نفسه، وبالأذلّ رسول اللّه ﷺ!
ثم أقبلَ على من حضره من قومه فقال: هذا ما جعلتم بأنفسكم،
أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم،
أما واللّه لو أمسكتم عن جعال وذويه فضل الطعام،
لم يركبوا رقابكم ولأوشكوا أن يتحولوا من بلادكم ويلحقوا بعشائرهم ومواليهم.
فقال زيد بن أرقم: أنت واللّه الذليل القليل المبغض في قومك،
ومحمد ﷺ في عزٍّ من الرحمن ومودةٍ من المسلمين،
واللّه لا أحبك بعد كلامك هذا!
فقال ابنُ سلولٍ لزيدٍ: اسكُتْ، فإنما كنت ألعب!
فمشى زيد بن أرقم إلى رسول اللّه ﷺ وذلك بعد فراغه من الغزو فأخبره الخبر،
فأمر رسول اللّه ﷺ بالرحيل،
وأرسل إلى ابن سلولٍ فأتاه فقال: ما هذا الذي بلغني عنك؟
فقال ابن سلول: والذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك قط، وإن زيداً لكاذب!
وقال من حضر من الأنصار: يا رسول اللّه، شيخنا وكبيرنا،
لا نصدق عليه بكلام غلامٍ من غلمان الأنصار،
عسى أن يكون هذا الغلام وَهِمَ في حديثه،
فعذره رسول اللّه ﷺ، وفَشَتْ الملامة من الأنصار لزيد!
وسار رسول اللّه ﷺ، فلقيه أُسيد بن حُضير، فحياه بتحية النبوة،
ثم قال: يا رسول اللّه لقد رحتَ في ساعةٍ منكرةٍ ما كنت تروح فيها،

فقال له رسول اللّه ﷺ: أوَمَا بلغك ما قال صاحبكم؟
زعمَ أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل!
فقال أسيد: فأنت واللّه يا رسول اللّه تخرجه إن شئتَ، هو واللّه الذليل وأنت العزيز،
ثم قال: يا رسول اللّه ارفقْ به، فواللّه لقد جاء اللّه بك،
وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوِّجوه، وإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً.
وبلغ عبد اللّه بن عبد اللّه بن أبيّ بن سلول ما كان من أمر أبيه،
فأتى رسول اللّه ﷺ فقال: يا رسول اللّه،
إنه قد بلغني أنك تريد قتل أبي، فإن كنت لا بد فاعلاً فمرني به،
فأنا أحمل إليك رأسه، فواللّه لقد علمت الخزرج ما كان بها رجل أبرّ بوالديه مني،
وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله،
فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل أبي أن يمشي في الناس فأقتله،
فأقتل مؤمناً بكافرٍ، فأدخل النار،
فقال له النبيُّ ﷺ: بل ترفق به وتحسن صحبته ما بقي معنا!
فلما وصل رسول اللّه ﷺ المدينة، جلسَ زيد بن أرقم في البيت لما به من الهم والحياء،
إذ كذّبه ابن سلول فيما قال، ولم يُصدقه النّاس!
فنزلت سورة «المنافقون» في تصديق زيد وتكذيب ابن سلول،
فأخذ رسول اللّه ﷺ بأُذُن زيد بن أرقم ثم قال له:

يا غلام صدق فوك ووعت أذناك ووعى قلبك،
وقد أنزل اللّه في ما قلت قرآناً!
وكان ابنُ سلولٍ قريباً من المدينة، فلما أراد أن يدخلها جاءه
ابنه عبد اللّه،
فسدَّ عليه طريق الدخول!
فقال ابن سلولٍ لابنه: ما لكَ ويلك؟
فقال له ابنه: واللّه لا تدخلها إلا بإذن رسول اللّه ولتعلمن اليوم
من الأعز ومن الأذل!
فشكا ابنُ سلول ابنه إلى رسول اللّه ﷺ،
فأرسل إليه أن خلِّ عنه يدخل!
فقال: أما إذا جاء أمر رسول اللّه ﷺ فنعم!
فدخلَ، ثمّ قيل له: نزلتْ فيك آياتٌ شداد،
فاذهب إلى رسول اللّه ﷺ يستغفر لك،
فلوى رأسه ثم قال: أمرتموني أن أؤمن فقد آمنت،
وأمرتموني أن أعطي زكاة مالي فقد أعطيت،
فما بقي إلا أن أسجد لمحمد!
فأنزل اللّه تعالى قوله:﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْاْ رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾
ثم ما لبثَ ابنُ سلولٍ بعدها أياماً حتى اشتكى من مرضٍ،
ومات منه!

الدَّرسُ الأوّل:

الخِلافاتُ تقعُ دوماً بين النّاس،
تقعُ بين الفاجر والفاجر، وبين المؤمن والفاجر، وبين المؤمن والمؤمن!
ولكن المؤمنين دوناً عن غيرهم يُسارعون في العودة إلى دينهم وأخلاقهم،
أما الفاجرون فيتمادون ويجعلون من كلّ خلافٍ رحى حربٍ يديرونها أبد الدّهر،
حتى تكاد تطحنهم وتطحن معهم النّاس!
النُبلاءُ يقعُ بينهم الخلاف في وجهات النظر،
وقد حدثتْ خلافاتٌ كثيرة بين الصّحابة من شتى الأنواع وفي كل المجالات!
وليس الذي يدعو للعجب وقوع الخلافات بينهم، فهم بشر!
ولكن العجب هي تلك الملائكيّة في أخلاقهم،
التي ما تلبثُ أن تنتصر على نزعةِ الطّين فيهم!
ولو نجا من الخلافِ أحد أن يقعَ فيه لنجا منه سيدا النُبلاء أبو بكر وعُمر،
ولكن شتَّان بين الذين يَقلبون الصفحة سريعاً،
وبين الذين يَجعلون كل خلاف شرارة لحربٍ مستعرة!
جرتْ بين أبي بكرٍ وعُمر محاورة، قامَ منها عُمر غاضباً،
فلحقه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعلْ،
حتى أنه أغلقَ بابه في وجهه!

فأقبل أبو بكر إلى النبيِّ ﷺ يُرى عليه أثر ما كان بينه وبين عُمر،
فلما رآه النبيُّ ﷺ قال: أما صاحبكم فقد غامرَ أي خاصمَ!
ثم سلَّمَ أبو بكر، وأخبرَ النبيَّ ﷺ بالذي كان بينه وبين عُمر،
وكيف طلب منه أن يسامحَه فرفضَ.
فقال له النبيُّ ﷺ: يغفرُ اللّه لكَ يا أبا بكر، يُرددها ثلاث مرات!
ثم إن عمر ندمَ على ما كان منه، فقصدَ بيت أبي بكر فلم يجدْهُ،
فأتى النبيَّ ﷺ، فسلَّمَ وجلسَ، ووجه النبيِّ ﷺ تبدوعليه أمارات الغضب،
حتى أشفقَ أبو بكر أن يقول النبيُّ ﷺ لعُمرَ شيئاً يُحزنه،
فجثا على رُكبتيه، وقال: يا رسول اللّه واللّهِ أنا كنتُ أظلمَ، أي الحق كان مع عُمر!
فقال النبيُّ ﷺ: إنَّ اللّهَ بعثني إليكم فقُلْتُم كذبْتَ وقال أبو بكر صدقَ، وواساني بنفسِه ومالِه،
فهل أنتم تاركو لي صاحبي، فهل أنتم تاركو لي صاحبي؟!
النُبلاءُ عندما تذهبُ عنهم فورة الغضب يُسرعون على الفور لإصلاح المواقف،
وانظُرْ لنُبل عُمر حين هدأ،
ذهبَ قاصداً بيت أبي بكر ليُصلح ما كان بينه وبين صاحبه،
لم ينتظرْ أن تجمعَهما الصُّدفة، ولا أن يتدخلَ بينهما الناس،
حتى الخُصومة لها أدب، ومن لا يملك أدب الخصومة فلا يُؤمن جانبه،
فكونوا نُبلاء إذا تخاصمتم!
ما أشبه موقف عُمر بموقف موسى عليه السلام الذي حين غضبَ ألقى الألواح،

فلما ذهبَ عنه الغضب أخذها!
وٱنظُرْ لأدبِ أبي بكرٍ ونُبلِه، فحين رأى النبيَّ ﷺ في صفِّه لم يهُنْ
عنده عُمر،
وسارعَ للاعتراف أنه هو الذي أخطأ!
كُنْ نبيلاً واعترفْ بخطئك، إبليسُ وآدم عليه السلام عصيا اللّٰه،
الأول رفضَ السجود، والثاني أكل من الشجرة المُحرمة،
وما زال إبليسُ يُكابر حتى طُرِدَ من رحمة اللّٰه،
وما زال آدم يستغفر حتى صار نبياً!
وقد تقعُ الخلافاتُ بين النبلاء وهم يخوضون غمار حياتهم
اليومية،
هذه الدنيا مليئة بالمواقف، والإنسان فيها عُرضة لموقف!
كان للعبّاس بن عبد المطلب ميزاب على طريق عمر بن الخطاب،
فلبس عُمر ثيابه يوم الجمعة، ومضى إلى المسجد ليخطب بالناس،
وكان أهل العباس قد ذبحوا فرخين على سطح الدار،
وصبوا الماء لتنظيف الدم لحظة مرور عمر دون أن ينتبهوا،
فأصاب عمر شيءٌ من الماء والدم، فأمرَ بقلعِ الميزاب من
مكانه!
ثمَّ رجع إلى بيته مسرعاً، فبدَّل ثيابه، ولبس غيرها،
وعاد إلى المسجد، فخطبَ بالناس وصلى بهم، فلما انتهى،
جاءه العباس وقال له: واللّٰهِ إنَّ هذا الميزاب وضعه النبيُّ ﷺ
بيده في
هذا الموضع!
فقال له عمر: أقسمتُ عليكَ إلا صعدتَ على ظهري حتى تضعه،

في الموضع الذي وضعه فيه النبي ﷺ.
ففعلَ العبَّاس ذلك!
نزعَ عمر بن الخطاب ميزاب العبَّاس لأنه رأى فيه ضرراً،
فكما تسببَ بتلويث ثيابه، قد يتسبب بتلويث ثياب غيره،
وهو الخليفة وواجبه دفع الضرر عن الرعية،
فلما أخبره العباس أن الميزاب قد وضعه النبي ﷺ بيده الشريفة في هذا الموضع،
أبى إلا أن يحملَ العباس على ظهره ليقوم بوضعه من جديد،
أي حُبٍّ هذا، وأي رجوع إلى الحق، وأيُّ تواضع، وأي امتثال؟!
ولأنَّ المال عجلةُ الحياة، ومنه وفيه معاشُ الناس، وصلاح شأنهم،
وهم قبل ذلك مفطورون على حُبّه، ميّالون إلى جمعه،
لم يكن من غرابةٍ أن تكون جُلَّ خلافاتِ النّاس تدور حوله،
وأي هي بشكلٍ أو بآخر مرتبطةٌ به!
سمعَ النبيُّ ﷺ شِجار خصمين بالباب قد ارتفعتْ أصواتها،
وإذا أحدهما يطلب من صاحبه أن يخفف عنه الدَّين الذي أقرضه إياه شيئاً،
وأن يترفقَ به في السداد، ويطيل له المدة.
فقال له صاحبه: واللّهِ لا أفعل!
فخرج عليهما النبيُّ ﷺ فقال: أين المتآلي على اللّه لا يفعل المعروف؟
فقال: أنا يا رسول اللّه، وله أي ذلكَ أحبَّ،
أي فليختَرْ لنفسه أن أُخفف عنه من الدَّين،

أو أترفَّقَ به في السَّداد وأطيل له المدة!
وليستْ العبرة في الحديث أن نقف ضد صاحب الحق،
ولا أن نشجِّع الناس على عدم أداء ديونهم ودفع ما عليهم من مستحقات،
وإنما العبرة أن يتعامل الناس بأخلاق ورحمة قبل أن يتعاملوا بالحق والواجب!
وما أنبل الصحابيَّ في القصّة إذا أنّه أوّل ما ذُكّر بالمعروف عَمِلَ به،
وعلى هذا كان دأبُ الصحابة، تعامل بمعروفٍ في كل أحوالهم!
ولمّا كان العملُ فيه صلاح النّاس، وعمارة دنياهم، فهم يعملون!
وما منّا من أحدٍ إلا هو أحدُ رجلين: إما ربُّ عملٍ أو أجير!
بصورةٍ مباشـرةٍ للأُجرة، أو بصورتها المدنيّة الحديثة، كالموظف في الشـركة،
ووقوع الخلافات، وحدوث الغضب، وإنزال العقوبة،
شيء ملازمٌ للعمل لا فِكاكَ منه حيثما وُجدَ عملٌ وعُمّال،
غير أن المؤمن يُراقب اللّه في النّاس، والفاجر لا يهمه إلا جيبـه ومصلحتـه!
يقول أبو مسعود البدري: كنتُ أضرِبُ غلاماً لي بالسوط،
فسمعتُ صوتاً خلفي: اِعلَمْ أبا مسعود!
فلم أفهم الصوت من الغضب!
فلما دنا مني فإذا هو رسول اللّه ﷺ، فألقيتُ السَّوط من يدي!
فقال لي: اِعلَمْ أبا مسعود أنَّ اللّه أقدرَ عليكَ منكَ على هذا الغلام!

فقلتُ: واللّهِ لا أضربُ مملوكاً بعده أبداً، وهو حُرٌّ لوجه اللّه
فقال: أما لو لم تفعل لمسَّتكَ النار!
ثمّة أشياء لا يُحاسِبُ عليها القانون،
ولا تُعتبرُ في عُرف المحاكم لا جرائمَ ولا جُنَحاً،
ولكن اللّه يرى، والملائكة تكتبُ، والمحكمة غداً،
حين تُنشرُ الكتب التي لا تُغادر صغيرة ولا كبيرة!
وانُظر لنُبل أبي مسعود، فهو وإن أخرجه غضبه عن نُبله أول الأمر،
فإنه سرعان ما عادَ إلى خُلقه الرحيم،
فهو لم يرفع العقوبة فقط عن مملوكه، وإنما أعتقه أيضاً،
ولا يمكن لسيّد أن يفعل إحساناً مع مملوكه أكبر من أن يهبه حُرّيته،
وقد أبى أبو مسعودٍ إلا أن يُكفّر عن خطئه بأبهى صورةٍ وأحلاها!
وقد لا تحدثُ الخلافاتُ بسبب مالٍ، وأعمالٍ، وكسبٍ وتجارة،
وإنما قد تحدثُ حدوثاً عابراً ونحن نجتازُ طرقات الحياة!
اختلفَ بلال بن أبي رباح وأبو ذرٍّ حول أمرٍ من أمور الدنيا،
فغضب أبو ذرٍّ من بلال، وقال له: يا ابنَ السوداء!
فجاء بلال إلى النبيِّ صلَّى اللّه عليه وسلَّم وأخبره بما حدث بينه وبين صاحبه،
فاستدعى النبيُّ صلَّى اللّه عليه وسلَّم أبا ذرٍّ على جناح السُّرعة،
وقال له: يا أبا ذر أعيَّرْتَه بأمه؟! إنكَ امرؤٌ فيكَ جاهلية!
فوضعَ أبو ذرٍّ خدّه على التراب، وأقسم أن لا يرفعه حتى يطأه بلال!

من نُبل أبي ذرٍّ أنه كفَّرَ عن خطئه بفعلٍ من جنس هذا الخطأ!
فالخطأُ استعلاءٌ وفخرٌ، ووضع الخدِّ على التّراب إذلالٌ!
فكفِّرْ عن خطاياك بما هو من جنس خطئكَ،
فإن كان حرماناً من المال فجُد فيه،
وإن كان سلباً لحقٍّ فأعِدْه، لا اعتذار بلا ارجاع الحقوق،
وكل الاعتذارات المنمقة لا تُفيد شيئاً ما لم تُرجِع الحقَّ إلى أهله!
وإن كان الخطأ جرحاً في الكرامة فسارِعْ بترميمها، فإنَّ النّاس كرامات!

الدَّرسُ الثّاني:

العاقل لا يتبع نمطاً واحداً في كُلَّ تصرفاته،
وإنّما ينظرُ في الأمور فيختار أنسب الخطوات لها،
الرِّفق في كل المواقف قد يستحيلُ ضعفاً،
والحزم في كل المواقف قد يصبحُ ظلماً وقسوة،
وقد كان النبيُّ ﷺ أحكم الناس وأعقلهم،
يُعطي الموقف ما يُناسبه، ويتحرك وفق الواقع والمستجدات،
فهو هنا حين علِمَ أنَّ بني المصطلق يجمعون لحربه، قام هو بمهاجمتهم أولاً!
والهجومُ الاستباقيّ من أنجح خُطط الحرب، وأكثرها فاعلية،
ولكن هذا مرهون بحساب القدرات وتقدير المواقف،

ففي غزوة الأحزاب لم يخرج النبيُّ ﷺ لقتال العرب،
لأنَّ العربَ رموه يوماً من قوس واحدة،
وهم يومئذٍ كثيرون، والمسلمون مقارنةً بهم قِلَّة،
على عكس الحالة التي كان عليها مع بني المصطلق،
فأخذ في غزوة الأحزاب برأي سلمان الفارسيِّ بحفر الخندق!
قدَّرَ الموقف، ورأى أن الدِّفاع أفضل من الهجوم!
لأنَّ هناكَ فرقاً شاسعاً بين الشجاعة والتهور،
والنبيُّ ﷺ كان أشجع الناس، ولكن هذه الشجاعة كانت مُغلفة بعقلٍ وحكمةٍ!

الدَّرسُ الثّالث:

كلُّ من أخفى شيئاً في قلبه أظهرتْهُ له المواقف،
لا أحد يستطيعُ أن يرتديَ قناعه إلى الأبد!
ولا بُدَّ أن تأتي لحظات تميطُ اللثام،
سيختفي قناع الحملِ الوديع ويظهرُ وجه الذِّئبِ الحقيقيّ،
وهكذا كان ابن سلول زعيم المنافقين في المدينة، كان يُظهر الإيمان ويُبطِنُ الكفر،
كان مجبراً أن يسير مع التَّيار،
نهر الإسلام الهادر حين صار له دولة،
لم يكن بإمكان أيِّ شيءٍ أن يقف في وجهه،
وكان ابن سلولٍ بين أمرين لا ثالث لهما:

إما أن يُظهِرَ عداءه للإسلام فيجرفه نهره الهادر،
أو أن يلبسَ قناع النِّفاق حفاظاً على مكانته ومركزه،
وقد اختار الثّانية ولكن الأقنعة تنفلِتُ،
وجه الثّعلب لا بُدَّ أن يطلَّ من خلال وجه الحَمل!
وعندما وقع الخلاف في غزوة بني المصطلق، أخرجَ ابن سلولٍ كلّ ما كان في قلبه!

الدَّرسُ الرَّابع:

لا قيمة لمعروفٍ قال فاعله: أنا فعلته!
وقالت العربُ قديماً: المنُّ مِمحاة الإحسان!
وسُئِلَ حكيم: هل هناكَ أقبح من البخل؟
قال: نعم، الكريم إذا تحدَّث بإحسانه إلى من أحسن إليه!
وأبلغ من كل هذا قول ربنا جلَّ في علاه:
﴿ لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾
كُلُّ صدقةٍ تجرحُ كرامة إنسان الحرمان خيرٌ منها،
وكلُّ معروفٍ مصحوب بالمنِّ والأذى فتركه أفضل من فعله،
إمّا أن تفعلَ لوجه اللّه تعالى أو لا تفعل،
ثم إذا فعلتَ لوجه اللّه أولاً، فلا تُبطلْ هذا الفعل بالمنِّ ثانياً،
فكم من أذىً أبطلَ أجراً قد كُتب!

الدَّرسُ الخامس:

نقلُ الخبر إلى المسؤول من باب التحذير ليس نميمةً،
لأنَّ مصلحة الجماعة مُقدَّمة على مصلحة الفرد،
خصوصاً إنّ هذا الفرد مصلحته بإهلاك الجماعة،
ولكن هذا مشروط بأن لا تكون قادراً على إصلاح الأمر أولاً،
مشروط أوّلاً وأخيراً بأن لا يكون حظّ لنفسك فيه،
ومصلحة مباشرة بارتفاعك إذا سقط غيرك،
مكيدة الرَّشوة التي رأيتها من زميل في العمل،
حاول أن توقفها أوّلاً وأن تنصح وتترفق،
فإن وصلت الأمور إلى طريقٍ مسدود فأخبرْ عنها،
ولا تكُنْ شيطاناً أخرس يرى الحقَّ فيسكت عنه،
ويرى الباطل فيجاريه وإن لم يشترك به،
وغُشُّ المقاول في الجسور والطرقات العامة لا يجوز السكوت عليه،
فهلاك مقاول فاسد أفضل من هلاك النَّاس،
ثمة مواقف على المرء أن يكون فيها حكيماً،
وضع الرحمة في غير موضعها حمقٌ وغباء،
وقد أحسن زيد بن أرقم إذ رفعَ الأمر إلى النبيِّ ﷺ،
على القائد أن يعرفَ ما يُحاك وراء ظهره،
لأنَّ وليّ الأمر ليس بشخصه إنما بما يُمثِّل،
وفي سلامته وصلاح أمره صلاح أمر المسلمين،

ولكن احذرْ أن يكون هذا البلاغ لفتنة، وتزلّف، ونوال حظوة عند السُّلطان،
واحذَرْ قبلها أن يكون هذا في أمور صغيرة تجعلها كبيرة،
أو في خطأ عابرٍ لا يترتَّبُ عليه فساد المجتمع، وأمن النَّاس!
كانَ رجاء بن حيوة جالساً مع تلاميذه في المسجد،
فتذاكروا نِعم اللّه، وأنه ما أحد يقومُ بشُكرِها من الناس.
فسمعهم رجلٌ على رأسه كساء فقال: ولا أمير المؤمنين؟
فقالَ له رجاء: ما شأن أمير المؤمنين، إنَّما هو رجلٌ من النَّاس!
فالتفتوا عنه فلم يجدوه، فقالَ رجاء لمن معه:
تعلمون ما أعلمُ من جُرأةِ الخليفةِ على الدم،
فإن دعاكم واستحلفكم، فأنْكِروا!
فما مضى وقتٌ طويلٌ إلا والشرطة تأخذُ الجميعَ إلى الخليفة،
وصاحبُ الكساء عنده!
فقالَ له الخليفة: يا رجاء ما حسبْتُكَ تقعُ فيَّ!
فقالَ له رجاء: ما كان هذا يا أمير المؤمنين.
فقالَ له الخليفة: أتحلِفُ أنه ما كان؟
فقالَ له رجاء: واللّهِ ما كان!
فأمرَ الخليفةُ بجلدِ صاحبِ الكساءِ سبعين سوطاً،
فخرجَ من عنده يتلوَّى من الألم، فلقيَ رجاءً بالباب،
فقالَ له: أتكذبُ وأنتَ فقيه المُسلمين؟
فقالَ له رجاء: إنَّ سبعين سوطاً في ظهركَ خير من سفكِ دماءِ المُسلمين بالسيف!

وكانَ رجاء إذا جلسَ بعدها للحديثِ في المسـجدِ يقول: احذروا صاحب الكسـاء!

كانَ عُمر بن الخطاب يقول: ليس العاقل من عرفَ الخيرَ من الشر،

وإنَّما من عرفَ خير الشَّرَّين!

الحياةُ أحياناً لا تضعنا في موقفين أبيض وأسود فقط،

وعلينا أن نختار، لكان الخيار وقتذاكَ ميسوراً هيناً!

ولكنها للأسف تضعُنا في مواقف رمادية تحتاجُ إلى عقل،

وإلى تسديدٍ ومُقاربة، وإلى حسابِ العواقب، واختيارِ أقلها ضرراً!

كانَ رجاءُ بن حيوة يعلمُ أنه حلفَ على غيرِ الحق،

ولكنها الطريقة الوحيدة ليحفظ بها دمه ودم من كانَ معه،

فأن يُجلدَ الواشي غير مأسوف عليه، أقل ضرراً من أن يُقتلَ الأبرياء!

في الخلافاتِ بين الناس لا تُقال الحقيقة دوماً،

لأنها ربما زادتْ من عمقِ الخلاف، وأدَّتْ إلى هجران وفِتنة،

الأمورُ أحياناً تحتاجُ إلى دبلوماسيةٍ وحكمة، وإلى كلامٍ حمَّالِ أَوْجُه،

وهذا ليس من الكذبِ وإنَّما من عمقِ الفهم، وحسنِ التدبير،

وحسابِ العواقب، ومن يُؤتى الحكمةَ فقد أُوتيَ خيراً كثيراً!

الدَّرسُ السّادس:

البعض سيكرهونكَ لأسبابٍ تعنيهم ولا تعينك!
وإنَّ من حقائق الحياة المُرَّة التي عليكَ أن تعرفها،
أنَّ البعض سيكرهونك لمميزاتك لا لعيوبك!
يوسف عليه السّلام أُلقي في الجُبِّ لأنَّ أباه كان يُحبُّه!
وأُلقيَ في السِّجن لأنه كان وسيماً وعفيفاً!
وقد كره ابن سلولٍ النبيَّ ﷺ لمرضٍ في نفسه هو،
وإلا فإنَّ النبيَّ ﷺ تُحبُّه الحجارة والجمادات،
وقد حنَّ الجذع إليه، وأُحدٌ جبل يُحبُّنا ونحبُّه،
كان ابن سلولٍ على وشك أن يصبح ملكاً،
ثم جاءت الهجرة الشَّريفة فانهارتْ أحلامُه،
هذا الإسلام العظيم لم يكن موجَّهاً ضدَّ شخصٍ بعينه،
ولكنّه كان موجَّهاً ضدَّ نظام الجاهليّة كلَّه،
ولكن ابن سلولٍ لم يكن يرَ من المشهد إلا ما يتعلَّقُ به،
لهذا فلا تبحثْ في قلوب الكارهين عن سبب،
البعض سيعتقدُ أنكَ أخذتَ وظيفته،
والبعض سيعتقدُ أنك تزوجّتَ المرأة التي كان من المفترض أن يتزوجها،
وما هو إلا حقدٌ وسخطٌ وعدم رضى بقدر اللّه!

الدَّرسُ السّابع:

اللّٰهُ أولاً ثُمَّ الناس!

على العقيدة أن تتجذَّرَ في القلب تجذُّراً يهون معه كلّ شيءٍ وكل أَحد!

فلو كان الولاء للأرض ما تركَ النبيُّ ﷺ مكة،

ولو كان للعائلة ما تبرَّأ من أبي لهب،

ولو كان للقبيلة ما قاتلَ قريشاً،

ولكنها العقيدة أغلى من التراب ومن الدَّم!

وأُنظُرْ لعبد الله بن عبد الله بن أُبي بن سلول ما أعظمه، كان من أبرِّ الناس بأبويه، ولكنّه في المقابل لم يكن أحد في قلبه أكبر من الله!

عندما ظنَّ أن النبيَّ ﷺ قد أمرَ بقتل أبيه، تطوَّع هو ليقتله بنفسه!

لم يُرِدْ أن يفعل هذا أحدٌ غيره،

فيرى قاتل أبيه فتأخذه الحمية فينتقم ويقتل مسلماً بكافر!

وعندما عاد أبوه إلى المدينة منعه من دخولها،

وأشترط أن يأذن النبيُّ ﷺ بهذا،

لم يهُنْ النبيُّ ﷺ عنده وإن كانت الإهانة من أبيه!

نعم أُمرنا بالبرِّ، وصلة الرَّحم، والإحسان إلى الأهل والأقارب والجيران،

ولكن ليس على حساب العقيدة ودين الله،

ولا أحد أكبر من الحقِّ، والمؤمن يقفُ مع الحقِّ وإن جاء ممن يكره،

ويقفُ ضدَّ الباطل ولو جاء ممن يُحِبُّ!

30

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾

من حكمةِ اللّهِ تعالى أنه لا يختارُ لإجابةِ الدُّعاء أسرع الزّمن،
وإنّما أنسبُه لك!
كلُّ شيءٍ فاتكَ لم يكُنْ لكَ، ولم تكُنْ له،
كلُّ شخصٍ حسبتَه المناسب فلم تنلْهُ فليسَ مناسباً،
وكلُّ وظيفةٍ تطلعتْ إليها نفسُكَ فحُرِمْتَها،
كان كلُّ الخير ألا تأخذها!
نحن لا نرى المشهدَ إلا من زاويةٍ واحدةٍ،
زاويتنا نحن!
أمّا اللّه تعالى فيرى المشهد كاملاً!
وكم من عطاءٍ سبقه حرمانٌ
ولولا الجُبُّ ما كان يوسفُ عليه السّلام عزيز مصر،
ولولا الدُّموع على أبواب مكة ما كان الفتحُ!

31

كان أُبيُّ بن خلفٍ وعقبة بن أبي معيطٍ صديقين مُقرَّبَين،
وكان عُقبـة لا يرجـعُ مـن سـفرٍ إلا صنـعَ طعامـاً، ودعـا إليـه أشـراف قريـش.
وكان يُكثِرُ من مجالسة النبيِّ ﷺ،
فعادَ من سفره مرَّةً، وصنع طعاماً، ودعا النّاس،
ودعا النبيَّ ﷺ إلى طعامه،
فلما قدَّم الطعام، قال له النبيُّ ﷺ،
مـا أنـا بـآكلٍ مـن طعامـكَ حتـى تشـهد أن لا إلـه إلا اللّه، وأنـي رسـول اللّه!
فقال عُقبة: أشهدُ أن لا إله إلا اللّه، وأن محمداً رسول اللّه!
فأكل النبيُّ ﷺ من طعامه...
وكان أُبيُّ بن خلفٍ غائباً، فلما عادَ أُخبرَ بما كان،
فجاء إلى عقبةٍ وقال له: صبأتَ يا عُقبة؟
فقالَ: واللّهِ ما صبأتُ، ولكن دخلَ عليَّ رجل،
فأبى أن يأكل من طعامي حتى أشهدَ له، فشهدتُ له،
واستحييتُ أن يخرجَ من بيتي ولم يطعم، فشهدتُ له، فطَعِمَ!
فقال له أُبيُّ: لا أرضى عنكَ حتى تأتيه فتبصقَ في وجهه،
ففعلَ ذلكَ عُقبة أخزاه اللّه،
فقال له النبيُّ ﷺ: لا ألقاكَ خارج مكة إلا علوتُكَ بالسَّيف!
فأُخِذَ عُقبة يوم بدرٍ أسيراً وقُتِلَ عن دون الأسرى،
لما كان منه، وإبراراً لكلام النبيِّ ﷺ،

أما أُبيُّ بن خلفٍ فقتله النبيُّ ﷺ يوم أُحدٍ بالمبارزة!
وفي هذا أنزل اللّه تعالى قوله:
﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾

الدَّرسُ الأوّل:

الدُّنيا لا تلبثُ على حالٍ فلا تغتَرّ!
القويُّ لا يبقى قوياً إلى الأبد، والضعيف لا يبقى ضعيفاً إلى الأبد،
كل شيءٍ في هذه الدُّنيا يتوارثه النَّاس،
اسألْ نفسك أين هي الممالك التي حكمت الدُّنيا قديماً؟
ما بقي من الرُّومان غير آثارٍ دارسةٍ مُنتشرةٍ هنا وهناك!
وأين نار المجوس التي بقيتْ مضاءةً قروناً؟
أُطفئت أخيراً، وزال الأكاسرة وصارُوا صفحةً من التاريخ!
ما الذي بقيَ من دولة الفراعنة في مصر،
غير أهرامات وحجارة هي الدليل الوحيد على أنهم كانوا يوماً هنا؟
أين حضارة الأندلس العظيمة التي حكمت الدُّنيا،
ما الذي بقي منها غير آثار القوم هناك؟
فإذا كان هذا حال الدُّول والممالك فكيف هو حال النَّاس؟!
أين فرعون الذي كان يصرخ متبجحاً: أنا ربكم الأعلى؟

وأين النَّمرود الذي كان يدَّعي أنه يحيي ويميتُ؟
وأين قارون صاحب الذَّهب والأموال الطَّائلة والكنوز؟
وأين ذو القرنين الذي طاف الأرض من مشرقها إلى مغربها؟
وأين هارون الرشيد الذي كان يخاطب السَّحابة في السَّماءِ قائلاً:
أمطري حيث شئتِ فسيرجعُ إليَّ خراجُكِ؟
أين أبو بكرٍ، وعمر، وعثمان وعليٌّ؟
أين الأنبياء، والصَّالحون على مرِّ التاريخ؟
ذهبوا جميعاً وبقيت لهم أعمالهم عند اللّه تعالى!
سنوات قليلة هي التي كانت فاصلة،
بين الأذى الذي ناله النبيُّ ﷺ من أُبي بن خلف وعُقبة بن أبي معيط،
ثم انقلبت الحال وتغيرَّتْ موازين القوى،
قُتلا عقاباً عدلاً، وجزاءً مستحقاً،
ليدخل بعدها الذي كانوا يستضعفونه إلى مكة فاتحاً!
لو دامت المناصبُ لغيركَ لدامتْ لكَ، ولو دامت الأموالُ لغيركَ لدامتْ لكَ،
فتواضع، لا أحد يبقى على القمَّة، لا أحد!

الدَّرسُ الثَاني:

أُنظُرْ من تصاحِب، فإنَّ الصَّاحب ساحِب،
ولو أجلْتَ عينيك في سورة الكهف،

لاكتشفتَ أنَّ كلباً خلَّدَ اللّه تعالى ذكره في القرآن الكريم،
فقط ببركة صُحبة صالحةٍ مشى معها!
ثم أَعِد النظر في هذه القصة التي نتدارسها،
صاحب سوءٍ أردى صاحبَه وأمرَه بسوء الأخلاق فأطاعه،
فلا تُصاحِبْ إلا من يساعدكَ على أن تحفظ دينك،
إنَّ المرءَ لا يستغني عمّن يأخذ بيده إلى اللّه تعالى،
إذا نسيَ ذكّره، وإذا ذكرَ أعانه،
وإذا أخطأ أخذَ على يده وقال له أخطأتَ،
وليس بصاحبكَ من زيَّنَ لكَ أخطاءكَ،
وفي حلية الأولياء أنَّ عمر بن عبد العزيز قال لصاحبه:
إذا رأيتني ضللتُ الطريق، فخُذْ بمجامع ثيابي،
وهُزَّني هزّاً، وقُلّ لي: يا عمر اتقِ اللّه، فإنك ستموت!

الدَّرسُ الثَّالث:

إذا أردتَ أن تَعرفَ الصديق الصَّالح من الصَّديق السُّوء،
فانظُرْ أين تجعلك صحبته من اللّه عزَّ وجل،
فإن قرَّبكَ فهذا صديق صالح فتمَّسكْ به،
وإن باعدكَ فهذا صديق سُوءٍ ففارقه ولا تأسف!
ولصديق السُّوء علاماتٍ دنيوية يُعرف به هذه بعضها:
صديق السوء يُشكك بقدراتك، ويثبط من عزائمك،

ولا ينفكُّ يكسرُ مجاذيف إرادتك، ويرددُ على مسامعك أنك لا تستطيع،
وهذا في الحقيقة إنما يخشى أن تستطيع وتفعلها!
وصديق السُّوء في الغالب إنسان استغلاليّ،
يُشعركَ أن مساعدتكَ له واجب عليكَ،
فيستنزفكَ مادّياً وشعوريّاً كالطفيليِّ يعيشُ على حساب غيره،
ومتى لم تعد له عندكَ حاجة سيغادركَ إلى غيرك،
هذا لا يعني ألا تُساعد أصدقاءك مادّياً وتدعمهم معنوياًّ،
فبأيِّ شيءٍ تكون صديقاً إلا بهذا؟!
وإنّما القصدُ أن تُميِّز بين من يُحبّك لشخصك وبين من يستغلك!
وصديق السُّوء من خصاله أنه لا يحترمك،
ولا يتورَّعُ عن تقديم الإهانات لكَ على مرأىً من النَّاس،
فإياكَ أن تتقبل الإهانات بحُجَّة أنّها نصيحة، من لم يُراعِ كرامتك لا يلزمك!
وصديق السُّوء دائم الشكوى، كثير التذّمر، لا يقيل لكَ عثرةً، ولا يقيم لكَ زلَّة،
يقفُ لكَ على الخطوة، وعلى الكلمة، وعلى التَّصرف،
ما حاجتُكَ إلى قاضٍ في حياتكَ؟!

الدَّرسُ الرَّابع:

رحلةُ الهجرة من مكّة إلى المدينة تخبرُنا،
أنّ المرءَ لا يستغني عن صاحب ولو كان نبيّاَ
ولكنّ العاقل يتخيّرُ فيختار كتفاً وسنداً وعكازاً،
حدثتْ حادثة الإسراء والمعراج، ورأتْ فيها قريشٌ فرصةً سانحة لتشكيك أبي بكرٍ بدعوة النبيِّ ﷺ فالحادثة تتخطى حدود العقل،
وأبو بكرٍ من أعقل النَّاس ولا يقبلُ خلاف العقل،
والنبيُّ ﷺ لم يلتقِ به بعد فيحدّثه بما حدثَ معه،
قالوا له: يا أبا بكرٍ إنَّ صاحبكَ يزعم أنه أُسريَ به إلى بيت المقدس،
وعاد إلى مكّة في جزء من الليل!
فقال لهم: إن كان قالَ فقد صدَقَ!
هذا هو الصديق حقّاً، الذي يعرفكَ كما يعرفُ نفسَه،
ولو جاءت الدُّنيا كلُّها لتشككه بكَ، ما ازدادَ بكَ إلا إيماناً وتصديقاً ويقيناً!
وكان النبيُّ ﷺ يعلمُ جيّداً من أية طينةٍ هو صاحبه،
لهذا كان يُخبئه ليكون رفيقه في الرّحلة التي غيَّرت وجه هذا الكوكب إلى الأبد!
كان أبو بكر كل يوم يستأذنه بالهجرة،
فيقول له: انتظرْ لعلَّ الله أن يجعلَ لكَ رفيقاً!
فكان هو رفيقه!

32

﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾

نجاةُ السَّفينةِ كان في خَرْقِها،
وصلاحُ الوالدين كان في قتلِ ابنهما،
وحفظُ كنزِ اليتيمين كان في تأخيرِ ظهوره،
السّجنُ كان أوّل خطواتِ يوسف عليه السَّلام إلى العرش،
وهلاكُ فرعون كان لا بدّ له من مُفارقة موسى عليه السّلام لأمّه،
وعزُّ الدولة كان يقتضي فراق مكة،
والهزيمةُ يوم أُحد علمتهم معنى الطّاعة،
كثيراً ما يُغلِّف اللّهُ عطاياه بالحرمان،
كثيراً ما تأتي الحمايةُ مقرونةً بالوجع،
فلا ترَ من المشهد إلا ما تراه!

33

جاء اليهود إلى النبيِّ ﷺ وقالوا له:
يا أبا القاسم، جئنا نسألكَ عن أشياء، فإن أجبتنا فيها اِتَّبعنَاكَ!
أخبِرْنا من الذي يأتيكَ من الملائكة،
فإنه ليس من نبيٍّ إلا ويأتيه ملكٌ من عند ربِّه بالرِّسالة والوحي.
فقال: جبريل.
فقالوا: ذاكَ الذي ينزلُ بالحربِ والقتال، ذاكَ عدوُّنا!
لو قلتَ: ميكائيل الذي ينزل بالمطر والرحمة لاتبعناكَ!
فأنزلَ اللّه تعالى قوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾،
وكان عبدُ اللّهِ بن سَلامٍ من أعلمِ أحبارِ اليهودِ بالتَّوراة،
فجاءَ النبيَّ ﷺ يوماً وقال له:
إني سائلكَ عن ثلاثٍ لا يعلمهُنَّ إلا نبي:
فما أول أشراط السَّاعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟
وما ينزِعُ الولدُ إلى أبيه أو إلى أمِّه؟
فقال له النبيُّ ﷺ: أَخبرَني بهنَّ جبريلُ آنِفاً!
قال: جبريل، ذاك عدو اليهود من الملائكة!
فقرأ عليه النبيُّ ﷺ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾،

ثم قال له: أمَّا أوّل أشراط السّاعة فنارٌ تحشرُ النَّاسَ من المشرق إلى المغرب،
وأما أوّل طعام أهل الجنّة فزيادة كبدِ الحوت،
وإذا سبقَ ماءُ الرجلِ ماءَ المرأة، نزع الولدُ إلى أبيه،
وإذا سبقَ ماءُ المرأةِ ماءَ الرّجلِ، نزع الولدُ إلى أمه!
فقال له: أشهدُ أن لا إله إلا اللّه، وأشهدُ أنكَ رسول اللّه،
يا رسول اللّه: إنَّ اليهود قومٌ بُهُتٌ،
وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني يبهتوني!
فجاءت اليهود إلى النبيِّ ﷺ، فقال لهم:
أيُّ رجلٍ عبدُ اللّهِ بن سَلام فيكم؟
فقالوا: خيرُنا وابنُ خيرنا، وسيِّدُنا وابنُ سيِّدنا!
فقال لهم: أرأيتم إن أسلمَ عبدُ اللّه بن سَلام؟!
فقالوا: أعاذه اللّه من ذلكَ!
فخرجَ عبد اللّهِ بن سَلام وقال: أشهدُ أن لا إله إلا اللّه، وأشهد أن محمداً رسول اللّه!
فقالوا: هذا شرُّنا وابنُ شرِّنا!
فقال عبد اللّه: فهذا الذي كنتُ أخافُ يا رسول اللّه!

الدَّرسُ الأوّل:

هؤلاء هم اليهود في كل عصرٍ، لا يتغيَّرونَ ولا يتبدَّلون!
أكثر الناس جحوداً، وأقساهم قلوباً، وأنقضهم عهوداً!

شقَّ اللّهُ تعالى لهم البحرَ وأنجاهُم من فرعونَ،
فلما عبرُوا إلى الضِّفة الأخرى ورأوا أُناساً يعبدون الأصنام،
طلبوا من موسى عليه السَّلام أن يجعل لهم آلهة أُسوةً بهؤلاء القوم!
وجاؤوا إلى موسى عليه السّلام في شأن قتيلٍ يريدون أن يعرفوا من قتله،
فطلبَ منهم أن يذبحوا بقرةً، ويضربوا الميِّت ببعضها، ليقوم ويخبرهم بإذن اللّه،
فأخذوا يُفاوضون اللّه تعالى في شأن البقرة!
فلما شدَّدوا على أنفسهم، شدَّدَ اللّهُ تعالى عليهم!
وكانوا في الجاهلية يتوَّعدون العربَ بنبيٍّ يأتي آخر الزَّمان ويكون منهم،
فلما كان نبياً عربياًّ كفرُوا به!
والبعض ما زال يأمنهُم، ويفاوضُهم، ويعاهدُهم، ويرجُو منهم الخير،
وإنّ الذي لا يتعلَّمُ الدَّرس من الماضي محكومٌ أن يتجرَّع مرارة الحاضر!

الدَّرسُ الثّاني:

كُلُّ ما شقَّ على نفسِكَ من أوامِرِ اللّه،
فلم يقبله عقلُكَ، أو لم تسترِحْ له نفسُكَ،

فسَلْ نفسَكَ عنده: أأنا عبدٌ أم ربٌّ؟
فإنْ كنتَ رباً فأنتَ وما ترى!
وإن كنتَ عبداً، فالعبدُ يكون في أمر سيِّده، أحبَّ أمرَه أم كرِهَه،
وثِقْ تماماً أنّ كلّ ما لا يقبله عقلُكَ من أوامر اللّه،
فلِخللٍ في عقلكَ أنتَ، لا في أوامرِ اللّهِ!
فهذا لأنكَ لم تأخذ الأمر بالتَّسليمِ بعد، ولم يتحقَّقْ مفهومُ الإيمانِ في قلبكَ،
فإن وجدتَ أوامرَ اللّهِ تعالى في جهةٍ، وقلبُكَ في جهة،
فراجعْ قلبكَ، ولا تُعْمِلْ عقلكَ في أوامر اللّهِ!
للذَّكرِ مثلُ حظ الأنثيين، لأنَّ اللّه أعلمُ، وأحكَمُ، وأعدَلُ منك!
وممنوعٌ عليكِ أن تتزوجي بغير المسلم ولو وجدتيه خلوقاً،
لأنكِ لا ترين من الأمر غير ما يُريكِ إياه قلبُكِ وغريزتكِ،
أما اللّه تعالى فيرى المشهد كُلَّه!

الدَّرسُ الثّالث:

من أرادَ الهُدى هداه اللّه،
ومن مشى في طريقِ الهُدى وقد أضمرَ الضَّلالةَ، زاده اللّهُ تعالى ضلالاً!
جاء اليهود إلى النبيِّ ﷺ بحثاً عن نصرٍ لا عن هِدايةٍ،
فما حقَّقُوا النَّصرَ، وما أدركُوا الهداية!
وجاء عبدُ اللّهِ بن سَلامٍ باحثاً عن الحقِّ فهداه اللّهُ إليه،

وهو الذي قال له النبيُّ ﷺ يوماً: أنتَ على الإسلام حتى تموت!
صلاة الفجر شاقّة، ولكن لو أردتها بقلبكَ حقاً، ليسَّرها اللّهُ لكَ،
والحجابُ كفكرةٍ فيه صعوبة، ولكنّكِ لو قدَّمتِ اللّه على كل شيءٍ،
لغدا السَّترُ على قلبكِ أعذب من الماء البارد في يوم شديد الحرِّ،
والصَّدقة بخلاف النَّفسِ، ولكن متى استقرَّ في قلبكِ أن المرءَ في ظلِّ صدقته يوم القيامة،
لصارتْ عندكَ حلاوة العطاء ألذَّ من حلاوة الأخذ!

الدَّرسُ الرَّابعُ:

كُنْ عادلاً سواءً أحببتَ أَمْ كرهتَ،
لا تقُلْ في النَّاسِ ما ليس فيهم لأجلِ خصومة وقعتْ بينك وبينهم،
الصادقُ يبقى صادقاً ولو أغضبكَ،
والأمينُ لا يصبحُ خائناً إذا انزعجتَ منه،
لا تحُطِّي من عرضٍ عفيفةٍ وإن كرِهْتِها،
ولا تُسقطي من سُمعة فاضلةٍ وإن تشاجرتِ معها!
لا تكونوا مسلمين بأخلاقِ اليهود!
إذا رضيتم عن شخصٍ رفعتموه إلى السَّماء،
وإذا غضبتم على شخصٍ أنزلتموه إلى الأرض السَّابعة!
في لحظةٍ واحدة بدَّل اليهودُ أقوالهم في عبدِ اللّهِ بن سَلام،
في دقيقةٍ تحوّلَ عندهم من خيرهم إلى شرِّهم!

لسنا مطالبين أن نُحِبَّ جميع الناس،
قلبُكَ لكَ ولا سلطان لأحد عليه إلا اللّه،
ولكن لسانكَ للنَّاسِ فلا تقُلْ فيهم ما ليس فيهم!

34

﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾

كانتْ غزوةً استمرَّتْ شهراً،
إعدادٌ، وتجهيزٌ، وارتحالٌ عن المدينة إلى تبوك، ثمّ عودة،
ولكنّ اللّه سمّاها ساعة!
المرضُ سرعان ما يزول،
والهمُّ ببعضِ الوقتِ سينجلي،
والأمورُ المُعقّدةُ تحتاجُ برهةً وتنحلُّ،
ما كدَّرَكَ البارحة هو اليوم ذكرى،
وجروحُ الأمس صارتْ ندوباً تُذكِّرُكَ أنّك نجوتَ،
ثم سَلْ نفسكَ عن أكثر ليالي عمركَ صُعوبة:
ألم يأتِ الصباح؟!

35

لقيَ النبيُّ ﷺ جابر بن عبد اللّه، فقال له:
يا جابر، ما ليَ أراكَ منكسراً؟
فقال: يا رسول اللّه، استشهد أبي يوم أُحدٍ وتركَ عيالاً ودَيْناً،
فقال له النبيُّ ﷺ: أفلا أبشركَ بما لقيَ اللّه به أباكَ؟
فقال جابر: بلى يا رسول اللّه!
فقال له النبيُّ ﷺ: ما كلَّم اللّهُ أحداً قط إلا من وراء حجاب،
وإنه أحيا أباكَ فكلمه كِفاحاً،
فقال: يا عبدي تمنَّ عليَّ أُعْطِكَ!
قال: يا رب، تُحييني فأُقتلَ فيك ثانيةً!
فقال الربُّ عزَّ وجل: إنّه قد سبقَ منّي أنّهم إليها لا يرجعون!
ثم بعدها لقيَ النبيُّ ﷺ أصحابه فقال لهم:
لمَّا أُصيبَ إخوانكم بأُحدٍ، جعل اللّه أرواحهم في جوف طيرٍ خضر،
ترِدُ أنهار الجنة، تأكل من ثمارها،
وتأوي إلى قناديل من ذهبٍ معلقة في ظل العرش،
فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم، قالوا:
من يُبلغ إخواننا عنَّا أنَّا أحياء في الجنّة نُرزق،
لئَّلا يزهدوا في الجهاد، ولا يتَّكِلُوا عند الحرب،
فقال اللّه سبحانه: أنا أبلغهم عنكم!
فأنزل سبحانه قوله:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

الدَّرسُ الأوّل:

الدَّرس الأعظم من غزوة أُحدٍ هو:
لا نصرَ لهذه الأمة إلا بطاعة ربّها، والسَّير على سُنَّةِ نبيِّها،
غير هذا صراع قوى، وحديد بحديد،
من امتلكَ من أسباب النَّصر أكثر كان النَّصر له!
وهزيمةٌ تكسِرُكَ وتُريكَ موطن الخلل فيكَ،
خيرٌ من نصرٍ يُطغيكَ فتحسبُ معه، أنك مالك أمركَ، ومُدبِّر نفسِكَ!

الدَّرسُ الثّاني:

الفِراقُ أليم، وفقد الأحبّة موجع،
وإن قيل لكَ إنّ رحيل شخصٍ عن دُنياك يجعلها فارغة فصدِّقْ!
كان جابر على فقد أبيه مكسوراً،

ثمة أشخاص لا يملأ مكانهم أحد!
وكان النبيُّ ﷺ على فقد عمّه حمزة مكلوماً،
يعزُّ على المرء أن يعتاد غياب أحبَّته،
وهذا لا علاقة له بمستوى الإيمان، ولا يُنافي التسليم بقضاء اللّٰه،
نحن بشر، ومهما امتلكنا من قوة الإيمان سنبقى بشراً،
الإيمان يؤدِّب النفس ولكنه لا يُغيِّر فطرتها،
ثم ومَنْ يبلغَ شِسْعَ نعلِ إيمان النبيِّ ﷺ،
وها هو قد أدماه فقد خديجة،
وأبكاه موت ابنه إبراهيم،
وفطرَ قلبُه فقد عمِّه حمزة،
نحن لا نبكي من قلة الإيمان، وإنّما من كثرةِ الوجع!

الدَّرسُ الثّالث:

يا جابر ما ليَ أراكَ منكسراً؟!
ما أعذبها من عبارةٍ، وما أحلاها من كلمات،
النَّاسُ في الغالب لا يريدون من يحلَّ مشاكلهم،
ولكنهم دوماً يريدون من يشعر بهم!
إنكَ لن تُعيد إلى صديقكَ أمّه التي فقدها،
ولكن بإمكانكَ أن تكون له كتفاً في حزنه!
وإنكَ لن تعثر على زوجٍ لأختك التي مات عنها زوجها،
ولكن بإمكانكَ أن تُشعرها أنها ليستْ وحدها!

إنك لن تعيد قدماً للمبتورة قدمه،
ولن تزرعَ كليةً لمن أصابه الفشل الكلوي،
وقد لا تستطيع أن تجد عملاً لمن فقد عمله،
ولكنك ببساطة يمكنك أن تُريَ الناسَ أنك تهتم!

الدَّرسُ الرَّابع:

يا جابر ما ليَ أراكَ منكسراً؟!
اعتنِ بقلبكَ جيداً فإنه يظهرُ على ملامحك!
لن تقتلكَ الأشياء التي تأكلها، وإنما الأشياء التي تأكلُكَ!
كل المشاعر السَّيئة تتركُ أثرها فيك،
صدقني، نحن لا نشيخ بمرور الأيام،
بقدر ما نشيخ بمرور الحوادث،
إن ليلة همٍّ تعدِلُ في أثرها سنة من غير هَمٍّ!
وإن سنة من عملٍ في بيئة متوترة،
تعدِلُ عشر سنوات عمل في بيئة سليمة!
فلا تستغرِبْ إذا رأيتَ ملامح شخصٍ أكبر بكثيرٍ من عمره،
هذا أثر الأيام، يحدثُ أن تدوسنا الأيام بقسوة!

الدَّرسُ الخامس:

يا جابر ما ليَ أراكَ منكسراً؟!
كُنْ لماحاً!
الناسُ يجدون غصَّةً في الحديث عن انكساراتهم،
ليس كل صاحب حاجةٍ سيقول لكَ أنا محتاج،
وما كلّ إنسان بقادرٍ أن يخبركَ بحزنه،
أساساً ثمّة حزن لا تقوله الكلمات!
ولن يأتيك شخصٌ ابتداءً ويُلقي همّه بين يديكَ،
عليكَ أن تُلاحظ تلك التغيرات الصغيرة فوراءها أحداث كبيرة!
ذاك الضحك الذي اختفى فجأة،
ثمّة حزن قد أغلقَ عليه الباب وتركه حبيساً في الداخل،
ذاك الخروج الدائم والتنزه الذي توقف فجأة،
قد يكون وراءه عسر ماديٍّ طارئ،
أو خلاف زوجيّ وصل إلى طريق مسدود،
أو فقد وظيفة كانتْ تؤمن عيشاً رغيداً،
أو مرض حلَّ فجأة فقضى على كل لذَّات الدُّنيا،
ليس مطلوباً منكَ أن تسبر أغوار الناس،
ولكن لا تُفوِّت الأشياء التي تظهر لكَ،
فقد يجعلُ اللّه حلَّها على يديك،
وحتى إن لم تملك حلّاً، النَّاسُ أحياناً لا يريدون الحلول،
بقدر ما يريدون أن يجدوا حولهم من يستمع ويهتمَّ!

الدَّرسُ السّادس:

الدُّنيا دار كَدَرٍ وإن كان فيها أيام حلوة،
دار فَقْدٍ وإن اجتمعَ الناسُ لسنوات،
دار مرضٍ وإن غمرتنا الصِّحة أياماً،
هي دار الأرحام التي تُقطع لأجل الأموال،
ودار الصَّداقات التي تُهدم لأجل الوصول والمناصب،
ودار الأمنيات التي لا تكتمل، والأحلام التي يتنازل عنها أصحابها،
ودار الجروح التي تنِزُّ، والطَّعنات التي لا تشفى،
فإن وجدتَ فيها غير هذا فاحمد اللّٰه على العافية،
ولكن أغلب النَّاس قد رأوا منها ما ذكرتُ لك!
ألا وإنها عَرَضٌ زائِلٌ، ونعيمٌ منقوص،
والمرءُ فيها مسافر غريب ولا محطّ رِحالٍ له إلا في الجنّةِ
أو النار،
وما خرجَ منها أحدٌ ورأى مقعده من الجنّة فأحبَّ أن يرجع إليها،
وهل يشتاقُ المريض الذي تعافى لأيام المرض؟
وهل يشتاقُ الخائف الذي أَمِنَ لأيام الخوف؟
وهل يشتاقُ الفاقِدُ الذي وجدَ أحبَّته لأيّام الفقد؟
وهل يشتاقُ المجبور لأيام كسره،
ولهذا يا صاحبي اِعْمَلْ ليكون خروجكَ منها أجمل حدثٍ
لكَ فيها!

36

﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾

لا تتزوَّجْ إلا مُؤمنة،
وإياكَ أن تُراهن على قدرتِكَ على تغييرها،
تزوّج عمرانُ بن حطّان امرأةً فاتنةً من الخوارج،
وكان يُمنِّي نفسه أن يُعيدها إلى السُنّة،
فصارَ هو من رُؤُوس الخوارج!
ولا تتزوَّجي إلا مُؤمناً،
وإياكِ أن تُراهني على قدرتكِ على تغييره،
الزّوجُ كالصَّاحبِ ساحب!
في البداية والنّهاية لابن كثير:
تزوَّجتْ سجاحُ من مسيلمة الكذَّاب،
فجعل مَهرَها أن أسقط عن قومِها صلاتَي الفجر والعشاء!
نعم حافظتْ آسيا بنتُ مُزاحم على دينها وهي عند فرعون،
ولكنَّه نهاية المطاف قتلها!

37

تُحدِّثنا أُمُّنا الصِّديقة بنت الصديق، عائشة، فتقول:
خرجنا مع النبيِّ ﷺ في بعض أسفاره،
حتى إذا كنا بالبيداء انقطعَ عقدٌ لي:
فأقام النبيُّ ﷺ على اِلتماسه، وأقام معه الناس،
وليسوا على ماءٍ، فأتى الناسُ إلى أبي بكرٍ فقالوا:
ألا ترى ما صنعتْ عائشة، أقامتْ بالنبيِّ ﷺ والنّاس،
وليسوا على ماءٍ، وليس معهم ماء!
فجاء أبو بكرٍ والنبيُّ ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام،
فقال: حبستِ النبيَّ ﷺ والنّاس،
وليسوا على ماءٍ، وليس معهم ماء!
فعاتبني، وقال ما شاء اللّه أن يقول، وجعل يطعنني بيده في خاصرتي،
فلا يمنعني من التّحرك إلا مكان النبيِّ ﷺ على فخذي!
فقام النبيُّ ﷺ حين أصبحَ على غير ماءٍ،
فأنزلَ اللّه تعالى قوله في التيمم:
﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ النِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾
فقال أُسيدُ بن حُضير: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر،
ثم بعثنا البعير الذي كنتُ عليه، فأصبنا العقد تحته!

الدَّرسُ الأوّل:

أوقف النبيُّ ﷺ الجيش كله،
وعسكرَ بالنّاس ليبحث عن عقد زوجته الذي فقدته،
فقط لأنه يعلَمُ أنه أثير على قلبها!
لم يمنعه الموقف كله أن يراعي خاطرها، ويمشي في حاجة تُسعدها!
ولم يخشَ أن يقول أحد إنه أوقف الجيش كلّه لأجل رضاها!
أراد أن يُعلمنا أنّ الحنون يبقى حنوناً حتى في أصعب المواقف!
وأن جبر الخاطر له متَّسعٌ مهما كانت الظروف،
وأنَّ الإحسان إلى الزَّوجة ليس ضعفاً في الشَّخصية،
وأنَّ مراعاة مشاعرها ليس تبعيَّةً لها،
وأنَّ فعل ما يُسعدها لا يعني أبداً أنه محكوم لها،
وأن السَّعيَ لإسعادها ليس نقصاً في الرجولة،
فهو سيد الرجال، ولا يفعل إلا مكارم الأخلاق، وتمام الرجولة!

الدَّرسُ الثّاني:

أما أنتَ، فلا توقفْ لها الجيش،
ولا تحبِسْ لأجلها النَّاس عن المسير،
ولكن أَرِها كل يوم أنّك تهتمُّ لمشاعرها!
وافعَلْ ما يُسعدها، وأزِلْ الحزنَ عنها إن استطعتَ!

اِستغلَّ أصغر المواقف لتُظهرَ عاطفتكَ نحوها،
وتحيّن المواقف لتريها كم تحبُّها،
فالحُبُّ مواقف تُفعل، لا مجرَّدَ كلماتٍ تُقال!
إذا مرضتْ فهذه فرصة سانحة لتحنو عليها،
أعطِها الدواء بيديكَ، وأعِدَّ لها مشروباً ساخناً،
تحايلْ عليها لتأكل وإن لم يكن عندها قابليّة،
اِمسَحْ على رأسها، وعانقها، وأشعِرها أنها بعضكَ!
إذا كانتْ في مزاجٍ سيءٍ احتملها،
من منا له مزاجٍ ثابت، أو يُطاق على الدوام؟!
وإذا بدرَ منها تصرفٌ لا يُرضيكَ، ولطالما أرضتكَ،
فهبْ هذه لتلكَ، ولا تقِفْ لها على الكلمة!
إذا أنهكها عمل البيت فخفف عنها،
وإذا تأخرتْ بإعداد الطعام فادخُلْ معها إلى المطبخ وساعدها،
نحن لا نحصد الحُب في غرف النوم إلا إذا زرعناه في كل أرجاء المنزل!
أشياء صغيرة تقومُ بها تأسِرُ قلبها،
وإنَّ إظهار الاهتمام أرقى صور التعبير عن الحُب،
فعيشوا مشاعركم ولا تخجلوا بها، أسعد الناس بالحُب هم الذين يعطونه!

الدَّرسُ الثَّالث:

هذا دين تفيضُ منه الرحمة فيضاً،
حتى في الفرائض تتحسَّسُ رحمة اللّه بكَ،
إذا مرضتَ أو سافرتَ يبيحُ لكَ اللّهُ تعالى أن تُفطر،
يا له من ربٍّ، يُخبركَ أنه يهتمُّ بكَ، ويشفقُ عليكَ،
وإذا كنتِ في رضاعٍ أو حمل يُجيز لكِ أن تفطري،
يخبركِ ربُّكِ أنكِ موضع اهتمام عنده سبحانه،
يعلمُ ضعفكِ وإن جهله الناس،
يرى وجعكِ وألمكِ وإن قسا عليكِ من حولكِ!
إذا مرضنا أسقطَ عنا القيام للصَّلاة إن عجزنا عنه،
فنصلي قعوداً، أو حتى في فراشنا، كلّ بحسب استطاعته،
إذا سافرنا لنا أن نقصُر الصَّلاة،
وإذا اشتدَّ البرد والمطر لنا أن نجمع بين الصلاتين،
وإذا لم نملك المال أُسقط عنا ركنين من أركان الإسلام، الزَّكاة والحجّ!
وحتى إن ملكنا المال ولم نملك الصّحة لم يُطالبنا بالحج،
يا له من ربٍّ أرحم بنا من أمهاتنا وآبائنا!

الدَّرسُ الرّابع:

لعلّكِ انتبهتِ كم راعى النبيُّ ﷺ خاطر عائشة،
ولكنكِ لم تنتبهي كم راعته هي،
أبوها يلومها ويُعنِّفُها، ويطعنها بإصبعه في خاصرتها،
أزعجه معاتبة النّاس له لأنَّ توقُّفَ الجيش كان بسببها،
ولكنها تحبس وَجعها ولا تتحرك، ثابتة كالجبل في مكانها، وهي المرأة الرقيقة،
فقط لأنها تخشى إن تحركت أن يستيقظ زوجها،
قدَّمتْ راحته على راحتها، وهناءَه على هنائها،
واحتملت هي الوجع كي ينعم هو بالنوم!
فهل راعيتِ أنتِ زوجكِ كما فعلتْ أمُّكِ عائشة،
هل نهاكِ عن تصرف يزعجه فانتهيتِ شراءً لرضاه،
أم عاندته وتانحته كما تفعل البلهاوات من الزَّوجات؟!
هل نظرتِ في الطعام الذي يُحبُّه فطبختيه له،
وفي الفاكهة التي يحبها فاشتريتها له،
أم أن رضاه كان آخر همِّكِ؟!
هل احتملتِ من أمّه ما لا يُعجبكِ شراءً لخاطره،
أَمْ وقفتِ لها على الكلمة فلم تراعي فيه معروفاً؟
هل أكرمتِ أهله وأقاربه لأن ذلك يسعده،
أم كانت كل تصرفاتكِ واحدة بواحدة، وهذه بتلك؟!
أسوأ ما في العلاقات الزوجية أن تبحث الزوجة عن حقّها،
دون أن تسأل نفسها عن واجبها،

نغفل دائماً أن القيام بالواجب يسبق نيل الحقّ!

وأنّ بذر الحُب يسبقُ حصاده،

وأنّ أفعال الآخرين معنا هي صدى أفعالنا!

وأنَّ العاقلة هي من تحتمل زوجها، وتصون بيتها،

ولا توقد بالمناكفات ناراً هي أول من سيحترق بها!

38

﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾

لا تسخَرْ من دميم، فلم يخلِقْ أحدُنا نفسه،
فإن لم تحترم الخَلْقَ فاحترم الخالق!
ولا تهزأ بفقيرٍ، فلا أحد منا يرزقُ نفسَه،
كلنا فقراء على باب اللّٰه!
ولا تزدرِ صاحب مهنةٍ بسيطةٍ،
فإنَّ درهماً بالحلال خير من قنطار بالحرام!
كان السَّلفُ يتناهون حتى عن احتقارِ الحيوانات،
يقول السُبكيّ: كنت جالساً بدهليز دارنا، فأقبل كلبٌ،
فقلت: اِخسَأْ كلبٌ ابن كلب!
فزجرني أبي من داخل الدار!
فقلتُ: سبحان اللّٰه، أليس هو كلباً ابن كلب؟
فقال: شرط الجواز عدم قصد التَّحقير!

39

يقولُ حِبُّ رسول الله ﷺ وابنُ حِبِّه، أسامة بن زيد بن حارثة:
بعثَنَا رسولُ الله ﷺ في سَريَّةٍ إلى الحُرقة من جُهينة،
فصبَّحْنا القومَ فهزمناهم،
ولحقتُ أنا ورجلٌ من الأنصار رجلاً منهم،
فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله!
فكفَّ الأنصاريُّ عنه، وطعنتُه برمحي حتى قتلته!
فلمَّا قدمنا المدينة، بلغَ ذلكَ النبيَّ ﷺ،
فقال لي: يا أسامة، أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله؟!
قلتُ: يا رسول الله، إنّما كان متعوِّذاً من السَّيف!
فقال: أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله؟!
فما زال يكررها عليَّ حتى تمنَّيتُ أني لم أكن أسلمتُ قبل ذلكَ اليوم!
ونزلَ قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾

الدَّرسُ الأوَّل:

لا تحكُمْ على شيءٍ لم تُحِطْ به علماً،
قد يمشي الناسُ في طريقٍ واحدة،
وتكون المسافة بين نواياهم مقدار المسافة بين السَّماء والأرض!

تهزني هذه الآية عميقاً: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ﴾
كان يوسف عليه السلام وزليخة يركضان على الطريق ذاتها،
ولهما وجهة واحدة هي الباب،
ولكنَّ يوسف عليه السلام كان يهربُ من المعصية،
وهي كانت تركضُ وراءها!
وإنك لو رأيتَ من القصة هذا المشهد فقط،
ولم تُحِطْ بكلّ تفاصيلها وليس لكَ منها إلا ما رأته عيناك،
لقُلتَ هما سواء، وما أدراك أنتَ أنه كان يقصِدُ الباب ليهرب،
فلا تعِشْ في هذه الحياة حَكماً وقاضياً!
صحيح أن بعض الأمور واضحة جلية،
ومن الحماقة ألا يكون للمرء يقين في هذه الحياة،
ولكن تذكّر شيئاً مهماً:
النوايا لا يطلِعُ عليها الناس ليقيموها، ولا الشياطين ليفسدوها،
ولا الملائكة ليكتبوها،
وحده اللّه سبحانه يرانا من الدّاخل كما نحن!

الدَّرسُ الثّاني:

يقولُ الشِّيرازيُّ رحمه اللّه: قمتُ الليلَ مع أبي،
وحولنا أُناس نيام لم يُصلُّوا،
فقلتُ لأبي: لم يقم أحدٌ من هؤلاء يصلي ركعتين!

فقال لي: يا بُنيَّ، لو نمتَ لكان خيراً لكَ من وقوعكَ في الخَلْقِ!
صلاحَكَ لا يعطيك الحقَّ بازدراء الناس،
وسلامة الصَّدر والتَّواضع مع العبادة دون النوافل،
خيرٌ من الاستعلاء مع كثرة النوافل!
ولتعلَمْ علمَ اليقين أنه ليس بينك وبين المبتلى بمعصية الله إلا رحمة الله،
وأنَّ الله سبحانه لو خلَّى بينك وبين المعاصي،
لفعلتَ ما فعلَ غيرك، ولربما تفوَّقتَ عليه أيضاً!
ثُمَّ تعالَ هنا، وضع عينك في عيني،
أليستْ لكَ معاصٍ قد سترها الله عليكَ، ولو اطلع الناسُ عليها لسقطتَ من أعينهم،
كلنا يا صديقي أسوأ مما نبدو عليه،
ولكنّه رداء من الله اسمه السَّتر لو رفعه عنّا لانفضحنا!

الدَّرسُ الثّالث:

يقولُ سُفيان الثوريُّ رحمه الله: حُرمتُ قيام الليل خمسة أشهرٍ،
بسبب ذنبٍ أذنبته!
قيل له: وما هو؟
فقال: رأيتُ رجلاً يدعو الله ويبكي، فقلتُ في نفسي: هذا رياء!
لا تقتحِمْ نوايا النَّاس ودع الخلقَ للخالق،
وإنَّ أحدنا لتختلط عليه نيتّه أحياناً،

فما بالنا نجزمُ في نوايا النَّاس وكأننا شققنا عن قلوبهم!
وإنَّ أسوأ ما يُبتلى به المرء هو أن يقع في نوايا الصالحين!
إذا شاهد منتقبةً قال: تسترُ قبحها!
وإذا شاهد محجَّبةً قال: لعله خَشِنٌ شعرها!
وإذا رأى الرَّجل يتصدق قال: يُرائي!
وإذا رأى أحداً يزور أحداً قال: له عنده مصلحة!
وإذا شاهد شاباً يرتاد المسجد قال: معقَّد!
يجمعُ على نفسه قُبحين في آنٍ معاً،
قبح العجز عن مجاراة الصالحين، وقبح الوقوع في نواياهم!

الدَّرسُ الرّابع:

أخرجَ البيهقيُّ في شُعب الإيمان عن ابن عبَّاس:
أنَّ النبيَّ ﷺ نظرَ إلى الكعبة فقال:
مرحباً بكِ من بيت، ما أعظمكِ وما أعظم حرمتكِ،
وللمؤمن أعظم عند اللّه حرمةً منكِ!
وروى ابن ماجة في السُّننِ من حديث ابن عمر:
رأيتُ رسول اللّه ﷺ يطوفُ بالكعبة،
ويقول: ما أطيبكِ وما أطيب ريحكِ، ما أعظمكِ وأعظمَ حرمتكِ،
والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن، أعظم عند اللّه حرمةً منكِ، ماله، ودمه!
وفي صحيح البخاري حديث يخطف القلب:

يقـول النبـيُّ ﷺ: لا يـزالُ العبـدُ فـي فسـحةٍ مـن دينـه، مـا لـم يُصِـبْ دمـاً حرامـاً!
لا ذنبَ أعظمَ عند الله بعد الشِّرك من إراقة دماء النَّاس ظلماً،
لهذا فـإنَّ أوّل شـيءٍ يقضـي بـه الله سـبحانه بيـن النَّـاس يوم القيامـة هـو الدّمـاء!
وما كان هذا إلا لحرمة انتهاكها، وبشاعة فعلها،
وأن يأتي العبدُ ربَّه بكل ذنبٍ خلا الشرك،
أهون عنده سبحانه من أن يأتيه في رقبته دم بريء سفكه،
وإذا كان ظاهـر الأحاديث الشَّـريفة أن المنتحـر فـي النـار، وقـد أزهـقَ روح نفسـه،
فكيف بالذي يُزهِقُ أرواح النّاس؟!

40

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾

يقولُ ابنُ حَجرٍ العسقلانيّ: ماتتْ أمي وأنا صغير،
فتولَّت أختي تربيتي!
كانتْ قارئةً، كاتبةً، أُعجوبةً في الذكاء،
وهي أمي بعد أمي!
الأختُ معطف دافئٌ، دافئٌ جداً!
كان ليوسف عليه السَّلام أحد عشر أخاً أخذوه من أبيه،
ولموسى عليه السّلام أختٌ واحدة أعادته إلى أمّه،
الأخت كتفٌ متينٌ للاستناد،
وصدرٌ حنونٌ للفضفضة،
فلا تنسوا أخواتكم في زحام الحياة!

41

قال معاذُ بن جبل: بينما نحن مع رسول اللّه ﷺ في غزوة تبوك،
وقد أصابنا الحر، فتفرّقَ القومُ،
فنظرت فإذا رسول اللّه ﷺ، أقربهم مني،
فدنوتُ منه فقلت: يا رسول اللّه، أنبئني بعمل يُدخلني الجنَّةَ ويُباعدني من النَّار!
قال: لقد سألتَ عن عظيمٍ، وإنّه ليسيرٌ على من يسّره اللّه تعالى عليه!
تعبدُ اللّه ولا تشركُ به شيئاً،
وتقيم الصَّلاة المكتوبةَ، وتؤدي الزَّكاةَ المفروضة، وتصوم رمضان،
وإن شئتَ أنبأتُكَ بأبواب الخير كلها!
قلتُ: أجل يا رسول اللّه!
قال: الصوم جُنّة، والصَّدقة تكفّرُ الخطيئة،
وقيام الرجل في جوف الليل يبتغي وجه اللّه تعالى،
ثم قرأ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾

الدَّرسُ الأوّل:

الصّومُ جُنّة، أي وقاية من النّار!
جاء رجلان من اليمن إلى النبيّ ﷺ، وأسلما بين يديه معاً،
وكان أحدهما أشدُّ اجتهاداً من الآخر في العبادة،

وغزا مع النبيِّ ﷺ فاستشهد، ثم مكثَ الآخر بعده سنةً ثم مات.
فرأى طلحة بن عبيد اللّه في منامه أنّه عند باب الجنة،
وإذا الرجلان هناك، فجاء مَلَكٌ وأمرَ الذي توفي حديثاً بأن يدخل الجنَّة.
ثمّ خرج مرةً أخرى وأمر الذي استشهدَ اولاً أن يدخل الجنّة.
ثمّ خرج فقال لطلحة: أما أنتَ فارجعْ، فإنكَ قد بقيَ لك عُمر!
فأصبح طلحة يُحدث الناس بما رأى فتعَجبوا!
فبلغ ذلك النبيُّ ﷺ، فقال لهم: من أيّ شيءٍ تعجبون؟
فقالوا: يا رسول اللّه، كان هذا أشدّ الرجلين اجتهاداً، ثم استشهد، ودخلَ الآخرُ قبله الجنة!
فقال النبي ﷺ: أليسَ قد مكثَ هذا بعده سنةً،
قالوا: بلى.
فقال: وأدركَ رمضان، فصامَ وصلى؟
قالوا: بلى.
فقال: فما بينهما أبعدُ مما بين السماء والأرض!
إنّه الصّيام الذي صامه الصحابيٌّ في القصة،
فسبقَ بصيامه وقيامه صاحبه الذي استشهد قبله!
فسابِقُوا، فإنّ عُمّر المؤمن لا يزيده إلا خيراً!
فيا مرحباً بالجوع والعطش في سبيل اللّهِ فإنّها سُويعات تمضي،
تمتلئ بعدها الأمعاء، وترتوي الحناجر ويثبتُ الأجر إن شاء اللّه،
يا مرحباً بقراءة القرآن، ضمّاد القلوب المجروحة،
وسلوى النفوس المحزونة، وجبال من الحسنات،
ولا أقول ألم حرف، وإنما ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف!

الدَّرسُ الثَّاني:

والصَّدقة تُكفِّرُ الخطيئة!

لما حضرتْ أبا موسى الأشعري الوفاة، قال: يا بَنِيّ، اذكروا صاحبَ الرَّغيف،

إنّه رجل عبد اللّه في صومعته سبعين سنة،

لا ينزلُ في العام إلى الناس إلا يوماً واحداً،

فزيّنَ الشّيطانُ في عينه امرأةً، فكان معها بالحرام سبعة أيام،

ثم تذكر عبادته وصلاحه، فتركَ بلده وخرجَ تائباً،

وكان كلما خطا قليلاً صلى وسجد،

فآواه الليل إلى مكانٍ فيه اثنا عشر مسكيناً،

فأدركه التعب، فرمى نفسه بين رجلين منهم.

وكان هناك راهبٌ يمرُّ بهم كل ليلةٍ ويعطي كل واحدٍ منهم رغيفاً،

ومرَّ عليهم، فحسبَ التائب منهم، فأعطاه رغيفاً.

فقال الذي لم يأخذ رغيفاً للراهب: ما لكَ لم تعطِني رغيفي الليلة؟

فقال له: أتراني أمسكته عنكَ،

سَلْ أصحابكَ هل أعطيتُ أحداً منهم رغيفين؟

فقالوا: لا.

فقال: واللّهِ ما معي أرغفة إلا بعددكم!

فعمدَ التائبُ إلى الرَّغيف الذي دفعه إليه الرَّاهب، فأعطاه إلى الرجل الذي لم يأخذ.

وأصبحَ التائبُ ميتاً!

فوُزِنت السبعون سنةً في العبادة بالليالي السَّبع في الزِّنى،
فرجحتْ بهنّ ليالي الزنى،
ثم وُزنتْ ليالي الزنى بالرغيف، فرجح بهنّ الرغيف.
فقال أبو موسى: اذكروا صاحبَ الرّغيف!
ما أدراكَ كيف تكون الموازين غداً،
وأيٌّ شيءٍ يرجحُ، وأيٌّ شيءٍ يذهبُ هباءً!
ما أدراكَ أن عُلبة الدَّواء تشتريها لمريضٍ فقير كل شهرٍ بالسِّر،
لا تُطلعُ أحداً عليها، ترجحُ بالميزان بكل معاصيكَ!
ما أدراكَ أن الدّين الذي تقضيه عن متعثرٍ في الدنيا،
وليس في قلبكَ من نيَّةٍ غير أن يقضيَ اللّه تعالى دينكَ عنده،
تشتري به جنةً عرضها السماوات والأرض!
ما أدراكَ أن معصية فلانةٍ التي وصلتكَ فسترتها،
وليس في قلبكَ إلا أنكَ ترجو ألا يفضحكَ يوم القيامة على رؤوس الخلائق،
فيعطيكَ ما ترجو، ويكون موقف واحدٌ هو فكاك رقبتكَ من النَّار!

الدّرسُ الثّالث:

وقيامُ الرّجل في جوف الليل يبتغي وجه اللّه تعالى!
قال سعيد بن المسيب: إن الرجل ليصلي بالليل، فيجعل اللّه في وجهه نورا يحبه عليه كل مسلم،
فيراه من لم يره قط فيقول: إني لأحبُ هذا الرجل!

وقيل للحسن البصري: ما بال المتهجدين بالليل من أحسن النّاس وُجوهاً؟

فقال: لأنّهم خَلُوا بالرّحمن فألبسهم من نوره!

وكان ثابتُ البنانِيُّ يقول: كابدتُ نفسي على القيام عشرين سنة!

وتلذذتُ به بعد ذلك عشرين سنة!

وكان عبد العزيز بن أبي روّاد يُفرش له فراشه لينام عليه بالليل،

فكان يضع يده على الفراش فيتحسَّسه ثم يقول: ما ألينك!

ولكن فراش الجنة ألين منك! ثم يقوم إلى صلاته!

وقال رجل لإبراهيم بن أدهم: إنّي لا أقدر على قيام الليل فصِفْ لي دواءً؟

فقال: لا تعصِه بالنَّهار وهو يقيمك بين يديه في الليل،

فإنّ وقوفكَ بين يديه في الليل من أعظم الشَّرف، والعاصي لا يستحق ذلك الشرف!

وقال رجل للحسن البصريِّ: يا أبا سعيد، إني أبيتُ معافى وأحبُّ قيام الليل،

وأعدُّ طهوري فما بالي لا أقوم؟!

فقال الحسن: ذنوبك قيّدتكَ!

وكان العابدُ عمرو بن عتبة بن فرقد يخرجُ للغزو في سبيل الله،

فإذا جاء الليلُ صفَّ قدميه يناجي ربَّه ويبكي بين يديه،

وكان أهل الجيش الذين خرج معهم عمرو لا يُكلّفون أحداً من الجيش بالحراسة،

لأن عمرو قد كفاهم ذلك بصلاته طوال الليل،

وذات ليلة وبينما عمرو بن عتبة يصلي من الليل والجيشُ نائم،

إذ سمعوا زئير أسدٍ فهربوا وبقي عمرو في مكانه يصلي!
فلمّا انصرفَ الأسدُ عنهم رجعوا لعمرو فقالوا له: أمَا خفتَ الأسدَ وأنت تصلي؟!
فقال: إني لأستحي من الله أن أخاف شيئاً سواه!
ودخلت إحدى النساء على زوجة الإمام الأوزاعيّ، فرأتْ بللاً في موضع سجوده،
فقالت لزوجة الأوزاعي: ثكلتْكِ أمُّكِ!
أراك غفلت عن بعض الصبيان حتى بالَ في مُصلّى الشيخ!
فقالت لها زوجة الأوزاعي: ويحكِ هكذا يُصبح كل ليلة من أثر دموع الشيخ في سجوده!
وقال أبو يزيد المعّنى: كان سفيان الثوري إذا أصبح، مدّ رجليه إلى الحائط ورأسه إلى الأرض،
كي يرجع الدَّم إلى مكانه من قيام الليل!
وكان أبو مسلم الخولانيِّ يُصلّي من الليل، فإذا أصابه فتور أو كسل قال لنفسه:
أيظنُّ أصحاب محمد ﷺ أن يسبقونا عليه،
والله لأزاحمنَّهُم عليه، حتى يعلموا أنهم خلفوا بعدهم رجالاً!
ثم يصلي إلى الفجر!
قصصٌ هي واللهِ كأنها ضربٌ من ضروب الخيال!
فتشبّهوا، فإنّ التّشبه بالكرام فلاحُ!

42

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾

المؤمنُ ليس كارهاً للمالِ ولكنّه ليس عبداً له،
وهل أعتقَ أبو بكرٍ بلالاً إلا بالمال؟
وهل جهّز عثمان ثلثَ الجيشِ إلا بالمال؟
السّاعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل اللّه،
أو قال: كالصائم لا يفطرُ، والقائمُ لا يرقدُ!
وهل يكون هذا السّعي إلا بالمال؟
في كتاب ربيع الأبرار للزمخشريّ:
كان السّلفُ يقولون: المالُ سلاحُ المؤمن،
وأنْ أتركَ مالاً أُحاسَبُ عليه خير من الاحتياج للناس!
وربّما رأوا رجلاً في جنازة فقالُوا له: اذهبْ إلى دكّانك!

43

دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ على رَسولِ اللّه ﷺ،
فَوَجَدَ النَّاسَ جُلُوسًا ببَابِهِ، لَمْ يُؤْذَنْ لأَحَدٍ منهمْ،
فَأُذِنَ لأَبِي بَكْرٍ، فَدَخَلَ،
ثُمّ أَقْبَلَ عُمَرُ، فَاسْتَأْذَنَ، فَأُذِنَ له،
فَوَجَدَ النّبيّ ﷺ جَالِسًا حَوْلَهُ نِسَاؤُهُ، وَاجِمًا سَاكِتًا،
قالَ: فَقالَ: لأَقُولَنّ شيئًا أُضْحِكُ النّبيّ ﷺ،
فَقالَ: يا رَسولَ اللّهِ، لو رَأَيْتَ بِنْتَ خَارِجَةَ، سَأَلَتْنِي النّفَقَةَ، فَقُمْتُ إلَيْهَا، فَوَجَأْتُ عُنُقَهَا،
فَضَحِكَ رَسولُ اللّهِ ﷺ، وَقالَ: هُنّ حَوْلِي كما تَرَى، يَسْأَلْنَنِي النّفَقَةَ!
فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ إلى عَائِشَةَ يَجَأُ عُنُقَهَا،
فَقَامَ عُمَرُ إلى حَفْصَةَ يَجَأُ عُنُقَهَا،
كلَاهُما يقولُ: تَسْأَلْنَ رَسولَ اللّهِ ﷺ ما ليسَ عِنْدَهُ؟!
فَقُلْنَ: وَاللّهِ لا نَسْأَلُ رَسولَ اللّه ﷺ شيئًا أَبَدًا لَيْسَ عِنْدَهُ،
ثُمّ اعْتَزَلَهُنّ شَهْرًا، أَوْ تِسْعًا وَعِشْرِينَ، ثُمّ نَزَلَتْ عليه هذه الآيَةُ:
﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾
فَبَدَأَ بعَائِشَةَ، فَقالَ: يا عَائِشَةُ، إنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكِ أَمْرًا،

أُحِبُّ أَنْ لا تَعْجَلِي فيه حتَّى تَسْتَشِيرِي أَبَوَيْكِ،
قالَتْ: وَما هو يا رَسولَ اللّٰهِ؟
فَتَلَا عَلَيْهَا الآيَةَ،
قالَتْ: أَفِيكَ -يا رَسولَ اللّٰهِ- أَسْتَشِيرُ أَبَوَيَّ؟!
بَلْ أَخْتَارُ اللَّهَ وَرَسولَهُ، وَالدَّارَ الآخِرَةَ،
وَأَسْأَلُكَ أَنْ لا تُخْبِرَ امْرَأَةً مِن نِسَائِكَ بالَّذِي قُلتُ،
قالَ: لا تَسْأَلُنِي امْرَأَةٌ منهنّ إلَّا أَخْبَرْتُهَا،
إنّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعَنِّتًا، وَلَا مُتَعَنِّتًا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا.

الدَّرسُ الأوّل:

لم يكن النبيُّ ﷺ قليل المالِ دوماً،
ولكنّه كان أجودَ النّاسِ في فقرةِ وغِناه،
وقد بلغَ به الجودُ أن يُنفقَ على النّاس أكثر ماله، ولا يُبقي لنفسه وأهله إلا القليل،
وقد شعرتْ أُمهاتُنا بضيقِ العيش،
والمالُ عَجَلةُ الحياة للنّاس جميعاً مؤمنهم وفاجرهم!
وما من أَحدٍ إلا ويُحِبُّ رغدَ العيش، وهذا لا مسبّةَ فيه ولا منقصَة،
ولكن لا أحدَ له إيمان النبيِّ ﷺ ولا قلبه،
فلم تُطِقْ زوجاته ما كان يُطيقُ هو، فطالبْنَه أن يُكثر لهُنّ من النّفقة،

وقد أرادَ أن يكون لأهلِ بيته ما له من اليقين بالله، والصّدقة في سبيله،
وهذا ما أدخلَ الهمّ عليه، بأبي هو وأمي كان كله لله!

الدّرسُ الثّاني:

الخلافاتُ الزّوجية تقعُ في كلّ البيوت،
نحن بشر، طِباع وأهواء، نفسيّات وأَمْزِجَة،
والحياة مهما كانت سعيدة، من الطبيعيّ أن يتخللها بعض لحظات الكدر!
ولسنا نُنادي ببيوتٍ لا تقعُ فيها المشكلات،
فلو عُصِمَ منها بيتٌ لعُصِمَ بيت النبيّ ﷺ وأصحابه،
فهم أعلى النّاسِ إيماناً وأخلاقاً،
وإنما نُنادي أن نختلفَ بنُبلٍ، فلا نطغى ولا نفجُر، ولا نُريق كرامةً، بل نحفظُ ماء الوجوه!
جاءَ النّبيُّ ﷺ يوماً لزيارة ابنته فاطمة، فلم يجد علياً في البيت، فسأل عنه،
فأخبرتْه أنه قد حدث بينهما خلاف فخرجَ من البيت!
فتركها ومضى، وطلبَ من رجل أن يبحث له عن علي،
فعادَ إليه وأخبره أنه نائم في المسجد،
فذهب إليه، فإذا هو نائم واضع خده على الأرض وعليه بعض التراب،

فقال له: قُمْ أبا تُراب!

وجعلَ يمسحُ بيده الشريفة التراب عن وجهه!

وانُظُرْ لأدبِ النّبيّ ﷺ وحبِّه للسّتر،

لم يسأل فاطمة عن الخلاف الذي وقع بينها وبين زوجها،

ولم يطلب منها أن تُخبره بما قالت له،

ولا ما قال لها،

أراد أن يُعلِّمنا أن البيوت أسرار،

وأنّ تدخُّل الأهل في كل صغيرة وكبيرة في حياة الزوجين يُفاقم المشاكل،

فلا تُحاولوا كشف ما ستره الله، دعوا الأزواج تتخاصم وتتصالح!

فاطمة سيدة نساء العالمين، وهذا عليٌّ خليفتنا الراشد،

ومع هذا وقع بينهما خلاف فما بالك بنا نحن الذين دونهم،

فانظروا إلى المشاكل على أنها جزء من الحياة،

تقع وعلينا أن نحلها ونتعلم دروساً منها،

لا أن نفرط عُرى الأُسرة، ونُشرد الأولاد، ونصبح علكةً في كل فم!

وانظُرْ إلى حكمة النبي ﷺ، يذهبُ إلى علي ويترفّق به ويسترضيه،

ولا يُعاتبه عما حدث بينه وبين ابنته، حتى أنه لم يسأل ما الذي حدث،

وهذا درس بليغ للأهل في أن لا يتحزّبوا لأولادهم عندما تقع الخلافات الزوجية،

ولا يصبُّوا الزيت على النار،

على العكس يجب ألا ينسى أهل الزوج معروف كِنتهم السابق،

وماضيها ومواقفها النبيلة معهم،

ويجـب علـى أهـل الزوجـة أن لا يجعلـوا مـن زوج ابنتهـم شـيطاناً رجيمـاً،
لمجرد خلاف وقع بينه وبينها!
ويُعلِّمنا عليٌّ درساً هاماً أيضاً في أدب الخلاف، ومشاكل البيوت،
لقد خرجَ من البيت تاركاً فاطمة لتهدأ،
نحـن فـي غضبنـا نقـول أشـياء مُؤذيـة، ونسـمع مـن الآخـر أشـياء تُحزننـا،
فالأفضـل إذا وقـع الخـلاف ألا نقـف كالديـوك المُتصارعـة قبالـة بعـض،
هذا يسمع ويرد، وذاك يسمع ويرد!
ويُعلِّمنا عليُ درساً آخر أيضاً،
لقد خرج هو من البيت ولم يطرد زوجته منه،
كمـا يفعـل كثيـر مـن الأزواج اليـوم جاهليـن أن خـروج الزَّوجـة مـن البيـت يُفاقـم المشـاكل،
وهو أمرٌ جارحٌ لها ولأهلها،
ناهيـك عمّـا فيـه مـن فضـح الأُسـرة ونشـر غسـيلها أمـام الرَّائـح والغـادي!
فإذا وقع بينكما خلاف واحتدم اتركها في البيت واخرج،
وعُدْ عندمـا تهـدأُ، وتصبـحُ قـادراً علـى التفكيـر بمنطـقٍ، والتَّحـدث بلباقـة،
وهي حتماً ستهدأ ويعز عليها غيابك،
وتُقدِّر لك أنك تركتها في بيتها مُعزَّزة مُكرَّمة!

الدَّرسُ الثَّالث:

الحياةُ شاقةٌ على الجميع أزواجاً وزوجاتٍ،
ولا نملكُ إلا أن نُهوّنَ على بعضنا الطريق،
أن أحملها مرّةً وتحملني مرّةً، أن تُشفِقَ عليّ في جهادي لتحصيل لقمة العيش،
وأن أُشفِقَ عليها في جهادها مع الأولاد، والقيام بأعباء البيت!
الحياة المثاليّة الخالية من التّعب والكدر والمشقّة في الجنّة،
أما هذه فدنيا، دار الكدّ والتّعب،
وليس أمامنا من خَيارٍ إلا أن نُهوّنها بحناننا وأخلاقنا،
أو نزيدها قسوةً بأنانيتنا وقسوة قلوبنا!
شكتْ فاطمة إلى عليّ تعبها من عملها في البيت،
فأخبرتْهُ أنها جرّتْ بالرّحى حتى أثّرتْ في يدها،
واستقتْ بالقِربة حتى أثّرتْ في عُنقها، وكنستْ البيت حتى اغبرّتْ ثيابها!
فقال لها: لقد جِيء لأبيكِ بِسَبي، فلو ذهبتِ إليه وسألتِهِ خادماً!
فذهبتْ فاطمة إلى النبي ﷺ، فوجدتْ عنده أُناساً،
فلم تُحدِّثه أمامهم، ولكنها أسرّتْ لعائشة بسبب مجيئها، وعادتْ إلى بيتها!
فلما انفضّ مجلسُ النبي ﷺ،
أخبرتْهُ عائشة بسبب مجيء فاطمة، فذهب إلى بيتها،
وكانت وعليٌّ قد أخذا مضجعهما للنوم، فاستأذن ثم دخلَ،
فقال: ألا أدلّكما على ما هو خير لكما من خادم؟

إذا أخذتما مضاجعكما، فكبِّرا ثلاثاً وثلاثين، وسبِّحا ثلاثاً وثلاثين، واحمدا ثلاثاً وثلاثين،

فهو خير لكما من خادم!

هذه فاطمة سيدة نساء العالمين، وقطعة قلب أبيها،

تطحن الحبوب بالرَّحى حتى تترك الرَّحى أثرها في يدها،

وتحمل الماء إلى بيتها بالقرِبة حتى تترك القِربة أثرها في عنقها،

وتكنسُ بيتها حتى يكسو الغبار ثيابها،

فهل أنقصَ هذا من قيمتها عند زوجها، أو عند أبيها، أو عند ربها؟!

طبعاً لا شيء في أن تحصل المرأة على خادمة تُعينها على عمل البيت،

فهو واللّه عمل شاق صعب!

ونبيلٌ هو الزوج الذي يكون في سِعة مادية، وبحبوحة اقتصادية،

فيُحضر لزوجته خادمة تُساعدها،

والأنبل هو الأب الذي نظر في حال ابنة له، فرقّ لها وأحضرَ هو لها الخادمة،

على أنّ هذا لا يُلغي أن عمل البيت هو واجب الزوجة،

تماماً كما واجب الزوج العمل خارجه والإنفاق عليها،

بل وإِعانتها في أعمال البيت أيضاً لأنّ هذا من العِشرة بالمعروف!

ومما اُبتُلينا به في هذه الأيام هذه الأصوات النّاعقة،

التي تُحاول باسم حرية المرأة أن تَهدم البيوت القائمة على الستر،

وتمشية الحال بما هو متاح!

وتصوير عمل المرأة في بيتها نوع من أنواع الرِّق، وإهانة النفس البشرية!

ولستُ أدري أين الإهانة في أن تُطعم الزوجة عائلتها من صنع يدها،

وأن تغسل ملابسهم، وتُنظِّف بيتها!

إن قيل إنّ الأمر شاق وصعب، فهذا نبصمُ به بالأصابع العشرة،

ولكن هذه هي الحياة، لكل إنسان دوره، ولكل عمل مشقته!

أما طرح الموضوع وجعله عبودية، وإهانة للمرأة فهذه دعوى سخيفة!

إن حرية المرأة ليستْ بتجريدها من فِطرتها في أن تكون أماً وزوجةً وربةَ منزل،

وإنما بتقدير وتبجيل ما تقوم به، كلاماً وفعلاً،

كلاماً حلواً، وإشادة بدورها وأهميته،

بهدية بين الحين والآخر، بضمة، وقُبلة جبين ويد!

لم تكن فاطمة رقيقة ولا مُمتهنة الكرامة وإن كانت تتعبُ في عمل بيتها،

ولم يُحضر لها عليٌّ خادمة لأنه أراد أن يُتعبها وإنما لأنه لا يملك المال،

ولم يُعطها النبيُّ ﷺ خادمة لأنه عادل ولو أعطاها،

لكان عليه أن يُعطي كل امرأة في المدينة مثل ما أعطى ابنته!

الدَّرسُ الرَّابع:

البيـوتُ الهادئـة السّـعيدة المُسـتقرّة ليسـت التـي لا تحـدثُ فيهـا المشـكلات،
وإنما هي تلك التي تمرُّ فيها المشكلاتُ مروراً عابراً،
أيامٌ طويلةٌ من الحُبِّ فيها قليل جَفْوَة!
ولحظاتٌ كثيرةٌ من الطمأنينة تتخللها لحظة فَزَع!
وعُمُرٌ مليءٌ بالدّلال يشوبه أيّامُ إعراض!
وتاريخٌ حافلٌ باللطف تُنغّصه سويعاتٌ من القسوة!
هكذا هي بيوت الصَّالحين، وسيّد الصالحين نبينا ﷺ!
في أحد أسفار النبيّ ﷺ اصطحبَ معه عائشة،
وكانت يومذاك صغيرةً في السِّن، فأمرَ الجيشَ أن يتقدّمَ أمامه،
فلمّا غدا وحده معها قال لها: تعالي حتى أُسابقكِ!
فتسابقا، فسبقته عائشة!
ثم سار بها حتى التحقَ بالناس، وعاد أدراجه إلى المدينة.
ومرّت الأيام، كبرتْ عائشة في السن قليلاً، وزاد وزنها،
وكان على موعد مع السّفر، فأقرع بين نسائه على عادته،
فوقعتْ عليها القرعة فصحبها معه،
ثم في طريق العودة قال للناس: تقدّموا، فتقدّم الناس...
فلمّا غدا وحده معها قال لها: تعالي حتى أُسابقكِ!
فتسابقا، فسبقها، فجعلَ يضحكُ ويقولُ لها: هذه بتلك!
النبيُّ ﷺ عليه مُهِمّة دعوة البشرية قاطبة إلى اللّه،
ورئيس الدولة الذي عليه تحريك الجيوش،

وعقد الأحلاف، ومُراسلة الملوك، وتدبير شؤون الناس،
لم يشغله هذا كله عن أن يكون زوجاً،
ويُعامل زوجته باللُّطف واللين إلى درجة أن يُسابقها في الصَّحراء،
كأنه ليس على كاهله كل هذه المسؤوليات الجسام!
أراد أن يُعلِّمنا أن نكون مُتوازنين في حياتنا،
لا يشغلنا العمل عن العبادة، ولا تجعلنا العبادة نترك أعمالنا ونتكفّف الناس!
ألا يلتصق المرء بزوجته ويترك دنياه، ولا يلتصق بدنياه فيُهمل زوجته!
إنّ من مآسينا اليوم أننا نجعل شيئاً واحداً يسرقنا من كل شيء!
تجدُ التاجرَ يقضي نهاره في عقد الصفقات، وجمع الديون، وتسديد الفواتير،
فإذا عاد إلى بيته لا يهدأ جوّاله، اتصال على فلان، واتصال من فلان،
لا الزوجة تشعر بقُربه وهي التي تحتاج حنانه ودفأه كحاجتها إلى ماله بل أشدّ!
ولا الأولاد يشعرون أن لهم أباً وسنداً،
يحسبُ أن المال الكثير، والأثاث الفاخر، والسيارات الفارهة تملأ غيابه،
بينما في الحقيقة هم وجدوا المُعيل وفقدوا الأب،
فليس بالضرورة أن يموتَ المرءُ ليُفتقد،
يكفي أن يحضر بجسده ويغيب بقلبه وروحه حتى يصبح لا وجود له!

وتجدُ الزوجة مُولعة بالأثاث وترتيب البيت،
وهذا شيء جميل بالمناسبة ولا حرج فيه،
ولكن أن يصبح الأثاث أهم من البشر، ودورهم حراستها بدل استخدامها فهذا فيه من الحُمق،
أكثر ممّا فيه من الترتيب والأناقة!
وتجدُ المُولع بالقراءة متأبِّطاً كتابه في ساعة متأخرة من الليل،
وزوجته بجانبه تنتظر فقط أن يسألها كيف كان يومها فلا يسأل!
القراءة هواية عظيمة، وإنارة العقل مطلب جليل،
ولكن القراءة إنما يجب أن تكون على حساب وقتك لا على حساب واجباتك!
وتجدُ المتعلق بأصدقائه، كل يوم خروج وسهر،
يُريدُ أن يحيا حياة العزوبية وهو متزوج،
يُشعرها أن البيت قفص، وأنها سجّان،
وليس له سعادة إلا فتح باب القفص والخروج منه!
وصل الأصدقاء جميل، ومن الضروري أن يكون للمرء طقوسه الخاصة،
ولكن الظلم أن تكون حياته كلها طقساً خاصاً!
تاجر ما شئتَ، واقرأ كما يحلو لكَ، واجعلْ لكَ صُحبة،
ولكن تذكّر أنّ لك زوجةً وأولاداً وأن أشياء صغيرة لا تُكلِّف شيئاً،
هي التي تصنع سعادة الآخرين!
اهتمِّي بنفسك، رتِّبي بيتك، ولكن تذكري أن هذه وسائل لإسعاد زوجك وأولادكِ،
وليست غايات بحد ذاتها، وإلا تحول الأثاث إلى صنم في البيت،
له من التبجيل كما كان لأصنام قريش ذات يوم عند الكعبة!

الدّرسُ الخامس:

بنتُ الأصول تصبرُ على زوجها وتكون معه على الدّنيا،
وقليلةُ الأصل، كثيرة الشكوى، تكون مع الدّنيا على زوجها!
وإنّ معادن النّاس لا تظهرُ في الرّخاء وفي الوِفاق،
هذه لحظاتٌ يكون النّاسُ فيها جميعاً نُبلاء!
وإنما إذا أدبرتِ الدّنيا تباينوا، وظهرَ الخبيثُ من الطّيب،
وإنّ الحياةَ نهاية المطافِ مواقف!
جاءَ إبراهيم عليه السّلام إلى مكّة بعد فراقها لسنوات،
وذهبَ إلى بيتِ إسماعيل عليه السّلام، فسألَ زوجته عنه،
فقالت: خرجَ يبتغي لنا، أي يُحصّل رِزقنا!
ثم سألَها عن حالِهم ومعاشِهم،
فقالتْ: نحن في شرٍّ، نحن في ضِيقٍ وشِدّة، وأخذتْ تشكو إليه وهي لا تعلم من هو.
فقال لها: إذا جاءَ زوجكِ فاقرئي عليه السّلام، وقولي له يُغيِّر عتبةَ بابه!
فلما جاء إسماعيل عليه السّلام، كأنّه شعرَ بشيءٍ، فسأل زوجته: هل جاءكم من أحد؟
فقالتْ: نعم، جاءنا شيخٌ أوصافه كذا وكذا، فسألنا عنكَ فأخبرته،
وسألني كيف عيشنا فأخبرْتُهُ أننا في فقرٍ وشِدّة!
فقال لها: وهل أوصاكِ بشيء؟
فقالت: نعم، أمرَني أن أقرأ عليكَ السّلام، ويقول لكَ غيّرْ عتبة بابكَ!

قال: ذاكَ أبي، وقد أمرَني أن أُطلِّقكِ، الحقي بأهلكِ!
لم يَعِبْ إبراهيم عليه السّلام زوجة ابنه في عرضها،
معاذ اللّه، ثمّ إنّ بيوت الأنبياء معصومة من هذا وإن لم تُعْصَمْ من الكُفر!
وخيانة زوجتي نوحٍ ولوطٍ عليهما السّلام الواردة في القرآن،
هي خيانة العقيدة والكفر لا خيانة الفِراش!
ولكنه عابَ عليها كثرة تذمرها وشكواها وقِلّة رضاها،
فالمرأة كثيرة الشكوى والتبرُّم من أمور الرزق، نائبة من نوائب الدّهر، والرجال كذلك!
وعادَ إبراهيم عليه السّلام مرةً أخرى لزيارةِ ابنه،
فلم يجده أيضاً، ولكنه وجدَ زوجته الجديدة التي تزوّجها بعد طلاق الأولى،
فسألها عنه، فقالت: خرجَ يبتغي لنا!
قال: كيف أنتم؟ وكيف عيشكم؟
فقالتْ: نحن بخيرٍ وسَعَة، وأثنتْ على اللّهِ خيراً.
فقال: ما طعامكم؟
فقالت: اللحم.
فقال: ما شرابكم؟
فقالت: الماء.
فقال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء!
ولم يكن لهم من طعام غيره وإلا لكان دعا لهم بالبركة فيه!
ثم قال لها: فإذا جاءَ زوجكِ فاقرئي عليه السّلام وقولي له: ثبِّتْ عتبةَ بابكَ!

فلما جاء إسماعيل عليه السّلام قال لها: هل أتاكم من أحد؟
فقالتْ: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنتْ عليه،
وسألني عنكَ فأخبرته، وسألني عن عيشنا فأخبرته أننا بخير!
فقال: فهل أوصاكِ بشيء؟
قالتْ: نعم، هو يقرأ عليكَ السلام ويأمركَ أن تُثبِّت عتبة بابك!
فقال: ذاكَ أبي، وأنتِ العتبة، وقد أمرني أن أمسككِ!
إسماعيل عليه السّلام هو إسماعيل عليه السلام مع زوجته الأولى والثّانية،
ليس له من طعام غير ما يصطاده بقوسه ونشّابه،
فقد كان من أمهر النَّاس بالرميِّ،
وقد مرّ النبيُّ ﷺ على أصحابه وهم يتدربون على الرمي،
فقال: ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً!
ولكن الفارق هو نظرة كل من الزوجتين إلى الرزق الذي يُحصِّله زوجها،
الأولى مُتبرِّمة مُتسخِّطة، والثانية قانعة راضية،
هذا لأن الغنى إنما مصدره ما في قلب المرء لا ما في جيبه!
والأولى امرأة فاضحة هاتكة للأسرار، تنشر أمور بيتها، وتشكو زوجها،
والثّانية امرأة ساترة حافظة للأسرار شاكرة للنعم،
إن وجدتْ خيراً حمدت الله وإن وجدتْ ضيقاً صبرتْ وحمدت الله كذلك!
المرأةُ الصالحةُ القانعةُ كنزٌ من كنوزِ الدنيا فتمسّك بها بأسنانك وأظفارك،

واغفر لها ما يكون منها نظير صبرها ورضاها،
فلا أحد يخلو من خطأ، وأنتَ لستَ كاملاً لتطلب فيها الكمال،
ولكن ثمة صفات تغفر كل ما عداها،
فلا تترك كثير خير لأجل قليل شر، فنحن لسنا أنبياء!
وعلى الأهل إن رأوا في كِنتهم صبراً ورضى، وحسن خُلُقٍ وعقل،
أن يمدحوها أمام ابنهم، وأن يأمروه بالحفاظ عليها، فهذا خلق الأنبياء،
وما يُقال في الكِنة يُقال في الصِّهر أيضاً!

الدّرسُ السّادس:

لم يأذن النبيُّ ﷺ بدخول الناس عليه، لأنه ليس في مزاجٍ يسمحُ له برؤية الناس،
فهل قدّرنا نحن أن المرءُ يحتاجُ أحياناً وقتاً مع نفسه، يستريحُ به من وعثاء الحياة!
ولكنه أذِنَ لأبي بكر وعمر لأن المشكلة كانت مشكلةً عائليّةً،
وكلاهما حمىً له، فأبو بكر والد عائشة، وعمر والد حفصة،
وهذا درس بليغ ألا يجعل أحدنا مشاكل بيته مشاعاً للنّاس،
لا بأس بأن يطلع أهل الزوجة والزوج فقط،
وحبذا لو بقيتْ بين الزوجين فهذا أفضل،
ولكن من سُنن الحياة في الزواج أن الأمور تخرجُ أحياناً عن السَّيطرة!

الدّرسُ السّابع:

لم يهُنْ على عمر بن الخطاب هذا الحزن الذي رآه على وجه النبيِّ ﷺ فأراد أن يضحكه،
فأخبره طرفةً هي من نوع المشكلة الرَّاهنة،
أي طلب أمهات المؤمنين النفقة من النبي ﷺ، ولم يكن وقتها يملكُ مالاً،
ومن فقه التسلية عن الناس في المشاكل، أن تخبرهم أن كل البيوت تقع فيها الخلافات،
ويُقال للزَّوج كلّ الزَّوجات كذلك، وللزَّوجة كل الأزواج كذلك،
وما أنتم إلا جزء من الناس،
فالتسلية عن المكدّر والحزين من جبر الخواطر، وجبر الخواطر عبادة!

الدّرسُ الثّامن:

لم يرضَ أبو بكر وعمر أن تطلب ابنتاهما نفقةً ليست عند النبي ﷺ وهذا نُبل الآباء،
فإذا عرفَ الأهل وضع الزوج وقلة ذات يده،
يجب عليهم أن يأخذوا على يد ابنتهم، وأن تعيشَ بما قسم اللّٰه لها،
لأنّ كثرة الطّلبات من زوج لا يجد مالاً كثيراً، يُثقل كاهله، ويشعره بالعجز،
وهو مدعاة للنُّفور بين الزّوجين، وخراب الأسرة، فترفَّقُوا!

44

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾

على استحياءٍ،
مشْيَ المَلكاتِ، لا على بساطٍ أحمر،
وإنّما على بساطِ الحياء!
لم يُحدّثنا القرآنُ عن جمالها، فالجمَالُ يفنى،
ولم يُحدّثنا عن قوامِها، فالقوامُ طعام الدّود!
حدَّثنا القرآنُ عن أجمل ما في النِّساء: الحياء!
مستحضرُ التَّجميلِ الفاتنِ، والعطرُ الذي يُخفى فيفُوح!
ثم وهل حرمها الحياءُ عريساً يا أخيّتي؟
إنّ التي جاءتْ تمشي على استحياءٍ تزوّجتْ نبيًّا!

45

قال رجلٌ من اليهود لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرؤونها،

لو علينا معشرَ اليهود نزلتْ لاتخذنا ذلكَ اليوم عيداً!

فقال له عمر بن الخطاب: أيُّ آية؟

فقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾

فقال عُمر: قد عرفنا ذلكَ اليوم، والمكان الذي نزلتْ فيه على النبيِّ ﷺ،

نزلتْ يوم الجمعة وهو قائِمٌ بعَرَفة!

الدَّرسُ الأوّل:

كان يوم عرفة يوماً مهيباً،

النبيُّ ﷺ على جبل النور يتهيأ لأعظم خطبة في التاريخ،

مئة وعشرون ألفاً من أصحابه ينتظرونه ليتحدث ليأخذوا عنه،

يا اللّه كيف تتغير الدُّنيا بسرعة،

قبل ثلاثة وعشرين سنة من هذه اللحظة،

نزل النبيُّ ﷺ من غار حراء يرتجف من هول الوحي،

وبين أولى كلمات القرآن «اقرأ»، وبين أولى كلمات خطبة الوداع «أيّها الناس»،

كم تعبَ وذاق الأذى وكابد المشقة ليكون لنا اليوم دين،
اتَّهموه بالكذب والسِّحر وقد سمُّوه من قبل صادقاً أميناً وهو كذلك،
وضَعُوا على رأسه سلا الجزور وهو ساجد عند الكعبة، وأسمعوه من الكلام ما يكره،
حاصرُوه في شِعب أبي طالبٍ حتى مسَّه الجوع مسَّاً،
رجمُوه في الطَّائف حتى سال الدَّمُ من قدميه الشَّريفتين،
تآمروا على قتله وأرادوا أن يتفرّق دمُه بين القبائل،
استكثروا عليه حتى أن يكون له ثأر!
أخرجوه من قريته التي يُحِبُّ،
وقاتلوه في بدر وأُحد وشجُّوا الرأس الشريف وأسالوا دمه،
وحاصرُوه في غزوة الأحزاب حتى بلغتْ قلوبُ أصحابه الحناجر،
وردُّوه عن البيتِ الحرام وقد جاءَ معتمراً،
ثم جاء نصر الله والفتح، فاللهُمَّ اجزِه عنَّا خير ما جزيتَ نبياً عن أُمَّته!

الدَّرسُ الثَّاني:

الرَّجل الذي بدأ بالأمر وحيداً صار اليوم أُمَّة،
إنَّه محمد ﷺ أعظم إنسان في تاريخ هذه البشرية،
الأميُّ الذي علَّم المتعلمين والفلاسفة والخبراء والمثقفين،
اليتيم الذي ربَّى آباء العالم وأمهاته،

الفقير الذي أرسى الزكاة، وحثَّ على الصَّدقة، ووزَّع المال توزيع من لا يخشى الفقر،
الذي لم يدخل كُليّةً عسكريه ولكنه حارب كما الأبطال الشُّرفاء،
والذي لم يدخل كُليَّة السياسة ولكنه كان أرفع رجل دولةٍ في التّاريخ،
الأب الحنون الذي كان يفيضُ حُبًّا،
والزوج الخلوق الذي كان ينبضُ حناناً،
الحليم الذي لم يكن يغضب لنفسه ابداً،
المتواضع الذي صعد إلى السماء السَّابعة،
ثم عاد إلى الأرض يحلبُ شاته، ويخصفُ نعله، ويأكل مع المساكين،
الزَّاهد بالدُّنيا حتى كان الحصير يؤثر في جنبه،
ويجلسُ بين أصحابه فلا يتميَّزُ عنهم بشيء،
حتى أن الأعرابي كان يجيء إلى مجلسه فيسأل: أيكم محمد؟!
الصَّابر الذي فقد كل أولاده في حياته إلا فاطمة،
الرَّاضي الذي فقد زوجته خديجة، وعمَّه أبا طالب، وحبيبه حمزة،
الخلوقُ، الخلوقُ جداً الذي تقول عنه عائشة: كان خُلقُه القرآن!

الدَّرسُ الثَّالث:

كان دوماً يبدأ بنفسه، فإذا أمرَ أمراً كان أول من يأتمر به،
وإذا نهى عن أمرٍ كان أول من ينتهي عنه،

وعلى مدى ثلاثٍ وعشرين سنة لم يُخالف فعله قوله ولو مرَّةً!
في غزوة بدر دفعَ أقاربه للمبارزة، لم يُخبئهم ويُحارب بأولاد الناس!
وفي غزوة مؤته رثى ابن عمه جعفر بن أبي طالب!
وعندما وقف يوم عرفة لِيَسُنَّ القوانين بدأ بأهله،
وضعَ الجاهلية كلها تحت قدميه، كان أوّل رِبىً وضعه رِبى عمه العباس،
وأوّل ثأر وضعه ابن عمه عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب،
وعندما أراد أسامة بن زيد أن يشفع للمخزومية في حد السَّرقة،
وسأله ألا يقطع يدها،
غضبَ من أسامة غضباً شديداً، وكان لا يغضب إلا للّهِ،
وقال له: أتشفعُ في حدٍّ من حدود اللّهِ يا أسامة؟
ثم صعد المنبر وقال للناس: وأيمُ اللّه، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها!
وحاشا فاطمة، ولكنّه أراد أن يُخبرنا أنّه لا أحد فوق شرع اللّه!
وأنّ النَّاس سواسية كأسنان المشط!

الدَّرسُ الرَّابع:

قال لأصحابه يومها بملءِ صوته:
أيها الناس إنَّ ربكم واحد، وإنَّ أباكم واحد، كلكم لآدم وآدمُ من تراب!

هذا هو الإسلام العظيم الذي لا يتفاضلُ فيه النَّاسُ إلا بالتقوى!
أبو لهب الهاشميُّ في النّار، وبلال الحبشيُّ في الجنّة،
أبو جهل القرشيُّ في النّار، وسلمان الفارسيُّ في الجنّة،
أميّة بن خلف العربيّ في النّار، وصهيبٌ الروميّ في الجنّة!
لو كان النَّسبُ ينفع عند اللّه لانتفعَ أبو لهب!
ولو كان الملك ينفع لانتفعَ النمرود وفرعون!
ولو كان المال ينفع لانتفعَ قارون!
ولكنها التقوى لا غير، إنّ أكرمكم عند اللّه أتقاكم!

46

﴿فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾

يعلمُ اللّٰه أن بعضَ الكلامِ كوخزِ الإبر!
وبعضُ الجُمَل طعناتٌ دامية،
وبعضُ التَّعليقاتِ سكاكينُ جارحة،
وبعضُ التَّلميحات رصاصٌ موَجَّه إلى القلب بدِقَّة!
كم من نوم سُلِبَ بكلمة،
وكم من عِرضٍ انتهكَ بكلمة،
وفي السّنة: ثكلتكَ أمّك يا معاذ،
وهل يكبُّ الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم،
وفي القرآن: ﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾
فلا تستهينُوا أبداً بأثر الكلمات!

47

جاءَ عبدُ اللّه ابنُ أُمِّ مكتوم إلى النبيِّ ﷺ،
وجعل يقولُ له: يا رسول اللّه أرشِدْني،
وعند النبيِّ ﷺ رجلٌ من عظماء المُشركين،
يرجو أن يُسْلِمَ، فيسلم بإسلامه غيره من الناس،
فجعلَ النبيُّ ﷺ يُعرِض عن ابن أم مكتوم،
ويُقبلُ على المشرك،
فأنزلَ اللّه تعالى قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾

الدَّرسُ الأوّل:

النبيُّ ﷺ إنسان نهاية المطاف،
ويقعُ منه ما جُبل عليه الناس فلا أحد يستطيع أن يخرج عن الطَّبع البشريِّ،
فقد بكى موت خديجة، وعمَّه حمزة، وابنه ابراهيم،
وهو في حزنه البشريّ هذا له قلب الأنبياء في الرّضى والتَّسليم،
وكان يُحبُّ عائشة أكثر من غيرها من زوجاته،
وحُبُّ الرّجلِ للمرأة فطرة لا تقدح في تمام النبوة بل تُزينها بالنَّزعَة الإنسانيَّة!
ولكنه حين مالَ بقلبِه كان له عدل الأنبياء في المُعاملة!
وقد غضبَ موسى عليه السَّلام من قبل وألقى الألواح!

وما وقع من النبيِّ ﷺ من عُبوسٍ في وجه ابن أم مكتوم،
إنما هو من طباع البشر الذين هو منهم،
ثُمَّ إنَّ هـذا العبـوس مـا كان إلا حرصـاً علـى ديـن اللّه، وهمّـاً ثقيـلاً فـي نشـر الإسـلام،
ولم يكن استنقاصاً شخصياً مقصوداً لابن أمِّ مكتوم،
ولكنّـه كان يعـرفُ كمـا نعـرفُ جميعـاً أن النّـاس منـازل، وبعـض النـاس مفاتيـح لغيرهـم،
وأنا وأنت نعرفُ أنه قد يكون للقبيلةِ الكبيرة، وللعائلةِ الواسعة،
رجلٌ مرموقٌ، وسيِّدٌ مُطاعٌ لا يخرج أحدٌ عن رأيه،
فإذا أردتَ من الجميع أمراً أتيتَ هذا السَّيد لِما تعرفُ من مكانته،
وهذا بالضبط ما فعله النبيُّ ﷺ،
ومن تمام الإيمان ألا يُحمل فعلُه ﷺ على غير هذا المَحمل!

الدَّرسُ الثّاني:

كُنْ ليِّناً، فإنَّ اللّه تعالى قد عاتبَ نبيَّه ﷺ،
علـى العبـوس فـي وجـه رجـل لـم يـرَ عبوسـه، فكيـفَ لـو كان ابـن أم مكتـوم يـرى!
النَّاسُ خواطر وكرامات، وإنَّ كسر خواطرهم، وجرح كراماتهم مؤذٍ،
وإنَّ كسْـرَ القلـبِ مؤلـم أكثـر مـن كسْـرِ العظـم، وإن لـم يُحـدث هـذا الكسـر صوتـاً!
انتبه لتعابير وجهك فبعض النظراتِ قاتلة، وبعض الإِعراضِ أليم،

وانتبه جيداً لمفرداتك فبعضُ الكلام جارح،
ورُبَّ كلمةٍ لا تنتبه لها، تنغرسُ كالرِّمح في قلب سامعها فتدميه،
وإنْ كان العبوس قد حصل من النبيِّ ﷺ،
فهي حادثة يتيمة قد شرحنا أسبابها وبيَّنا ظروفها،
وإلا فهو بأبي وأمي جبَّارُ خواطر ومراعي كراماتٍ ومشاعر،
ولو أردنا أن نتتبَّعَ أدبَه ولُطفه وظُرْفَه وحنانه في مواقف حياته،
لألّفنا كتاباً ضخماً يفوق ألف صفحة!
وإني لأقف مطولاً كل مرَّةٍ عند إسلام عكرِمة بن أبي جهل،
حيث قال النبيُّ ﷺ لأصحابه:
يدخلُ عليكم عكرمة بن أبي جهلٍ مسلماً فلا تسبوا أباه!
راعى خاطر الحيِّ في ألا يُؤذى بميِّته، وإنَّ هذا الميت كان فرعون هذه الأمة!

الدَّرسُ الثَّالث:

لا تحكُمْ على النَّاسِ بالمظاهر،
فكم من أنيقٍ في صدره قلبٌ متسخ، وكم من رثِّ الثياب في صدره قلب أنيق!
وقيمة الإنسان الحقيقية بما في قلبه لا بما في جيبه،
بأخلاقه لا بمنزلته ورتبته، بأدبه لا بشهادته ووظيفته!
وإنك لترى الرجل المسكين البسيط فلا تحسبه شيئاً، وهو عند اللّهِ حبيب أريب،

وقد ضحك الصحابة من دقة ساقي عبد اللّٰه بن مسعود،
فأخبرهم النبيُّ ﷺ أن ساقيه أثقل في الميزان من جبل أُحد!
وإنك لو كنت في المدينة على عهد النبوة،
ودخلتَ المسجد فرأيتَ أهل الصُّفة في آخره لا يجدون رغيفاً يسدُّ رمقهم،
لهانوا في عينيك إذا نظرتَ إليهم نظرة المظاهر الخادعة،
ولكن متى علمتَ أنَّ فيهم أبا هريرة أكثر الصحابة روايةً للحديث،
وفيهم أبو عبيدة بن الجراح أمين هذه الأمة،
وفيهم سالم مولى أبي حذيفة حامل القرآن واللواء،
وفيهم سلمان الفارسي صاحب فكرة الخندق،
وفيهم عبد اللّٰه بن مسعود النَّحيل الذي مُلئ علماً،
وفيهم عمَّار بن ياسر الشَّهيد ابنُ الشهيدة الأولى في الإسلام،
وقتها فقط لعلمتَ أنَّ للّٰهِ حسابات أخرى غير حسابات الناس!
وإنكَ لو جئت المدينة في خلافة أبي بكر،
ورأيته في الطريق نحيلاً لا يكاد إزاره يثبتُ على خصره،
لأشحتَ نظركَ عنه ولم تحسبه شيئاً،
وهو صاحب نبيِّك الأوفى، وأعلى الناس إيماناً بعد الأنبياء،
الصِّنديد العنيد الذي قال: أينقص الدِّين وأنا حيٌّ؟
المحارب الشَّرس الذي أدَّبَ المرتدين!
وإنك لو جئت المدينةَ في خلافة عمر بن الخطاب،
ورأيته في الطريق ماشياً بثوبه المُرقَّع، لربما قلتَ: يا له من مسكين!
ولكنه عُمر هازم الإمبراطوريات وفاتح البلاد،

رجل الدولة الفذ، صاحب الدواوين والتقويم الهجريِّ،
وهو قبل كل هذا الرَّجل الذي يهربُ الشيطان منه!
فلا تكُن سطحياً، ولا تخدعنَك المظاهر!

الدَّرس الرّابع:

النَّقدُ ليس مرادفاً للكره كما نتوهَّم، بل هو من أعلى صور الحُبِّ،
بشرط أن يكون له أدبه وتوقيته وأسلوبه،
وها هو ربُّنا يُعاتب حبيبه، فاعلم أنَّ من تلاطَفَ بنقدك فقد أحبَّكَ،
ومن زيَّنَ لكَ الخطأ فقد أبغضكَ،
ومن رآكَ على خطأ فأمسك بيدكَ وأرشدكَ، فهو صديق أمين فقرِّبه،
ومن رآكَ على ظلم أو معصيةٍ فسَكتَ عنكَ، فهو عدو في ثياب الصديق فاحذره!

48

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾

زكاتها أمران:
تركُ المنهيِّ عنه، وفِعلُ المأمور به!
وإنَّ المرء يُثابُ على ما لم يفعل امتثالاً لنهي اللّٰه،
كما يُثابُ على ما يفعل امتثالاً لأمر اللّٰه وربّما أكثر!
لأنّ التّرْك للّٰه يحتاجُ أحيانا بطولة أكثر من الفِعل للّٰه،
أنْ تُصلي أسهل من ألا تزني!
وأنْ تتصدَّقَ أسهل من أن تغُضّ بصرك!
وأنْ تصومَ رمضان أسهل من ألا تأكل الحرام على مدار العام!
الطاعةُ مُنساقة مع الفطرة، والفطرةُ تستأنس عندما تُشبَع،
والمعصيةُ مُنساقة مع الغريزة، والغريزةُ تُوجِعُ عندما تُقمَع!

49

حاصَر النبيُّ ﷺ يهودَ بني قُريظة إحدى وعشرين ليلةً،
وذلك بعد أن نقضُوا العهد وانحَازُوا إلى الأحزابِ في غزوة الخندق،
فسألوا النبيَّ ﷺ الصُّلحَ،
على ما صالحَ عليه إخوانَهُم من يهودِ بني النَّضِير،
فيرحلونَ عن المدينة إلى اليهودِ في أريحا وبلاد الشام،
فأبى النبيُّ ﷺ أن يُجيبهم إلى هذا،
حتى ينزِلُوا على حُكم سعدِ بن مُعاذ،
فرفضوا هذا، وقالوا: أرسِلْ إلينا صاحبكَ أبا لُبابة،
وكان حليفاً لهم في الجاهليَّةِ، وبينه وبينهم تجارة بعدَها،
فبعثه النبيُّ ﷺ إليهم، فجاءهم،
فقالُوا: يا أبا لبابة ما ترى، أننزلُ على حُكم سعدِ بن معاذ؟
فأشار أبو لبابة إلى حلقه: إنّه الذَّبحُ فلا تفعلوا!
قالَ أبو لبابة: واللّهِ ما زالتْ قدمايَ حتى علمتُ أنّي قد خنتُ اللّه ورسولَه!
وأنزلَ اللّه تعالى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾
فشدَّ أبو لبابة نفسَه على ساريةٍ من سواري المسجد،
وقال: واللّهِ لا أذوقُ طعاماً ولا شراباً، حتى أموتَ أو يتوبَ اللّهُ عليَّ!
فَمكث سبعةِ أيامٍ لا يذوقُ طعاماً ولا شراباً حتى خرَّ مغشياً عليه!
ثم تابَ اللّهُ عليه..

فقيل له: يا أبا لبابة قد تابَ اللّهُ عليكَ.
فقال: لا واللّهِ لا أحلُّ نفسي حتى يكون النبيُّ ﷺ هو الذي يحُلُّنِي!
فجاءَ النبيُّ ﷺ فحلَّه بيده الشريفة.
فقال أبو لبابة: إنَّ من تمام توبتي،
أن أهجر دار قومي التي أصبتُ بها الذُّنب!
وأن أنخلع من مالي!
فقال له النبيُّ ﷺ: يجزيكَ الثلثُ أن تتصدقَ به!

الدَّرسُ الأوّل:

أُمرنا أن نُحْسِنَ إلى الناس جميعاً،
لا نظلِمُ إنساناً ولو كان كافراً،
ولا نسرقُ مال إنسانٍ ولو كان يعبدُ صنماً،
ولا نغشُّ إنساناً ولو كان مُلحداً،
ولا نحطُّ من عرضِ امرأة ولو كانت على غير ديننا،
أخلاقُنا نستقيها من كتاب ربّنا ومن هدي نبيِّنا،
الآخرون ليسوا مرآةً لأخلاقنا إن أحسنوا أحسنَّا وإن أساؤُوا أسأنا!
ونحن نعيش في مجتمعات هي مزيج من النَّاسِ من كل دينٍ وعِرقٍ ومذهب،
زميلي النَّصرانيُّ أعامله بالخُلق الحَسن وأراعي خاطره،
وزميلتكِ التي على غير دينكِ ومذهبكِ تزورينها إذا مرِضتْ،

جاري الملحِدُ أصِله بحقِّ الجِوار الذي جعله له الإسلام عليَّ،
وصديقُكَ في الجامعة الذي على غير دينك تلينُ معه،
ولكن العقيدة أولاً وأخيراً!
نُكرِمُ الأخرين بما هو حلال في ديننا،
ونَصِلُهُم بحدود المباح الذي لا يوقعنا في الإثم،
ونحفظُ لهم معروفهم، ونكافئُهم عليه، بما نُثاب فيه لا بما نأثم به!

الدَّرسُ الثَّاني:

المؤمن ليس معصوماً عن الخطأ،
ولكنه وقَّافٌ عند الحقِّ!
ومن أحبِّ الأحاديث النبويَّةِ إلى قلبي، قول النبيُّ ﷺ:
ما من عبدٍ مؤمن إلا وله ذنب يعتاده الفَيْنَةَ بعد الفَيْنَة،
أو ذنبٌ هو مقيمٌ عليه لا يُفارقُه حتى يُفارق!
إنَّ المؤمن خُلقَ مفتَّناً، تواباً، نسَّاءً، إذا ذُكِّرَ ذَكَرَ!
فإن وقع منك ذاك الذَّنبُ المُعتاد،
الذي تواقعه ثم تتوب عنه، وتتوب عنه ثم تواقعه،
أو هو ذَنْبٌ جديدٌ طارئ،
فالأصلُ أن ترجعَ فوراً وتتوب، ولا تتمادَ!
إذا نظرتَ إلى حرام،
فمتِّعْ عينيكَ بصفحاتٍ في مصحفك!

وإذا لمستَ ما لا يحِلُّ لكَ،
فاغسِل هذه اليَدَ بصدقةٍ على فقير!
وإذا مشيتَ إلى حيث ما كان يجب أن تَمشي،
فاصحَبْ قدميكَ إلى المسجدِ تكفيراً،
وامشِ في قضاءِ حاجة مسلم استغفاراً،
أما إذا كان الذَّنبُ في حقٍّ من حُقوق العباد،
فلا توبةَ إلا بإرجاع الحقِّ إلى أهله،
ما كان بينك وبين اللّه، تُبْ منه بينكَ وبين اللّهِ.
وما كانَ بينكَ وبين الناس، فحُلّه بينك وبين الناس!

الدَّرسُ الثّالث:

تابَ اللّهُ تعالى على أبي أُمامة،
ولكنه رفضَ أن يُحلَّ نفسه من وثاقه،
حتى يأتي النبيُّ ﷺ ويحلُّه بيده الشريفة،
وأنتَ فاعلَمْ:
أنه وإن غابتْ يدُ جَسَدِ النبيُّ ﷺ،
فإنَّ يدَ شرعه باقيةٌ ما بقيت الدُّنيا،
فلا ترضَ إلا أن تحلَّ نفسك بها!
فإنْ فاتتكَ صلاةُ الفجرِ في وقتها،
صلّها في أقرب وقتٍ ذكرتَها فيه،
ثم توّجْ هذا القضاء بركعتين تركعهما من الضُّحى،

وإن جرحتَ يوم صيامكَ بذنبٍ عابرٍ،
رمِّمْ هذا اليوم بصيام يوم تطوع مكانه تعتذِرُ من اللّٰه تعالى فيه،
إنْ فاتكَ وردكَ من القرآن في النَّهار،
فاقرأه في الليل ففيه مُتَّسَع،
وإنْ غفلتَ عن أذكار الصَّباح،
فسبِّح في الظَّهيرة، في كلِّ الأوقاتِ فُسحة!
وإن بخلتَ في صدقةٍ ثمّ لمتَ نفسَكَ،
فعاجِلْ بصدقةٍ مكانها في موضع آخر!
وإن وجدتَ في نفسِكَ عُجُباً وكِبراً بسبب منصبٍ أو مالٍ،
فتذكَّرْ أنَّ هذه النَّفس فرسٌ جمُوح،
إمّا أن تركبها أو تركبكَ!
ذلَّ كبرياءها بما يُؤدِّبها،
اشترِ طعاماً وكُلْه مع عمَّالٍ بسطاء في ورشة أو محطَّة،
زُرْ بيت فقيرٍ معدمٍ لتعرفَ أنّك لولا فضل اللّٰهِ لكنتَ مكانه!

الدَّرسُ الرَّابع:

الصَّدقةُ تُطفئُ غضبَ الرّب كما يُطفئَ الماءُ النَّارَ!
فكلِّلْ كل توبةٍ لكَ بصدقة!
وليست الصَّدقة قرينة التَّوبة فقط،
وفضائلها تتخطى ألا تصْلُحَ إلا اعتذاراً!
بالصَّدقة يُدفعُ بلاءٌ لا يُدفَعُ بغيرها،

يقول النبيُّ ﷺ: باكِروا بالصَّدقة،
فإن البلاء لا يتخطّى الصَّدقة!
وقال يحيى عليه السَّلام يُوصي بني إسرائيل:
آمرُكمُ بالصَّدقة، فإن مثل ذلك رجل أسرَه العدُوُّ،
فأوثقُوا يده إلى عُنقه، وقدَّمُوه ليضرِبُوا عنقَه،
فقال: أنا أفتدي منكم بالقليلِ والكثيرِ، ففدى نفسَه منهم!
والصّدَقة تُطهِّرُ المال الذي نجنِيه،
دخلَ النبيُّ ﷺ السُّوقَ يوماً، فقال للتُّجارِ فيه:
يا معشر التُّجار: إنَّ هذا البيع يحضرُه اللغوُ والحَلِفُ، فشُوبُوه بالصَّدقة!
وأنتَ، اِجعلْ لك صدقةً من راتبك عند استلامِه!
والصَّدقةُ دواءٌ وعلاجٌ، تُدفعُ به الأسقام دفعاً،
يقولُ النبيُّ ﷺ: داوُوا مرضاكم بالصدقة!
وشكا رجلٌ إلى عبد الله بن المبارك، قرصةً خرجتْ في رُكبته منذ سبع سنين،
وقد عالجها بأنواعِ العِلاج، وسألَ الأطباءَ فلم يبرأْ،
فقالَ له ابنُ المبارك: اِذهبْ فاحفِرْ بئراً في مكانٍ يحتاجُ النَّاسُ فيه الماءَ،
ففعلَ الرجلُ هذا، فبرئَ بإذن الله!
والصَّدقةُ أنفعُ وسيلةٍ لزيادة المال والبركة فيه،
يقولُ النبيُّ ﷺ: ما من يوم يُصبحُ العبادُ فيه،
إلا ملكانِ ينزلان فيقولُ أحدُهما: اللهُمَّ أعطِ مُنفِقاً خَلَفاً!
ويقولُ الآخر: اللهُمَّ أعطِ مُمسِكاً تلَفاً!

ثُمَّ إنَّ كلَّ المال ذاهبٌ نهاية المطاف،
ولا يبقى للعبدِ من ماله إلا ما تصَّدقَّ به واستبقاه عند اللّه تعالى،
ذُبحتْ شاةٌ في بيتِ النبيِّ ﷺ، فأمرَ عائشة أن تتصدقَ ببعضها،
فلما عادَ سألها عن الشاة، فقالت: ما بقيَ منها إلا كتفها!
فقال لها: بقيتْ كلُّها إلا كتفها!
والصَّدقةُ تحجبُ المسلمَ عن النَّار يوم القيامة!
يقول النبيُّ ﷺ كما في البخاريِّ ومُسلم:
ما منكم من أحدٍ إلا سيكلِّمُه اللّه، ليس بينه وبينه تُرجمان،
فينظر أيمنَ منه فلا يرى إلا ما قدَّمَ،
فينظر أشأمَ منه فلا يرى إلا ما قدَّمَ،
فينظر بين يديه فلا يرى إلا النَّارَ تلقاءَ وجهه، فاتقوا النَّار ولو بشقِّ تمرة!

50

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾

جاءَ موسى عليه السَّلام وملأ بكاؤُه القصرَ،
آسيا تريدُه أن يرضع،
وفرعونُ يريده أن يسكت،
الكلُّ مشغولٌ به، هذا يأتي بمرضعٍ
وذاك يأتي بأخرى،
ولكن لم يكُنْ أحدٌ أرحم به من اللّه،
كان يرِيدُ أن يعيدَه إلى أمّه،
إنّ اللّه تعالى لا يمنعُ إلا ليعطي،
ولا يُغلِقُ باباً إلا لأنَّ غيره خيرٌ منه،
لو استشعرنا رحمة اللّهِ في كل حرمان، وحكمتَه في كل منعٍ،
لهانتْ علينا الطّريق!
فلولا : ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾
ما كان: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ﴾

51

لمَّا كان يومُ بدرٍ وجِيءَ بالأسرى،
قال النبيُّ ﷺ: ما تقُولون في هؤلاء؟
فقال أبو بكر: يا رسول اللّه، قومكَ وأهلكَ، هؤلاء بنو العمِّ والعشيرة،
فإنِّي أرى أن تأخذَ منهم الفِدية،
فيكون ما أُخذنا منهم قوةً لنا على الكُّفار،
وعسى اللّهُ أن يهديهم فيكُونوا لنا عضُدا،
فقال عمر بن الخطاب: واللّهِ ما أرى رأيَ أبي بكر،
ولكن أرى أن تمكني من فلان – قريب له – فأضربَ عنقه،
وتمكِّن عليّاً من عقيلٍ فيضربُ عنقه،
وتمكن حمزة من فلانٍ أخيه حتى يضربَ عنقه،
حتى يعلم اللّهُ أنَّه ليس في قلوبنا هوادة للمشركين!
فسكتَ النبيُّ ﷺ ولم يُجبهم،
ثم دخلَ خيمته...
فقال ناسٌ: يأخذُ بقولِ أبي بكر،
وقال ناسٌ: يأخذ بقولِ عمر بن الخطاب،
ثم خرج النبيُّ ﷺ وقال:
إنَّ اللّه عزَّ وجلَّ ليلينَ قلوب رجالٍ فيه، حتى تكون ألينَ من اللبن!
وإنَّ اللّه عزَّ وجل ليشدُدُ قلوب رجالٍ فيه، حتى تكون أشدَّ من الحجارة،
وإن مثلكَ يا أبا بكرٍ كمثلِ إبراهيم عليه السلام قال:

﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾
وإنَّ مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام قال:
﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾
وإنَّ مثلكَ يا عمر كمثل موسى عليه السلام قال:
﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾
وإنَّ مثلكَ يا عمر كمثل نوحٍ عليه السلام قال:
﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾
ثم أخذ النبيُّ ﷺ برأي أبي بكر،
فأنزل الله تعالى قوله مؤيداً رأي عمر:
﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾

الدَّرسُ الأوّل:

من الأشياء الجميلة التي لم تُذكر في هذه الرِّواية،
أنَّ النبيَّ ﷺ قبل أن يستشيرَ أصحابه في أسرى بدر،
نظر إلى هؤلاء الأسرى وقال:
لو كان مطعم بن عديٍّ حيًّا وكلمني في هؤلاء النَّتْنَى لتركتهم له،
ومطعم بن عديٍّ هو الذي أجاره بعد أن رُجم في الطَّائف،
فقد منعته قريشٌ يومها أن يدخل مكة،
وكأنَّه لا يكفيه ما لاقاه هناك حتى يُمنعَ من دخول وطنه!

لا الغريبُ في الطَّائف قبِلَ دعوته، ولا القريبُ في مكّة قبل عودتَه!
فذهبَ إلى مطعم بن عدي يسأله أن يُجيره ويحميه،
فقبل ذلك، ودخل النبيُّ ﷺ مكة تحت حماية مطعم،
ثم دار الزَّمانُ ولم ينسَ لمطعم بن عديٍّ معروفه معه،
ما أوفاه من نبيٍّ، وما أكرمه من رسول!
رغم أن هؤلاء أسرى حرب، ولو أنَّ أحداً استطاع أن يقتله ما تردَّد،
ولكنَّه نبيل، والنُّبلاء لا ينسون مواقف النَّاسِ المُشرِّفة معهم،
حتى ولو كانوا على غير دينهم!
فكن وفياً كنبيِّك ﷺ،
اِحفظ للناس معروفهم، وتحيَّنْ الفرص لردِّ هذا المعروف،
صحيح أن الذي يفعل المعروف لا ينتظر سداداً،
ولكن من العارِ أن تنسى أنتَ!

الدَّرسُ الثَّاني:

النَّاسُ طِباعٌ مختلفة، والأنبياءُ ناس!
لهذا أنت ترى اِختلاف ردود أفعالهم تبعاً لاِختلاف طبائعهم،
والطَّبعُ شيءٌ فطريٌ جِبليّ لا علاقة له بدرجة الإيمان،
فإبراهيمُ وموسى وعيسى ونوحٌ عليهم السَّلام جميعاً،
هم من أُولي العزم من الرُّسل،
ولكنك تلاحظ لِيناً في طبع إبراهيم وعيسى عليهما السلام،

بينما تلاحظ شيئاً من الحزمِ في طباع نوحٍ وموسى عليهما السلام،
تماماً كما تلاحظ أنَّ أبا بكرٍ كإبراهيم وعيسى عليهما السَّلام في لِينهما،
وعُمر بن الخطاب كنوحٍ وموسى عليهما السَّلام في حزمهما!

الدَّرسُ الثَّالث:

كثيرٌ من مواقفِ النَّاسِ في الحياة، وكثيرٌ من ردَّات أفعالهم وتصرفاتهم،
مرجعه إلى الطَّبع لا إلى الإيمان!
النَّاسُ منهم العصبيُّ ومنهم الحليم،
منهم الشَّديدُ ومنهم اللَّين، ومنهم الكريمُ ومنهم البخيل،
لهذا فإنَّ فهم طباع النَّاسِ الذين نتعامل معهم، يوفِّر علينا وعليهم عناءَ كبيراً،
بل ويجعلنا حتى نتنبأ بردَّاتِ أفعالهم تبعاً لما نعلمه من طباعهم!

الدَّرسُ الرّابع:

عندما جاءت قبيلة عبد القيس إلى النبيّ ﷺ لتُسْلِم،
سارع أفراد القبيلة بالدُّخول عليه،

إلا سيِّدهم أشجُّ بن عبد القيس تمهَّلَ في المجيء!
فقد بقيَ حتى لبس أجمل ثيابه، ووضع عِطْراً،
فلما دخل على النبيِّ ﷺ قال له:
إنَّ فيك خصلتين يحبهما اللّه: الحِلْمُ والأناة!
فقال له: أَجُبلتُ عليهما أم تخلَّقتُ بهما يا رسول اللّه؟!
فقال له: بل جُبلتَ عليهما!
نصٌّ صريح وقاطع أنَّ النَّاسَ يولدون بطباعٍ مختلفة،
جبَلَهُم اللّه تعالى عليها وهم في بطُون أُمَّهاتهم،
وإننا نرى عياناً ونحن نخوضُ غمار الحياة،
البخيل والكريم في البيت الواحد،
والشَّهم والأنانيّ أخوين من أُمٍّ وأب،
والحليمُ والغضوب، وهما يُسقيان بماءٍ واحدٍ!
ولكن سبحان من فضَّلَ النَّاسَ بعضهم على بعض في الأُكل كالزَّرعِ!

الدَّرسُ الخامس:

حتى وإن كانت الطباع فطريَّةً والإنسان مجبولٌ عليها،
فهذا ليس مبرراً لأن ينساقَ الإنسانُ لطبعٍ سيِّءٍ جُبلَ عليه،
لأن الدُّنيا دار مجاهدة وامتحان،
والفَلاحُ فيها يكون بمخالفة الهوى واِتِّباعِ الحقّ،
فكلنا قد جُبلنا على حُبِّ المال،
ولكن هذا ليس مبرراً للسرقة أبداً،

وما من رجلٍ إلا ويشتهي النِّساء،

وما من امرأةٍ إلا وتشتهي الرجال،

فطرة اللّه تعالى التي فطر الناس عليها،

ولكن هذا ليس مبرراً للزِّنى!

وإنَّما جعلنا اللّه طباعاً ليمتحننا بهذه الطِّباع،

حتى يرى من يتكسَّبُ بالحلال إشباعاً لرغبةِ المال، ومن يَتكسبُّ بالحرام!

وحتى يرى من يُشبع غريزته بالحلال ومن يُشبعها بالحرام،

فجاهِدْ طباعَكَ، وأدِّبْ شهوتَكَ أن يكون إشباعها في الحلال!

52

﴿ولِباسَ التقْوى ذَلِكَ خَيرٌ﴾

أبو جهلٍ كان يلبسُ ذات العباءة والعمامة،
التي كان يلبسها أبو بكر الصِّديق!
ولحيةُ أميّة بن خلف كانت طويلةً،
كلحيةِ عبد اللّه بن مسعود!
وسيفُ عتبة بن ربيعة كان من نفس المعدن،
الذي كان منه سيفُ خالد بن الوليد،
الشّكلُ لا شكَّ مطلوب،
ولكن التديّن لم يكن يوماً بالشَّكل وإنّما بالمضمون،
كان النبي ﷺ يشيرُ إلى قلبه وهو يقول:
التقوى ها هنا!

53

لمَّا أخذَ النبيُّ ﷺ برأي أبي بكرٍ في فداء أسرى بدر،
بعثتْ زينبُ ابنةُ النبيِّ ﷺ في فداء زوجها أبي العاص،
وأرسلتْ قلادةً كانت لخديجة أهدتها إياها يوم زواجها من أبي العاص،
فلمَّا رآها النبيُّ ﷺ رقَّ لها رقةً شديدة،
وقال: إن رأيتم أن تُطلقوا لها أسيرها وتردُّوا عليها الذي لها فافْعَلُوا!
فقالوا: نعم يا رسول اللّه.
فأطلقُوه، وردُّوا عليها قلادتها!
ثم قال العبَّاسُ بن عبد المطلبِ وكان في أُسارى بدر:
يا رسول اللّه، إني كنتُ مسلماً!
فقال له النبيُّ ﷺ: اللّه أعلم بإسلامك!
فإن يكُن ما تقولُ – حقاً – فاللّه يجزيك،
فافدِ نفسكَ، وابني أخويكَ نوفل بن الحارث بن عبد المطلب،
وعقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب، وحليفكَ عتبة بن عمرو،
فقال العبّاسُ: ما ذاك عندي يا رسول اللّه!
فقال له النبيُّ ﷺ: فأين المال الذي دفنتَ أنتَ وأمّ الفضل؟
فقُلتَ لها: إن أُصبتُ فهذا المال لأولادي: الفضل وعبد اللّه وقُثم!
فقال له العباسُ: وما يدريكَ؟
فقال له النبيُّ ﷺ: أخبرني اللّه بهذا!
فقال العباسُ: أشهدُ إنكَ لصادق!

وإني قد دفعتُ لها ذهباً، ولم يطَّلع عليه أحدٌ إلا اللّه،
فأنا أشهدُ أن لا إله إلا اللّه، وأنكَ رسول اللّه!
فدفعَ العباسُ عشرين أوقيةً ذهباً، وأسلمَ،
وأنزلَ اللّه تعالى قوله:
﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾
قال العبّاسُ مُعلِّقاً على هذه الآية لاحقاً: فأعطاني اللّهُ خيراً مما أخذ مني!
عشرين عبداً كلُّهم يتاجر لي بمالٍ كثير مكان العشرين أوقية،
وأنا أرجو المغفرة من ربي!

الدَّرسُ الأوّل:

إنَّها خديجةُ بنت خُويلد المرأةُ التي لا يوجد منها نسخةٌ ثانيةٌ في تاريخ البشريَّة!
حين تزوجها النبيُّ ﷺ كانت في الأربعين وهو في الخامسة والعشرين،
كانت تنزلُ إليه بقلبها بالحُب، فتذيب فارق السِّن بينها وبينه،
حتى ملكتْ عليه قلبه فلم يتزوج معها امرأةً أبداً!
كانتْ ناضجةً ليجد فيها شيئاً من الأمِّ التي فقدها طفلاً،
حكيمةً لأنِّ أصحاب الرِّسالات يحتاجون جبهةً داخليّةً صلبة،

صديقَةً لأنَّ الأيام ثقال وليس كالحُبِّ مطيّة لعبور الطَّريق!
فذابتْ كل الفوارق بينهما، وما الحُبُّ إلا أن تأنسَ ويُؤنسُ بك!
وكانتْ ثريَّةً جداً ولكنَّها كانت تُشعره أنَّه عندها أغلى من كل ما تملك،
وكان هو على فقره يُشعرها أنها أغلى عنده من كل مالها،
فإن قيل لكَ: إن الحُبَّ يصنع المعجزات، فصدِّقْ!

الدَّرسُ الثّاني:

عندما نفرحُ نذهبُ إلى أكثر شخص نحبُّه،
وعندما نحزن نذهبُ إلى أَكثر شخصٍ يُحبُّنا،
ويا للسَّعادة لو كان هو نفسه في الحالتين،
وقد كانت خديجة بنت خويلد هذا الشَّخص في حياة النبيِّ ﷺ،
ويا لهول الوحيِّ حين نزل عليه!
يا للروع، والخوف، والبرد الذي أصابه،
كان في تلك اللحظةِ يحتاجُ كتفاً يعلمُ أنه سيسنده حتماً،
ويحتاج إلى عكازٍ يعلمُ أنه قويٌّ بما يكفي للاتِّكاء،
ويحتاج حضناً دافئاً فحضن من نُحبُّ، هو أوسع الأماكن الضَّيقة في هذا العالم!
لم يذهب يومها لا إلى صديق ولا إلى قريب،
مشى بقلبه نحو خديجة!
كان يعلمُ أنّها الوحيدة في هذا الكوكب المترامي الأطراف،

من سيفهمه، ويحتضنه، ويحتويه،
وقد كانت عند ظنِّ قلبه بها،
ضمَّته إليها بما يكفي ليشعر أنه ليس وحده،
ثم هدَّأته ليعلمَ أنَّ له في هذا الأمر رِفقة،
ثم أخذته إلى ورقة بن نوفل لتريه أنها تهتم قولاً وعملاً،
ثم كانت أول إنسانٍ أسلم بدعوته،
أسلمتْ حتى قبل أن يطلبَ منها أن تفعل!

الدَّرسُ الثّالث:

حنَّ إلى خديجة حين رأى قلادتها في فِداء صهره،
بعض الحُبِّ لا يموت وإن ماتَ أصحابه،
بعض النَّاسِ حين يدخلون قلوبنا لا يغادرونها إلى الأبد!
لم يكن يُحبُّها فقط وإنما كان يُحِبُّ كل ما يمتُ إليها بصلةٍ!
كان قد جاوز الستين حين رأى نسوةً عجائز،
فخلع رداءه وأجلسهُنَّ عليه،
وقال لمن حوله يُزيل استغرابهم: هؤلاء صُويحبات خديجة!
يا للوفاء يا رسول اللّه، يا للوفاء،
هذا حبُّه وإكرامه لصويحباتها، فتراه كيف كان يُحبُّها هي،
وتأتيه امرأةٌ عجوز في بيته،
فيستقبلها أحسن استقبال، ويترفَّقُ بها، ويبتسمُ لها،
فتستغرب عائشة كل هذا التِّرحاب،

فيقول لها: إنها كانت تأتينا زمان خديجة!

أُنظُرْ لقوله: زمان خديجة،

وكأنه كان يُؤَرِّخُ حياته بها!

وكان يذبحُ الشاة، ويقطع لحمها،

ثم يقول: أعطُوا منها صويحبات خديجة!

هكذا كان هو في الحُبّ، يُحِبُّ كلَّ شيءٍ له علاقة بخديجة،

ويقول أنس بن مالك عن شيءٍ من هذا القبيل:

كان النبيُّ ﷺ إذا أُتِيَ بالشيء يقول:

اذهبُوا به إلى بيت فلانة فإنها كانت تُحِبُّ خديجة،

إنه لا يُحبَّها فقط، بل يُحِبُّ كل من أحبَّها!

واستأذنتْ عليه هالة بنت خويلدٍ أختُ خديجة،

فعرفها من صوتها، وتذكر خديجة، وارتاحتْ نفسه،

فقال: اللهُمَّ هالة!

فتغار عائشة وتقول له: كأن لم يكن في الدُّنيا إلا خديجة،

فيقول: إنها كانتْ، وكانتْ، وكان لي منها الولد،

هكذا يُعدد مواقفها، وأخلاقها، ويثني عليها وهي تحت التراب!

ويوم قالت له عائشة: أما زلتَ تذكرُ خديجة، وقد أبدلكَ اللّهُ خيراً منها؟

فقال يُدافعُ عن مقام خديجة في قلبه: واللّهِ ما أبدلني اللّه خيراً من خديجة!

الدَّرسُ الرّابع:

مخطئ من يعتقد أنّ الحُبَّ منقصةٌ للرُّجولة،
وأنَّ إظهار الحب والاهتمام ضعف في الشَّخصية،
فها هو سيد الرجال يُحِبُّ خديجة حيّةً وميتة،
فلا تخجلوا أبداً بمشاعركم،
عيشوها حتى أخر رمق فيكم من الحُبِّ،
لا شيء في الدُّنيا أجمل من الحُب الحلال،
ومخطئ من يعتقد أنَّ القسوة هي التي تصنعُ الرُّجولة،
القسوة لا تصنعُ إلا الجبابرة!
بل إنَّ الرَّجل هو رجل بمقدار ما يُحِبُّ ويهتمُّ ويُدللُ ويلينُ،
ومخطئ من يعتقد أنْ المرأة لا تُروَّضُ إلا بالقسوة،
لا شيء يكسر المرأة كالقسوة وإن بدتْ متماسكة،
بالحُبِّ وحدَه يمكن امتلاك المرأة، بالحُبِّ وحده!

54

﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾

لحظةُ كِبْرٍ وفخرٍ وخُيَلاء،
كان ثمنها مفارقة الجنّة والطّردِ من رحمة اللّه،
فنعوذُ بك يا اللّه،
أن تزِلَّ الأقدام بعد ثبوتها،
وأن نأتيَ ما كنّا ننهى النّاس عنه،
وأن تملأنا طاعاتُنا بالعُجْب،
وأن ننظر للعصاة بعينِ الاحتقار بدل عين الرّحمة،
ونعوذُ بكَ من نعمةٍ تُطغينا، فتُنسينا شُكرك،
ومن مصيبةٍ تُوجعنا، فتُسخّطنا على قضائك،
ذكِّرنا دوماً أننا من تُرابٍ وإلى تراب!

55

عن عبد اللّٰه ابن عباسٍ قال:
لمَّا أرادَ النبيُّ ﷺ أن يخرجَ إلى غزوة تبوك،
قال للجدِّ بن قيس، وكان من المنافقين:
يا جدُّ ابن قيسٍ ما تقول في جهاد بني الأصفر/ الروم؟
فقال: يا رسولَ اللّٰه إني امرؤٌ صاحب نساء،
ومتى أرى نساء بني الأصفر أُفتَتَنُ،
فائذن لي ولا تفتني!
فأنزل اللّٰه تعالى قوله:
﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾

الدَّرسُ الأوّل:

إنهم المنافقون إيمانٌ ظاهرٌ وكُفرٌ باطن،
ورعٌ بارد وراءه قلبٌ فاجر،
ومظاهر حسنة، وأرواح مريضة نتنة،
كم صلى ابنُ سلول خلف النبيِّ ﷺ في المسجد،
فلم تنفعه صلاته هذه بشيءٍ،
لأنّه كان يصلي حفاظاً على مرتبته الاجتماعيَّةِ وليبقَ في قلب المشهد!
وكم قال الأخنس بن شريق الثقفي كلاماً جميلاً،

لو سمعتَه لقلتَ في نفسكَ: يا له من رجل،
ولكن هذا اللسان العذب كان يُخفي نفسيّةً مريضةً وقلباً كالحجر!
وفيه نزل قول ربنا: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾
وها هو الجَدُّ بن قيس على خُطى صاحبيه ابن سلولٍ والأخنس،
يعتذرُ عن الجهاد خوف الفتنة بجمال نساء الرُّوم!
وما هو إلا الجُبن من الحرب، والخوف من الموت، وقبلها تكذيب بالنُّبوة!

الدَّرسُ الثّاني:

المؤمن مكانه حيث يريدُ له ربُّه أن يكون،
لا حيث ما يريدُ هو أن يكون،
الجنّةُ لا تُدركُ إلا بخلاف الهوى!
تخلّف الجدُّ بن قيس عن غزوة تبوك بحُجَّته الواهية،
وتخلّف أول الأمر الصحابيُّ الجليل أبو خيثمة!
وبعد مسير النبيِّ ﷺ بأيام رجع أبو خيثمة إلى بستانه،
فوجد في المشهد: زوجاتٍ جميلات، فاكهة ناضجة، وماء بارد، وظلٌّ ظليل،
فقال: النبيُّ ﷺ في الرِّيح والحرِّ والشَّمس، وأنا في هذا!
فنادى على زوجتيه وقال: هيِّئا لي زاداً،
فإني أريدُ أن ألحقَ برسول اللّه ﷺ!

ورحل أبو خيثمة يريدُ أن يواسي حبيبه بنفسه،
فما أدركه إلا وقد وصل إلى تبوك وعسكر بالجيش،
وهـو قـادم إليهـم مـن بعيـد رآه المسـلمون ولكنَّهـم لـم يتحققـوا مـن هويتـه،
فجعلَ النبيُّ ﷺ يقول: كُنْ أبا خيثمة!
فلما وصل قالوا: يا رسول اللّه، هو واللّهِ أبو خيثمة!
هناك دوماً فرصة لتصحيح الخطأ،
وأن تصِلَ متأخراً خير من ألا تصل أبداً!
وأن تكون ذَنَباً في الحقِّ خير من أن تكون رأساً في الباطل!
فلا تخجلْ من إدراك الحقِّ إن سبقكَ الناس إليه،
ولا تستثقِل الخروج من الباطل إن بدا لكَ أنه باطل،
إنَّ أرقى أنواع الخجل أن يخجل المرءُ من ربِّه!

الدَّرسُ الثّالث:

في السّيرة النبويّة عِبرة، فاعْتبِرْ،
المواقف والأحداث ليستْ مادةً قصصيّةً تُروى وإنْ كانتْ ممتعة،
وإنّما هي دروسٌ للحاضر فالنَّاسُ هم النَّاسُ في كل عصر،
المنافقون في المدينة كانوا من وُجهاء النَّاس،
وإنّـك لـو رأيتهـم لغبطّتهـم علـى هيئاتهـم وأموالهـم ومنازلهـم عنـد النَّـاس،
ولكنك متى عرفتَ حقيقتهم حمدتَ اللّه أنك لم تكن مثلهم،

يُحدِّثنا النبيُّ ﷺ عن امرأة من بني إسرائيل،
كانت تُرضع ابناً لها، فمرَّ بها فارس مُهاب،
فقالتْ: اللهُمَّ اجعلْ ابني مثله!
فتركَ ثديها وقال: اللهُمَّ لا تجعلني مثله!
ثم عاد إلى صدر أمه يرضع!
ثُمَّ مرُّوا بأَمَة يضربونها،
فقالتْ: اللهُمَّ لا تجعل ابني مثلها،
فترك الرضيع ثدي أمه وقال: اللهُمَّ اِجعلني مثلها،
فقالتْ الأمُّ: ولِمَ ذاك؟
فقال: الفارس جبّار من الجبابرة، والأَمة يقولون لها سرقتِ وزنيتِ، ولم تفعل!
بأبي هو وأمي نُصدِّقه فيما يروي وإن استثقله العقل!
فلا تغبِطْ أصحابَ الأموال حتى ترى دينهَم أوّلاً،
ولا تغبط أصحابَ المراكز حتى ترى أخلاقَهُم أوّلاً،
ولا تغبط أصحابِ الجاهِ والمرتبةِ حتى ترى عبادتَهُم أوّلاً،
معايير النَّاس في وادٍ ومعايير اللّه في واد،
ورُبَّ أشعث أغبر، ذي طمرين، مدفوع بالأبواب، لا يُؤبه له،
ولو أقسمَ على اللّهِ لأبرَّه!

56

﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾

إنّما الإنسانُ أثرٌ يا اللّه،
فأعِنَّا على ألا ندوسَ قلباً ولا نُبكي عيناً،
أن تُروى أفعالُنا في مجالسِ جبرِ الخواطر،
أن يتذكّروا وجوهنا فيبتسمُون ويقولُون:
مَرٌّوا بنا يوماً فكانوا خِفافاَ طيّبين!
أن نكون ساترين للعيوبِ فلا نفضحُ، ولا نُعيِّرُ بذنب،
قاضين للحاجاتِ فلا نغلق أبوابَنا في وجه طارقٍ،
مؤتمنين فلا نفشي سرّاً،
مطمئِنّين نُحِبُّ ولا نُخشى، نُحتَرم ولا نُخَاف،
إنّ قيمة الأشياء بما لها من أثرٍ في القلب يا اللّه،
فأحسِن في قلوب النّاس آثارَنا!

57

بينما النبيُّ ﷺ يقسِمُ الصَّدقات بين الناس،
جاء عبد اللّٰه بن ذي الخويصرة التميميَّ فقال:
اِعدِلْ يا رسول اللّٰه!
فقال له النبيُّ ﷺ: ويلكَ من يعدلُ إذا لم أعدِلْ!
فقال عمر بن الخطاب: دعني أضربُ عنقه يا رسول اللّٰه!
فقال له النبيُّ ﷺ: دَعْه، فإنّ له أصحاباً،
يحقِرُ أحدكم صلاتَه مع صلاتِه، وصيامَه مع صيامِه،
يقرأون القرآن لا يُجاوزُ حناجرهم،
يمرقون من الدِّين كما يمرقُ السَّهمُ من الرَّميَّة،
فينظر الرَّامي إلى سهمه، إلى نصله، فلا يرى شيئاً،
يخرجون على حين فرقة من النَّاسِ!
قال أبو سعيد الخدري: أشهدُ أني سمعتُ هذا من رسول اللّٰه،
وأشهدُ أنَّ علياً قتلهم وأنا معه،
وجيء بعبد اللّٰه بن ذي الخويصرة قتيلاً،
وفيه نزل قول اللّٰه تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾

الدَّرسُ الأوّل:

قالت العربُ قديماً، إرضاء الناس غايةٌ لا تُدرك!

ولو تأمَّلتَ حال النَّاس لوجدتَ فيهم سخطاً على اللّه،
هذا الذي لا يقنعُ برزقه،
وذاك الذي يحسدُ غيره على وظيفتِه،
وتلكَ التي تنظرُ إلى بيت فلانة،
وهؤلاء الذين ينظرون إلى ما يملكُ أولئك،
فلا تتوقعْ، وأنتَ الذي تُخطئُ وتصيبُ، أن يرضى عنك كلُّ النَّاس،
النَّاسُ لم يرضوا عن قضاء ربِّهم، ولا عن قسمة نبيهم،
فلا تتوقعْ منهم أن يرضُوا عن قسمتكَ،
لهذا لا تبحث في النَّاسِ عن رضى، وعاملهم بالمعروف،
وليكُن شُغلك كيف ترضي اللّه فإنَّه إن رضيَ هان كلُّ شيء!

الدَّرسُ الثّاني:

الأحداثُ تتشابه في وقوعها على الجميعِ ولكن مواقفهم تتباين،
والفَرقُ بين المؤمن وغيره هو موقفه من موقفٍ ما،
لم تكن المرَّة الوحيدة التي يقسم بها النبيُّ ﷺ مالاً،
فلا يرضى النَّاسُ عن هذه القسمة،
ولكنِّ الفاجر يزدادُ غيّاً، والمؤمن يردُّه إيمانه إلى الحق!
قسم النبيُّ ﷺ مالاً بين قريشٍ وقبائل العرب،
ولم يُعطِ الأنصار منه شيئاً، فأزعجهم ذلك،
فجاء إليه سيدهم سعد بن عبادة وقال له:
يا رسول اللّه، إنَّ الأنصار قد وجدُوا في أنفسهم عليكَ!

فقالَ له النبيُّ ﷺ: فأينَ أنتَ من ذلكَ يا سعد؟ أي ما هو رأيك،
فقالَ: إنما أنا رجلٌ من قومي! أي أنا أقول بقولهم،
فقال له النبيُّ ﷺ: فاجمَعْ لي قومك،
فخرجَ سعدٌ وجمعَ الأنصار، وجاءهم النبيُّ ﷺ وقال:
أما واللّهِ لو شئتم لقلتم فصدقتم، أتيتنا مُكذَّباً فصدَّقناك!
ومخذولاً فنصرناكَ، وطريداً فأويناكَ، وعائلاً فأغنيناك!
أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة / حقير من الدُّنيا،
تألَّفتُ بها قوماً ليُسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم!
أفلا ترضون أن يذهبَ النَاسُ بالشَّاةِ والبعير،
وترجعون برسول اللّهِ ﷺ إلى رحالكم؟!
فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنتُ امرءاً من الأنصار،
ولو سلكَ الناس شِعباً وسلكتِ الأنصار شِعباً لسلكتُ شِعبَ الأنصار!
اللهُمَّ ارحمِ الأنصارَ، وأبناءَ الأنصار، وأبناءَ أبناءِ الأنصار!
فبكُوا حتى ابتلَّتْ لحاهم، وقالوا: رضينا برسول اللّه قسماً وحظاً!
يمرضُ المؤمنُ ويمرضُ الكافرُ،
فأمّا المؤمن فيعرفُ أنها دار ابتلاء فيصبر، وأما الكافر فيتسخَّط!
ويفتقِرُ المؤمنُ ويفتقِرُ الكافر،
فأمّا المؤمنُ فيعلم أنَّ للّه في كل أمرٍ حكمةٍ، وأمّا الكافرُ فلا يرضى،
ويفقدُ المؤمنُ حبيباً وكذلك الكافر،
فأمّا المؤمنُ فيعلمُ أنَّ للّه ما أعطى وللّه ما أخذ!
وأما الكافر فيريدُ أن يُشاركَ اللّه في قضائه وعلمه!

الدَّرسُ الثّالث:

إياك أن تُفسِّر عطايا اللّه على هواك،
وإياك أن تُفسِّر حرمانه بسوء الظنِّ،
إذا رأيتَ من هو أغنى منكَ، وأكثر صحةً،
فلا تقُلْ: يُحبُّه اللّه تعالى أكثر منّي!
إنَّ اللّه سبحانه يُعطي الدُّنيا لمن يحبُّ ولمن يكره،
ولكنّه لا يُعطي الإيمان إلا لمن يُحبُّه!
إذا أردتَ أن تعرفَ الذين يُحبُّهم اللّه أكثر منك،
فهم أولئكَ الذين أَذِنَ لهم أن يعبدوه ويطيعوه أكثر منك!
وليسوا أولئك الذين راتبهم أعلى من راتبك!
وإنّما أولئك الذين قاموا إلى صلاة الفجر وأنتَ نائم!
وتصدَّقوا وأنتَ تكنز،
وبرَّوا أباءهم وأمهاتهم وأنت عاق،
وتحجّبنَ وأنتِ سافرة!
كان موسى عليه السَّلام أحبَّ إلى اللّه من قارون،
ولكنَّ اللّه سبحانه أعطى قارون مالاً أكثر من موسى،
وكان النبيُّ ﷺ أحبَّ إلى اللّه من كسرى وقيصر،
ولكنهما كانا ينامان على الفراش الوثير،
والنبيُّ ﷺ ينام على الحصير فيُرى أثره في جنبه!

الدَّرسُ الرَّابع:

أُنظُرْ إلى هؤلاءِ الخوارج كيف يصِفُ النبيُّ ﷺ عبادَتَهُم؟!
تحقِرُون صلاتكم مع صلاتِهم، وصيامكم مع صيامهم،
ليس أنا ولا أنتَ الذين صلاتنا وصيامنا أقلّ من صلاتهم وصيامهم،
وإنما الصَّحابة أنفسهم!
ثم اُنظُرْ إلى كثرة العبادة دون فهم ماذا تفعل؟!
اِستحلُّوا دماء النَّاسِ وأَعراضهم،
وقتلُوا خليفة المسلمين وهم يحسبون أنهم يتقرَّبُون إلى اللّه بهذا،
قاتلهم اللّه في كل عصرٍ وفي كل بلد،
شوَّهُوا دين اللّه تعالى، وبغَّضُوا الإسلام إلى العباد،
فإذا سألتَ اللّه تعالى أن يرزقكَ شيئاً،
فاِسْأله سبحانه أن يكون هذا الرِّزقُ مقروناً بالفَهم،
فإنّ كثرة المال دون حكمةِ إنفاقه وبالٌ على صاحبه،
وإنّ الصِّحة دون حكمةِ استخدامها حُجة على صاحبها،
وإنَّ الشَّجاعة دون حكمةِ وضعها في موضعها تصبحُ تهُّوراً واعتداءً،
وإنَّ القرآن دون حكمةِ فهمه يجعلك تفسِّره على هواك،
فتقتل، وتعتدي، وتظلم وأنت تحسبُ أنّكَ تتعبد،
فاللهُمَّ زيِّنْ لنا كُلَ عطاياكَ بحكمة استخدامها!

58

﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾

كتابُك هو حصادُكَ فلا تزرعْ إلا خيراً،
أنتَ حصادُ الطُّرق التي مشيتَها،
والأفكارِ التي حملتَها، والمعتقداتِ التي اعتنقتهَا،
والخواطـرِ التـي جبرتَهـا، والدُّمـوعِ التـي مسـحتَها، والأحـزانِ التـي أزلتَهـا،
والصّدقاتِ التي بذلتها، والحاجاتِ التي رمَّمتها،
والأمانِ الذي وهبتَه، والملاذِ الذي كنتَهُ،
أنت الحلالُ الذي أحللتَ، والحرامُ الذي حرَّمتَ،
أنت مؤلّفُ الكتاب الذي ستقرأه غداً،
فلا تكن مؤلّفاً سيّئاً!

59

حثَّ النبيُّ صلى اللّهُ عليه وسلم الصَّحابةَ على الصَّدقة،
فجاءَ عبد الرَّحمن بن عوفٍ بأربعة آلافِ درهم،
وقال: يا رسول اللّه مالي ثمانية آلاف درهم،
جئتُكَ بنصفِها فاجعلها في سبيلِ اللّه، وتركتُ نصفَها لعيالي!
فقال له النبيُّ ﷺ: باركَ اللّهُ لكَ فيما أعطيتَ، وفيما أمسَكتَ!
فباركَ اللّهُ تعالى في مال عبد الرحمن استجابةً لدُعاءِ نبيِّه ﷺ،
حتى أنه لما ماتَ كان له زوجتين، فبلغَ ثُمنُ ماله مئةً وستينَ ألفَ درهم!
وتصَّدقَ يومها عاصم بن عديّ العجلان بمئةِ وسَقٍ من تمر،
وجاء أبو عقيلٍ الأنصاريَ بصاعٍ من تمر!
فقال: يا رسول اللّه، بتُّ ليلتي أعملُ حتى تقاضيتُ صاعين من تمرٍ،
فأمسكتُ أحدَهُما لأهلي، وأتيتُكَ بالآخر!
فأمرَه النبيُّ ﷺ أن ينثرَه في الصّدقات.
فلمزَهُم المنافقون، وتكلَّمُوا فيهم، وقالوا:
ما أعطى عبدُ الرَّحمن وعاصمُ إلا رياءً،
وإنّ اللّه لغنيٌّ عن صاع أبي عقيل، ولكنّه أراد أن يُزكي نفسه!
فأنزل اللّه تعالى قوله: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

الدَّرسُ الأوَّل:

في ثنايا هذه القصَّة حدثٌ مهيب لم يُذكر في هذه الرِّواية،
حين حثَّ النبيُّ ﷺ على الصَّدقة قام علبة بن زيد فقال:
يا رسول اللّٰه إني فقيرٌ، وليس عندي ما أتصدَّقُ به،
ولكني أَشهدكَ أني قد تصدَّقتُ بعِرضِي على من نالَه من المسلمين،
فلم يُعلِّق النبيُّ ﷺ على قولِ عُلبة بن زيد،
هو يجمعُ مالاً لتجهيز الجيشِ فأين يضعُ صدقةَ عُلبة؟!
ولكنَّه في اليوم التّالي صعد المنبر فقال: أين المتصدِّقُ بعرضِه البارحة؟!
فقام عُلبة بن زيدٍ فقال: ها أنا يا رسول اللّٰه،
فقال له: إنَّ اللّٰه قد قبِلَ منك صدقتكَ!
إنَّ للّٰه تعالى صفات عُليا من كانت فيه من خَلقِه أحبَّه،
ولأنّه سُبحانه جوادٌ كريمٌ يُحِبُّ المتصدِّقين،
ولأنَّه سبُحانه عفوٌ سمحٌ يُحِبَّ العافين،
ولأنَّه سبحانه رحيمٌ يُحِبُّ الرحماء،
ولأنَّه سبحانه ستِّيرٌ يُحِبُّ السِّتيرين،
فانظُرْ إلى الخُلق الذي يُعامِل اللّٰه به تعالى خلقَه وعاملهم به ما استطعتَ،
تصدَّق بعرضِكَ ما استطعتَ فلا تحْلُو الدُّنيا بغير الصَّفح،
وتجاهَلْ، وتغاضَ، ولكَ في يوسف عليه السّلام أُسوةً حسنةً،
فقد أسَّرها في نفسِه ولم يُبدها لإخوته!

الدنيا تعطينا كل يوم سبباً للمشَاحنة والخِلاف،
والعاقلُ من تجرَّدَ منَ الحقدِ والغِلِّ، فالقلبُ المليءُ بالحقدِ مقبرة!
يستوحشُ منه صاحبُه قبل أن يستوحشَ منه النَّاس!

الدَّرسُ الثّاني:

في كلّ مجتمعٍ ستجد فئةً ليس لها عمل إلا التَّنظير الفارغ،
والدُّخول في نوايا الناس،
عيّنُوا أنفسهم قُضاةً على خلق اللّه،
وجلسوا يُصدرون الأحكام، ويوزِّعون النَّاسَ على الجنّة والنار،
والمصيبةُ أنّك إذا أردتَ أن تنتقدهم تحتار من أين تبدأ!
الذي يرتادُ المساجِد بنظرهم مُعقَّد، والذي لا يرتادُها منحلٌّ،
الذي يُكرمُ زوجتَه ضعيف الشَّخصية، والذي لا يكرمها قاسٍ،
التي تطيعُ زوجَها ضعيفة وجبانَة، والتي لا تُطيعه ناشِز،
التي تلتزمُ بالحِجاب جاهلة بالمُوضة، والتي لا تتحجَّبُ لا تعرف اللّه،
الذي يتصدَّقُ مُراءٍ، والذي لا يتصدُّقُ بخيل،
الذي يبرُّ والديه بلا شخصيَّة، والذي يعقُّهما فاجر،
الذي يقضي وقتاً مع عائلته منطوٍ، والذي لا يقضي معهم وقتاً مُهمل،
إذا عمل أحدُهم بوظيفتين قالوا: أكلته الدُّنيا،
وإذا لم يعملْ قالوا: كسول،

هكذا هم يبحثون في كلّ فضيلةٍ عن رذيلة هي أساساً في أنفسِهم،
وإذا لم يَسلَمْ منهم أهلُ الفضائل فأهلُ الرَّذائلِ لن يَسلَمُوا من باب أولى،
هؤلاء عليكَ أن تهربَ منهم كما تهربُ من الطَّاعونِ والجَرَب،
ليس في قُربِهم فائدة، وليس في خسارتِهم ضرَر،
تماماً كتلك المسائل الهامشيَّة التي يقول عنها الفقهاء:
عِلمٌ لا ينفعُ وجهل لا يضرُّ!

الدَّرسُ الثّالث:

من وصايا النبيِّ ﷺ: لا تحقرنَّ من المعروفِ شيئاً!
أنْ توقفَ سيارتكَ لتعبر قطةٌ الطَّريق معروف،
وأنْ تمسكَ بيد أعمى لتعبرَ به الطَّريق معروف،
وأنْ تجرَّ قعيداً على كرسيّه معروف،
وأنْ تُعطي عاملاً قارورة ماءٍ معروف،
وأنْ تحملَ عن رجلٍ مُسنٍّ كيساً يُتعبه معروف،
وأنْ تشتريَ من البائعِ المسكينِ شيئاً لا تحتاجه معروف،
وأنْ تُصلحَ بين زوجين نشبَ بينهما خِلاف معروف،
وأنْ تتغاضى عن زوجتِكَ ولا تقف لها على الكلمة معروف،
وأنْ تصفحَ عن أولادك وتعاملُهُم بالرَّحمة معروف،
وأنْ تُهدي إلى جارك صحنَ طعامٍ معروف،
وأنْ تعينَ مريضاً في علاجِه معروف،

المعروفُ لا حدَّ له، أشياء بسيطة بحُبٍّ،
نيةً صادقة تجعل العملَ البسيط جبلاً من الحسنات،
لربَّما الجنّة في دمعةِ محزون تمسحُها،
وفي مواساةِ مكسورٍ تُطيّبُ خاطرَه،
بغيٌّ بني إسرائيل أدخلها الله تعالى الجنّة بسُقيا كلبٍ،
فإذا كانت هذه رحمته سُبحانه بمن أحسن إلى البهائم،
فكيف هي رحمته سبُحانه بمن أحسن إلى النَّاس؟!

الدَّرسُ الرَّابع:

يا رسول اللّه: بتُّ ليلتي أعمل حتى تقاضيتُ صاعين من تمر،
فأمسكتُ أحدهما لأهلي، وأتيتُكَ بالآخر!
الصَّدقة من الغنيِّ جميلة، ولكنها من الفقير أجمل،
فذاكَ يعُطي من كثرة، وهذا يُعطي من قلّة!
والعفةُ من الشَّيخ جميلة، ولكنها من الشَّاب أجمل،
فذاك يتعفَّفُ من انطفاءِ شهوةٍ، وهذا يتعفَّفُ من فورانها،
والتّستر من كبيرة السِّن جميلٌ، ولكنّه من الشَّابة أجمل،
فتلك تستُرُ جمالاً ذابلاً، وهذه تسترُ جمالاً فاتناً،
وتلك تتعفَّفُ والدُّنيا في إدبارها، وهذه تتعفَّفُ والدُّنيا في إقبالها.

الدَّرسُ الخامس:

الأشياءُ عند اللّهِ بقيمتِها لا بحجمها،
عبدُ الرَّحمن بن عوف تصدَّق بأربعةِ آلافٍ من أصلِ ثمانية آلاف،
أي بنصفِ ثروتِه التي يملك،
وأبو عقيلٍ تصدّق بصاع تمرٍ من أصلِ صاعين،
هو أيضاً تصدَّق بنصفِ ماله الذي يملك،
واللّه تعالى من رحمته يكتبُ لكلٍّ منهما أجر الصَّدقةِ بنصفِ ماله،
وفي الحديثِ، يقول النبيُّ صلى اللّهُ عليه وسلّم:
سبقَ درهمٌ مئةَ ألفِ دِرْهَم!
قالوا: كيف؟
فقال: كان لرجُلٍ درهمان تصدَّقَ بأحدهما،
وانطلقَ رجلٌ إلى عُرْضِ ماله فأخذ مئةَ ألف درهم فتصدَّقَ بها!
الذي يملكُ درهمين بالنِّسبة تصدَّقَ بنصفِ ثروته،
والذي يملكُ الملايين يكتبُ اللّه تعالى أجره،
ولكن أجر الفقير أعلى،
وهذا ليس حثاً على أن يتوقَّفَ الغنيُّ عن الصَّدقة،
وإنّما ليُقال له: كلّما زادَ اللّهُ لكَ فزِدْ،
وهو حثٌّ الفقيرِ على ألا يحِقر أو يستقلَّ صدقةَ مهما كانت قليلة،
صاحب الفُرن إنْ تصدَّق برغيفٍ،
ليس في الأجر كمن ليس عنده إلا رغيف فتصدَّقَ بنصفه!

60

﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٍ سَلِيم﴾

الدُّنيا سَفَر، وهذا القلبُ حقيبة!
وستأتي حاملاً فيه ما كنتَ في الطريق تجمعُه،
فلا تحمِلْ فيه إلا ما يليقُ بالدّخولِ على اللّه،
اُدخُلْ بقلبك مليئاً بالتوحيدِ حتى آخره،
كلُّ خليّةٍ فيه تؤمنُ أنه سبحانه،
الرَّازقُ، والنَّافعُ، والشَّافي، والواهبُ، والمُحيي، والمميت!
اُدخُلْ بقلبك مصدِّقاً للنبيّ ﷺ بالرِّسالة،
محبّاً للمؤمنين، غاضّاً بصرَكَ عن أرزاقهم،
متمنياً لهم من الخيرِ ما تتمنى لنفسِكَ،
كارهاً لهم من الشَّرّ ما تكرهه لنفسِكَ،
اُدخُلْ بقلبك خالياً من الحقدِ، والكُرهِ، والضَّغينةِ،
فالأحقادُ لوثَة!
وتذّكرْ أنَّ رجلاً من أهل الجنّة لم يكُنْ كثير صيامٍ ولا صَلاة،
ولكنّه كان يتمنى الخيرَ لكلِّ النّاس!

61

لمَّا اِشتكى أبو طالبٍ من مرضِه الذي ماتَ فيه،
قالتْ له قريش: يا أبا طالبٍ، أَرسِلْ إلى ابنِ أخيك،
يرسِلُ لكَ من هذه الجنّة التي يذكرها، فيكون لك شِفاءً!
فأرسَلُوا رجلاً منهم حتى لقيَ النبيَّ صلى اللّه عليه وسلَّم وأبا بكرٍ معه،
فقال له: يا محمَّد، إن عمّكَ يقولُ: إنَي ضعيف سقيم،
فارسِلْ إليَّ من الجنّة التي تذكرُ من طعامها وشرابِها يكون لي شفاءً!
فلم يقُلْ النبيُّ ﷺ شيئاً...
وقال أبو بكر: إنَّ اللّه حرَّمها على الكافرين!
فرجعَ الرَّجلُ إليهم وقال:
بلَّغتُ محمداً الذي أرسلتمُوني به، فلم يقُلْ شيئاً!
وقال أبو بكرٍ: إنَّ اللّه حرَّمها على الكافرين!
فجعلُوا يوغِرُون صدرَ أبي طالبٍ على النبيُّ ﷺ،
فأرسلَ أبو طالبٍ رجلاً من عنده يسألُ النبيَّ ﷺ مسألتَه الأولى،
فقال له النبيُّ ﷺ: إنّ اللّه حرمَّها على الكافرين!
ثم قام ودخلَ على أبي طالب، فوجد البيت مملوءاً رجالاً،
فقال: خلُّوا بينِي وبين عمّي،
فقالوا: ما نحن بفاعلين، ما أنتَ بأحقَّ به مِنَّا!
إنْ كانت لكَ معه قرابة، فلنا معه مثل قرابتكَ!
فجلسَ النبيُّ ﷺ بجوار عمِّه وقال له:

يا عَمّ: جُزيتَ عنيِّ خيراً، كفِلتنِي صغيراً وحُطَّتنِي كبيراً،
يا عَمّ: أعنيِّ على نفسك بكلمة واحدة أشفع لكَ بها عند اللّه!
فقال أبو طالبٍ: وما هي يا ابن أخي؟
قال: قُلْ: لا إله إلا اللّه وحده لا شريكَ له!
فقال أبو طالب: إنكَ لي ناصح، ولولا أن تُعيّرني قريش،
فتقول: جَزِعَ عمُّكَ عند الموت، لأقررتُ بها عينك،
فصاح القوم: يا أبا طالبٍ، أنتَ رأس الحنِيفيّة، مِلَّةُ الأشياخ!
فقال له النبيُّ ﷺ: لا أزال أستغفرُ لك ربي حتى يرُدّني،
فجعلَ النبيُّ ﷺ يستغفِر له بعد أن مات،
فقال المسلمون: ما يمنعنا أن نستغفر لآبائنا، ولذوي قرابتنا،
قد استغفرَ إبراهيمُ عليه السَّلام لأبيه،
وها هو النبيُّ ﷺ يستغفرُ لعمِّه،
فجعلُوا يستغفرون لمن ماتَ من آبائهم على الشِّرك،
فأنزلَ اللّه تعالى قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾

الدَّرسُ الأوّل:

هذا شأنُ أهلِ الضَّلال دوماً على مرِّ العُصور: الاستهزاء!
وما أرسلَ صناديدُ قريشٍ في طلب شيءٍ من الجنّة لأبي طالب إلا استهزاءً،
كأنّها سُنة من سُنن الحياةِ على ظهر هذا الكوكب،

أنْ يأخذَ المؤمنُ أمر اللّهِ بالتسليم،
ويأخذ الضَّالُ المؤمنَ بالاستهزاء!
عندما أمرَ اللّه تعالى نوحاً عليه السَلام أن يصنع الفلك،
لم يقُلْ: يا رب. وما تفعلُ سفينةٌ في الصَّحراءِ!
وإنّما قام من فورِه ينشرُ الألواح ويدقُّ المسامير،
الملائكة يُرشدُونَه، والمؤمنون القلَّة معه يساعدونه،
في مشهد مهيب من التسليم: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾
وكان قومُه كلما مرُّوا به سخِرُوا منه،
لم يُدرِكُوا إلا حين جاءَ الطُّوفان!
كان الوقتُ قد فاتَ لينفعهم إدراكهم هذا،
لأنَّ الطُّوفان كان انتقام اللّهِ سبحانه!
وانظُرْ الآن حولكَ، أما ترى شيئاً من هذه السُّخرية،
أما ترى كيف يتطاولُ الإعلامُ الخبيث على أهل هذا الدِّين،
ألا تُنعتُ المحجبةُ بالمنغلقةِ والجاهلة بالموضة،
ألا يُنعتُ الملتزمُ بالمعقَّد وبالحيِّ على هامش الحياة،
ألا يُنعتُ رواد المساجد بالإرهاب،
فإذا جاء الحج قال أهل الباطل الطَّواف بالفقراء أفضل،
ولقمة في بطن جائعٍ خير من بناء ألف جامع!
وإذا ما جاء «الكريسماس» زيّنُوا له واحتفلوا به، ونسُوا الفقراء،
يسخرون من العُمرة بعد العمرة،
وهم من سفرٍ إلى سفرٍ،
وإذا ما اجتمع الناس حول داعيةٍ قالُوا: تجمُّعٌ لا طائلَ منه،
وإذا أُقيمت حفلةٌ لمغنٍّ أو مغنية، اجتمعوا عن بكرة أبيهم!
سُنّة ماضية، وطريقة سائرة، والحمدُ للّهِ على نعمة يوم القيامة!

الدَّرسُ الثّاني:

الوفاءُ من شِيَمِ النُّبلاء وقد كان النبيُّ ﷺ أوفَى الناس،
اُنظرْ إليه كيفَ يذكرُ فضلَ عمِّه عليه،
يعترفُ له أنّه ربّاه صغيراً، ودافعَ عنه وحمَاه كبيراً،
لم يمنعه أنْ خالفه عمُّه في الدِّين أن يعترفَ بصنيعه معه في الدُّنيا،
وعلى هذا كانتْ كلُّ أيامه يفوحُ منها الوفاء فوحاً،
أرسلَ مسيلمةُ الكذَّابُ إلى النبيِّ ﷺ رسولين برسَالة،
فلما قرأ فيها ادَّعاءَ مُسيلمة الكذَّاب للنُّبوة،
قال للرسولين: ما تقولان أنتُما؟
فقالا: نقولُ كما قال!
فقال لهما: أما واللهِ لولا أنَّ الرُّسلَ لا تُقتل لضربتُ أعناقكما،
هكذا جرَت العَادةُ والعُرفُ بين الملوك والزعُّماء،
أنَّ الرُّسل بينهم لا تُقتل مهما كان مضمون الرِّسالة التي يحملونها،
عُرفٌ «دبلوماسيّ» سائد أوفى به سيد الأوفياء!
ولم ينسَ النبيُّ ﷺ لمطعم بن عدي معروفه معه،
ولو كان حيّاً يوم أسرى بدر وطلبَ منه أن يُحررهم لفعلَ،
يحفظُ معروف رجلٍ مشركٍ في قوم مشركين جاؤوا لقتاله!
وأرسلت قريشٌ أبا رافع موفداً لها للنبي ﷺ،
وأراد أن يبقى بالمدينة المنورة ويُسلم،
فلم يقبل النبيُّ ﷺ هذا وقال له:
إني لا أخيسُ بالعهد، ولا أحبسُ البُرّد / الرُّسُل،

ولكن اِرجعْ إلى قومكَ،
فإن كان في نفسكَ الذي فيها الآن فارجعْ!
رغم أنَّ أبا رافعٍ أراد أن يُسلم طَوعاً ويبقى في المدينة،
الا أنَّ النبيَّ ﷺ رفضَ هذا،
لأن الرَّسول يجب أن يرجعَ بالرِّسالة،
واعتبرَ أن بقاءه حبسٌ له ولو كان برغبتِه!
وكان من شروط صُلح الحديبية،
أنَّ من جاء من قريش مسلماً فعليهم ردُّه إلى أهله،
وما إنّ تمَّ توقيع الصلح حتى وصل أبو جندل مسلماً،
فسلّمه النبيُّ ﷺ لأبيه سهيل بن عمرو!
وعن حذيفة بن اليمان قال:
ما منعني أن أشهدَ بدراً إلا أني خرجتُ أنا وأبي حسيل،
فأخذنا الكفار فقالوا: إنكم تريدون محمداً!
فقلنا: ما نريده، إنما نريدُ المدينة!
فأخذوا منا عهداً أن ننصرف إلى المدينة ولا نُقاتل معه!
فأتينا النبيُّ ﷺ فأخبرناه بالخبر،
فقال: اِنصرِفا، نفي لهم بعهدهم، ونستعينُ اللّه عليهم!
يا للوفاء يا رسول اللّه، يا للوفاء!
كان بإمكانه أن يعتبرَ أن هذا العهد من خِداع الأعداء،
وخداع العدو المشرك جائز بلا خلاف،
وهو على وشك حرب وأحوج ما يكون إلى جنديٍّ،
ولكنه رفض نصراً ملوثاً بعهد مخلوف!
فإذا كان هذا وفاؤُه لأعدائه فكيف تُراه كان وفاؤُه لأحبابه؟!

الدَّرسُ الثّالث:

شأنُ أهلِ الباطلِ أن يُزيّنوه للناس،
واُنظرُ لقريشٍ كيف تُزين لأبي طالبٍ الباطل الذي هو عليه!
يا أبا طالبٍ أنتَ رأسُ الحنيفية ملَّةً الأشياخ،
وما هي إلا جاهلية وشرك،
ولكن من طرقهم المعهودة أن يُغيروا الأسماء لتصبح مقبولة!
وهذه طريقة سيدهم إبليس التي انتهجها مع آدم عليه السَّلام،
﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾
فإنّ الخمر سمُّوه مشروبات روحيَّة ليسَّوقوه،
وإنّ الرِّبا أسموها فائدة ليروِّجوها،
وإنَّ الشُّذوذ أسموه مثليّة ليرغِّبُوا فيه،
سمُّوا الدَّياثَة انفتاحاً لتصيرَ مقبولة،
وسمُّوا الزِّنى علاقةً عاطفية ليصير مرغوباً،
وسمُّوا التبرج موضةً ليصيرَ مطلوباً،
فتعالوا نقلِبُ الطَّاولة عليهم ونُسمّي الأشياء بمسمياتها،
دعونا لا نُجمِّل الحرام ولا نُميِّع الحلال!

الدَّرسُ الرّابع:

وصلَ الآن بنا المطاف إلى نقطةٍ تتجدد كل فترة،
فلا يكاد يخلو عام إلا ويموتُ فيه عالمٌ

قد أسدى للبشريَّة خدماتٍ جليلة
في الطب أو الهندسة وهو على غير ملة الإسلام،
عندها تجد بعض المسلمين ممن يخلطون بين الرحمة الإنسانية، وبين تمام العقيدة،
يُدلون بدلوهم، ويُرسلون الرَّجل إلى الجنَّة كأن بأيديهم مفاتيحها،
ويقولُ لك أحدهم: كيف يُعذِّب اللّهُ أحداً اخترعَ دواءً وخفَّفَ آلامَ النَّاس،
كيف سيدخلُ أديسون النار وقد أضاء لنا كوكب الأرض ب الكهرباء،
وكأنّ مفتاح الجنَّة أن تخترعَ دواءً أو مصباحاً.
وعلى المقلب الآخر تجد قسماً آخر من المسلمين،
يقطع لهذا العالم الذي ماتَ على غير الإسلام بالنَّار،
كأنهم يحملُون مفاتيحها أيضاً.
وكلاهما على خطأ وإن كان خطأ الفئة الثَّانية أيسر من خطأ الفئة الأولى!
نحترمُ العلم والعلماء، ونقدِّرُ خدماتهم الجلية في سبيل الإنسانيّة،
ولكن هذا شيء والجنّة والنّار شيء آخر!
دفاع أبي طالبٍ عن النبيّ ﷺ أهمّ من اختراع دواء ومصباح.
ولكن هذا الدّفاع لم يُسعفه لأنه ماتَ على الشِّرك!
هكذا يجب أن يُنظر إلى الأمر بعقيدة لا بعاطفة،
مع إيمان ثابتٍ أنه لا أحد أعدل وأرحم من اللّه!

بالمقابل، قلّة أدب مع اللّه أن نقطع بالنار لشخص بعينه،

وإنما نقول بالجملة:

أنه من ماتَ على غير الإسلام بعد أن سمعَ به ووصله فرفضه دخلَ النارَ،

مع إيمان راسخ أن الأمر للّه أولاً وآخراً إن شاء عذَّبَ وإن شاءَ غفرَ.

لن يُسأل الناس في قبورهم عن الكهرباء التي اخترعوها،

ولا الأدوية التي صنعوها، ولا الجسور التي أقاموها،

وإنّما هي العقيدة أوّلاً وأخيراً.

فلا نخلط بين مُسَلَّمات ديننا، وبين إنسانيتنا وشفقتنا على الآخرين وتقديرنا لجهودهم،

ونتأدب مع اللّه فلا نقطع بالنار لأحد بعينه،

وإنما بعموم الثابت في ديننا، وبصريح قول ربنا:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

62

﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾

إنّ اللّهَ سُبحانه لم يطالبْكَ بالعصمةِ من الذّنب،
وإنّما طالبَكَ التَّوبةِ والانكسارِ حين يقعُ منك الذّنب!
عندما أذنبَ آدم عليه السّلام اعترفَ واستغفرَ فقبِل اللّهُ منه،
وعندما أذنبَ إبليسُ علا واستكبر فأعرضَ اللّهُ عنه،
فمن أذنبَ واستغفرَ كان في قافلة التائبين مع آدم عليه السَّلام،
ومن أذنبَ وعلا كان في قافلةِ المستكبرين مع إبليس!
إنّ ألفَ ذنبٍ يعقبُه كلّ مرّةٍ اعترافٌ، وانكسارٌ، وتوبة،
خير للمرء من ذنبٍ واحدٍ فيه كِبر وإصرار،
وإنّ اللّه ما سمّى نفسه الغفور إلا تحبّباً بعباده المذنبين المنكسرين،
وما سمّى نفسه الودود إلا ليُرغّب عباده بمحبته،
بل إنّ ذنباً واحداً يكسرك، ويُخرجُ من نفسك العُجبُ
هو أنفع لنفسك من طاعة تملأ نفسك إعجاباً وغروراً!

63

أخذتْ قريشٌ عمَّارَ بن ياسرٍ، وأباه، وأمّه سُميّة،
فعذّبوهم عذاباً شديداً...
فأمّا سُميّة فقد ربطوها بأوتادٍ في الأرض،
وقال لها أبو جهلٍ، أنكِ أسلمتِ من أجل الرِّجال،
يرميها عدوُّ اللّهِ بالزّنى!
فبصقتْ في وجهه، وقالتْ له: يا لكَ من فاحشٍ بذيء!
فأخذ حربةً وطعنها، فكانت رضي اللّه عنها أول شهيدة في الإسلام!
ورفضَ ياسرٌ أن يكفر باللّهِ فقتلوه أيضاً!
كلُّ هذا يحدثُ أمام عمّار، قتلُوا أباه وأمُّه وهو ينظرُ!
وما زالوا به يكرهونه على شتم النبيِّ ﷺ حتى أجابهم!
فأُخبرَ النبيُّ ﷺ بأنَّ عمَّار قد كفَرَ!
فقال: كلا، إنَّ عمَّاراً مُلئَ إيماناً من رأسه إلى قدمه،
واختلطَ الإيمان بلحمه ودمه!
وجاء عمَّارٌ إلى النبيُّ ﷺ وهو يبكي!
فقالَ له النبيُّ ﷺ: ما وراءَكَ؟
فقالَ: شرٌّ يا رسول اللّه، ما تركوني حتى نِلتُ منك!
فقال له النبيُّ ﷺ: كيفَ تجدُ قلبكَ؟
قال: مطمئنٌ بالإيمان!
فقال له: إن عادوا فعُدْ!

وأنزلَ اللّه تعالى قوله: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

الدَّرسُ الأوّل:

يا لآلِ ياسر ما كان أصعب امتحانهم!
يا لسُميّةَ تُمرّغُ كبرياء أبي جهلٍ في تُراب مكة ثم ترتقي شهيدة،
ويا لياسر يرى زوجته أمامه تُقتل فلم يفتَّ ذلك من عزيمته شيئاً،
إنما هي حياة واحدة ونَعِمَ خاتمتها الشّهادة!
ويا لعمّار يرى مقتلَ أبويه بعينيه،
فيعطيهم بلسانه ما يرضون وقلبه جبلٌ من الصّبر والإيمان،
ثم يا للمجد إذ ينزلُ فيه قرآن يُتلى إلى يوم القيامة،
ويا للنّبيِّ صلى اللّه عليه وسلّم إذ كان يمرُّ بهم يُثبتهم بقوله الخالد:
صبراً آل ياسر فإنّ موعدكم الجنّة!
أما واللّهِ لو كانتْ هي دنيا فحسب لقلتُ لكَ تعالَ نتوجّعُ عليهم،
ولكنها ليست إلا دار عبور، وقد اختاروا أجمل طريق!
كأنّي بسميّة والملائكة تزُفُّها إلى الجنة،
ومن لا يرى المشهد إلا بعينيه يتحسَّرُ عليها،
ولو نظرَ إلى المشهد بعين النّتيجة لتمنى أن يكون مكانها!

وكأني بياسر يأخذُ بيد سُميّة ويدخلُ بها الجنّة،
هناك حيث لا أبو جهلٍ ولا أبو لهب،
ينظرون إلى مكّة من عَلٍ، وبودّهم لو قالوا لهم: نحن أخيراً نجَوْنا!
الجنَّة هي الفوز الذي يجعلُ كل الخسارات تافهة!

الدَّرسُ الثّاني:

هذه الدُّنيا دار عمل وليس دار جزاء، دار امتحان وليستْ دار نتيجة!
وقدرُ المؤمن فيها أن يمسَّه البلاءُ منها،
فإن اُبتليتَ بالظالمين فها هم آل ياسر لكَ عزاءً،
وإن ابتليتَ بالفقر فقد كان يمرُّ بآل رسول اللّه ﷺ الشَّهر ثم الشَّهر،
ولا يُوقد في بيوتهم شيء من النار لا لخبزٍ ولا لطبيخ!
كانوا يعيشون على الأسودين التمر والماء!
وكان لهم جيران من الأنصار جزاهم اللّه خيراً لهم غنم يرسلون إليهم شيئاً من لبن!
وإن اُبتليتَ بالبُهتان فها هو يوسف عليه السّلام،
قد أوداه حُب امرأة إلى غياهب السِّجن بضع سنين،
ومن قبل حسد إخوته قد أوداه إلى قعر الجُب،
يا صاحبي إنها دار أذى وبلاء!

وإن لاقيتَ الصّعابَ وأنتَ تُبلّغُ رسالة ربّك
فها هو الكريم ابن الكريم يحيى بن زكريا عليهما السّلام،
قُدِّم رأسُه مهراً لامرأةٍ فاجرة أرادتْ أن تتزوج أخاها الملك،
فأفتى يحيى عليه السَّلام أن ذلك حرام،
فاثبُتْ على مبادئك فما رأسك بأشرف من رؤوس الأنبياء!

الدَّرسُ الثّالث:

لم يكن العذابُ من نصيبِ آل ياسر وحدهم،
ذاقَ الصّحابة أصناف العذاب ليصلَ إلينا الإسلام على طبقٍ
من ذهب!
كان عمُّ عثمان بن عفان يلفُّه في حصير من ورق النخيل،
ثم يوقدُ فيه النّار حتى تمسَّ جلده!
وعن مصعب بن عُمير فتى قريشٍ المدلل فحدّثْ ولا حرج!
لما علمتْ أمّ مصعب بن عمير بإسلامه منعته الطَّعام والشراب،
وأخرجته من بيته، وكان من أنعم الناس عيشًا،
فتَخَشّفَ جلده تخشف الحية!
وكان صهيب بن سنان الرومي يُعذّب
حتى يفقد وعيه ولا يدري ما يقول!
وكان أمية بن خلف يضعُ حبلًا في عنق بلال بن رباحٍ،
ثم يُسلمه إلى الصِّبيان، يطوفون به في جبال مكة،
ويجرُّونه حتى كان الحبل يؤثر في عنقه، وهو يقول: أحَدٌ أحَدٌ!

وأشدُّ من ذلك كله أنه كان يُخرجه إذا حميت الظَّهيرة،
فيطرحه على ظهره في الرَّمضاء في بطحاء مكة،
ثم يأمرُ بالصَّخرة العظيمة فتُوضع على صدره،
ثم يقول: لا واللّه لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد،
وتعبد اللات والعزى،
فيقول وهو في ذلك: أحد، أحد!
ويقولُ: لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها.
وكان أبو فُكَيْهَةَ مولى لِبَنِي عبد الدار،
فكانوا يخرجونه في نصف النَّهارِ في حر شديد،
وفي رجليه قيد من حديد، فيجرِّدُونه من الثياب،
ويبطحُونه في الرَّمضاء،
ثم يضعُون على ظهره صخرةً حتى لا يتحرك،
فكان يبقى كذلك حتى لا يعقل،
فلم يزل يُعذَّب كذلك حتى هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية،
وكانوا مرَّة قد ربطوا رجله بحبل،
ثم جرُّوه وألقوه في الرَّمضاء وخنقُوه حتى ظنُّوا أنّه قد مات،
فمرَّ به أبو بكر فاشتراه وأعتقه للّه.
وكان خبَّابُ بن الأرت مولى لأمّ أنمار بنت سِباع الخُزاعيّة،
وكان حدّادًا، فلما أسلم عذَّبته مولاتُه بالنَّار،
كانت تأتي بالحديدة المحماة فتجعلها على ظهره أو رأسه،
ليكفر بمحمد ﷺ، فلم يكن يزيده ذلك إلا إيمانًا وتسليمًا،
وكان المشركون أيضًا يعذبونه فيلوون عنقه،
ويجذبون شعره، وقد ألقوه على النار،

ثم سحبوه عليها، فما أطفأها إلا شحم ظهره!
وكانت زِنِّيرَةُ أَمَةً رومية قد أسلمت فعذبت في اللّه
وأصيبت في بصرها حتى عميت،
فقيل لها: أصابتك اللات والعزى!
فقالت: لا واللّه ما أصابتني، وهذا من اللّه، وإن شاء كشفه،
فأصبحتْ من الغد وقد ردَّ اللّه بصرها!
وَطِيءَ أبو بكر بن أبي قحافة يومًا بمكة، وضُربَ ضربًا شديدًا،
دنا منه عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين
ويحرفهما لوجهه،
ونزا على بطن أبي بكر، حتى ما يعُرف وجهُه من أنفه،
وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله،
ولا يشكُّون في موته، فتكلم آخر النهار فقال:
ما فعل رسول اللّه ﷺ؟

الدَّرسُ الرّابع:

كان المقداد بن الأسود يوماً جالساً في جماعةٍ من أصحابه،
فمرَّ رجلٌ فقال له: طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا النبيَّ ﷺ،
واللّهِ لوددنا أنَّا رأينا ما رأيتَ، وشهدنا ما شهدتَ!
فغضبَ المقداد غضباً شديداً، ثم قال:
ما يحملُ الرَّجل على أن يتمنى محضراً غيَّبه اللّه عنه،
لا يدري لو شهده كيف يكون حاله، واللّهِ لقد حضرَ رسولَ اللّه ﷺ،

أقوام أكبَّهم اللّه في النَّار، لم يُجيبوه ولم يصدِّقوه،
ألا تَحمدون اللّه إذ أخرجكم تعرفون ربكم، مُصدِّقين لما جاء به نبيكم،
قد كُفيتم البلاء بغيركم؟
واللّهِ لقد بُعثَ النبيُّ ﷺ على أشدِّ حالٍ بُعثَ عليها نبيٌّ من الأنبياء،
فترةَ جاهليّة، ما يرون ديناً أفضل من عبادة الأوثان،
فجاء بفُرقانٍ فرَّقَ بين الحقّ والباطل، وفرَّقَ بين الوالد وولده،
حتى إنْ كان الرجل ليرى ولده أو والده أو أخاه كافراً وقد فتحَ اللّه قُفْلَ قلبه للإيمان،
يعلمُ أنه إن هلكَ على هذه الحال دخلَ النار!
كُلنا نتمنى لو أننا رأينا النبيَّ ﷺ،
لندافع عنه يوم آذته قريش في نفسه ودينه،
ولنصدَّ عنه الحجارة يوم رجمُوه في الطَّائف،
ولنكون له حرساً ورفيقاً يوم هجرته،
ولنذود عنه في أحد فلا يسيل دمه الشريف كما سال،
ولنأكلَ عنه كتفَ الشَّاة المسمومة التي قدَّمتها إليه امرأةٌ من يهود،
وهذه أُمنية لا شيء فيها، نابعة من الإيمان، ومن محبته ﷺ،
ولكن على الإنسان أن يعرفَ أن اللّه سبحانه وتعالى قد خلقه في زمنٍ هو أنفع له،
وإنها لنعمة حقاً أننا وُلدنا مسلمين، فتحنا أعيننا على الدنيا يُعلّمنا أهلنا التوحيد،

ويُحفّظوننا الفاتحة، ويدرِّبونا على الصَّلاة والصِّيام،
حتى إذا كبرنا وجدنا الإسلام قد اختلطَ بلحمنا وعظمنا،
وهو أغلى شيءٍ عندنا!
وما أدراكم لو أنَّ أحدنا قد وُلد في قريش، فرَبَّاه أبواه على عبادة الأصنام،
وعلى تقديس هُبل واللات ومناة، فنشأ شارباً للخمر،
آكلاً للربا، وائداً للبنات،
حتى صارتْ هذه منظومة قيمه، وسيرة عمره،
ثم سمع أن رجلاً قد بُعثَ يهجو الأصنام،
ويدعو إلى عبادة رب واحدٍ لا يُرى،
لربما كان وقتها أحد الصناديد الكافرة،
التي استماتت تُدافع عن الدين الذي تعتقدُ أنّه الحقّ!
احمدُوا اللّه أنّ الإسلام وصلنا على طبقٍ من السُّهولة،
بلا دفع ولا مُجاهدة، بلا مُغالبة أبوين كما حصل مع سعد بن أبي وقاص،
وبلا مراودة عن مالٍ كما حصل مع صُهيبٍ الرومي،
فتلك واللّهِ امتحانات صعبة، واختبارات عسيرة،
قد سقط فيها كثيرٌ من النَّاس!

64

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾

الأمنيةُ التي قذفها اللّهُ في قلبك أنتَ قادرٌ على تحقيقها،
والحُلُمُ الذي ملَك عليك نفسك أنتَ قادرٌ على السّعي إليه،
والعقباتُ في الطّريق أنتَ قادرٌ على تخطِّيها،
والمسؤولياتُ المُلقاة على عاتقكَ أنتَ قادرٌ على حملها،
والأوجاعُ التي تصيبُكَ أنتَ قادرٌ على تحمُّلِها،
والمخاوفُ التيَ تعتريك أنتَ قادرٌ على تجاوزِها،
اللّه أرحم من أن يشغلك بأمنيةٍ مستحيلة،
وبعقبةٍ لا تُجتاز، وبوجعٍ لا يُطاق، وبمسؤوليةٍ لا تُحمل،
اللّه لا يمتحنُ عبده بالمستحيل وإنما بالممكن،
سبحانه هو أرحم من أن يُكبّلك ثم يمتحنكَ،
ولكنّه يمتحنك ليريكَ أنّك قادرٌ على أن تفكَّ قيودَكَ!

65

يقولُ الحارثُ بن ضِرارٍ الخُزاعيِّ: قدمتُ على رسولِ اللّهِ ﷺ،
فدعاني إلى الإسلامِ فدخلتُ فيه وأقررتُ به،
فدعاني إلى الزَّكاةِ فأقررتُ بها،
وقلتُ: يا رسولَ اللّهِ أرجعُ إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلامِ
وأداءِ الزكاةِ،
فمن استجابَ لي جمعتُ زكاتَهُ،
ثمّ يُرسلُ إليَّ رسولُ اللّهِ ﷺ رسولًا وقتَ كذا وكذا ليأتيكَ
بما جمعتُ من الزكاةِ.
فلمَّا جمعَ الحارثُ الزكاةَ ممَّن استجابَ له،
وبلغَ الوقتُ الذي أرادَ رسولُ اللّهِ ﷺ أن يبعثَ إليه،
أبطأ عليهِ الرسولُ فلم يأتِهِ،
فظنَّ الحارثُ أنه قد حدثَ فيه سخطةٌ من اللّهِ عزَّ وجلَّ ورسولِهُ،
فدَعَا وجهاء قومِهِ فقال لهم: إنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ،
كان وَقَّتَ لي وقتًا يُرسلُ إليَّ رسولَهُ ليَقبضَ ما كان عندي من الزكاةِ،
وليس من خُلُقِ رسولِ اللّهِ ﷺ الخُلْفُ،
ولا أرَى حَبْسَ رسولِه إلا من سخطةٍ كانت!
فانطَلِقوا فنأْتي رسولَ اللّهِ ﷺ.
وبعثَ رسولُ اللّهِ ﷺ الوليدَ بنَ عقبةَ إلى الحارثِ ليَقبضَ ما كان
عندَهُ ممَّا جمعَ من الزكاةِ،
فلمَّا أن سارَ الوليدُ حتى بلغَ بعضَ الطريقِ خافَ فرجعَ،

وأَتَى رسولَ اللّهِ ﷺ فقال يا رسولَ اللّهِ:
إنَّ الحارثَ منعني الزكاةَ وأرادَ قَتْلِي!
فجهّزَ رسولُ اللّهِ ﷺ جيشاً إلى الحارثِ!
فأَقْبَلَ الحارثُ بأصحابِه حتى إذا استقبلَ الجيش،
فقال لهم: إلى من بُعِثْتُمْ؟
قالوا: إليكَ!
قال: ولِمَ؟
قالوا إنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ كان بعثَ إليكَ الوليدَ بنَ عقبةَ،
فزعمَ أنكَ منعتَهُ الزكاةَ وأردتَ قتلَه!
قال: لا والذي بعثَ محمدًا بالحقِّ ما رأيتهُ ولا أتاني!
فلمَّا دخلَ الحارثُ على رسولِ اللّهِ ﷺ قال له:
منعتَ الزكاةَ وأردتَ قتلَ رسولي!
قال: لا والذي بعثكَ بالحقِّ ما رأيتهُ ولا أتاني،
وما أقبلتُ إلا حين احْتُبِسَ عليَّ رسولُ رسولِ اللّهِ ﷺ،
خشيتُ أن تكونَ سخطةً من اللّهِ عزَّ وجلَّ ورسولِهُ،
وأنزل اللّه تعالى قوله تصديقاً للحارث، وتقريعاً للوليد:
﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾

الدَّرسُ الأوّل:

درسٌ عظيم مفاده أن لا أحد يعلم الغيبَ إلا اللّه،
والنبيُّ ﷺ في شأن الغيب كغيره من النَّاسِ،
ولم يكن يعرفُ منه إلا ما أطلعه اللّه تعالى عليه،
سواءً تعلَّقَ هذا الغيب بما لم يقع بعد،
كعلامات السّاعة، وخروج الدّجال، والدَّابة، والشَّمس من مغربها،
وأهوال يوم القيامة، وأحوال النَّاس فيها،
وعيّناتٍ من أهل الجنَّة، ومن أهل النار،
فكُلُّ هذا مما وقعَ حتماً لا نشُكُّ بهذا ولا نرتاب،
ولكن النَّار الآن خالية من أهلها، والجنَّة كذلك،
وإنّما دخولهما بعد حساب اللّه تعالى للخلائق!
ومن الغيب الذي يخفى على النبيِّ ﷺ،
هي الأمور التي حدثتْ فعلاً وصارتْ ماضياً،
فلم يشهدها بنفسه، ولم يأتِه وحيٌ بها،
وكلُّ ما كان يُخبرُ عنه النبيُّ ﷺ مما وقع،
إنّما كان يعرفه بالوحي الذي ينزلُ عليه،
وليس بقدرات خارقة كانت له، ولا باستطاعته معرفة الغيب،
الغيب شأن اللّه تعالى وحده، يكشفُ منه سبحانه لنبيِّه وفق حكمة قضاها!
من أمثلة هذا، والأمثلة في هذا كثيرة،
جلس عُمير بن وهب الجُمحي مع صفوان بن أُمية بن خلف،
بعد مصاب أهل بدر من قريش في الحِجْر بِيَسِيرٍ،

وَكَانَ عُمَيْرُ بْنُ وَهْبٍ شَيْطَانًا مِنْ شَيَاطِينِ قُرَيْشٍ،
وَمِمَّنْ كَانَ يُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ،
وَيَلْقَوْنَ مِنْهُ عَنَاءً وَهُوَ بِمَكَّةَ، وَكَانَ ابْنُهُ وَهْبُ بْنُ عُمَيْرٍ فِي أُسَارَى بَدْرٍ.
فذكر أصحاب القليب ومصابهم،
فَقَالَ صَفْوَانُ: وَاللَّهِ إِنْ فِي الْعَيْشِ بَعْدَهُمْ خَيْرٌ!
قَالَ لَهُ عُمَيْرٌ: صَدَقْتَ وَاللَّه،
أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا دَيْنٌ عَلَيَّ لَيْسَ لَهُ عِنْدِي قَضَاءٌ،
وَعِيَالٌ أَخْشَى عَلَيْهِمْ الضَّيْعَةَ بَعْدِي،
لَرَكِبْتُ إِلَى مُحَمَّد حَتَّى أَقْتُلَهُ،
فَإِنَّ لِي قِبَلَهُمْ عِلَّةً: ابْنِي أَسِيرٌ فِي أَيْدِيهِمْ!
فَاغْتَنَمَهَا صَفْوَانُ وَقَالَ: عَلَيَّ دَيْنُك، أَنَا أَقْضِيهِ عَنْك،
وَعِيَالُك مَعَ عِيَالِي أُوَاسِيهِمْ مَا بَقُوا، لَا يَسَعُنِي شَيْءٌ وَيَعْجِزُ عَنْهُمْ،
فَقَالَ لَهُ عُمَيْرٌ: فاكتم شأني وشأنك!
قال: أفعل.
ثُمّ أَمَرَ عُمَيْرٌ بِسَيْفِهِ، فَشُحِذَ لَهُ وَسُمّ،
ثُمّ انْطَلَقَ حَتّى قَدِمَ الْمَدِينَةَ،
فَبَيْنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطّابِ فِي نَفَرٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ يَتَحَدّثُونَ
عَنْ يَوْم بَدْرٍ،
وَيَذْكُرُونَ مَا أَكْرَمَهُمْ اللّه بِهِ، وَمَا أَرَاهُمْ مِنْ عَدُوّهِمْ،
إذْ نَظَرَ عُمَرُ إلَى عُمَيْرِ بْنِ وَهْبٍ حِينَ أَنَاخَ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ
مُتَوَشّحًا السّيْف،
فقال: هذا الكلب عدوّ اللّه عمير بن وَهْبٍ، وَاَللّهِ مَا جَاءَ
إلّا لِشَرّ،

وَهُوَ الَّذِي حَرَّشَ بَيْنَنَا، وَحَزَرَنَا لِلْقَوْمِ يَوْمَ بَدْرٍ.
ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ،
هذا عدوّ اللّه عمير بن وهب قد جاء متوشّحا سيفه،
قَالَ: فَأَدْخَلَهُ عَلَيّ!
فَأَقْبَلَ عُمَرُ حَتَّى أَخَذَ بِحِمَالَةِ سَيْفِهِ فِي عُنُقِهِ فَلَبَّبَهُ بِهَا،
وَقَالَ لِرِجَالٍ مِمَّنْ كَانُوا مَعَهُ مِنْ الْأَنْصَارِ:
اُدْخُلُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاجْلِسُوا عِنْدَهُ،
وَاحْذَرُوا عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الْخَبِيثِ، فَإِنَّهُ غَيْرُ مَأْمُونٍ!
ثُمَّ دَخَلَ بِهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.
فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَعُمَرُ آخِذٌ بِحِمَالَةِ سَيْفِهِ فِي عُنُقِهِ
قَالَ: أَرْسِلْهُ يَا عُمَرُ، اُدْنُ يَا عُمَيْرُ!
فَدَنَا ثُمَّ قَالَ: انْعَمُوا صَبَاحًا، وَكَانَتْ تَحِيَّةُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ بَيْنَهُمْ،
فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قَدْ أَكْرَمَنَا اللَّهُ بتحيةٍ خَيْرٍ مِنْ تَحِيَّتِك
يَا عُمَيْرُ،
بِالسَّلَامِ: تَحِيَّةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ!
فَقَالَ: أَمَا وَاَللَّهِ يَا مُحَمَّدُ إنْ كُنْتُ بِهَا لَحَدِيثُ عَهْدٍ.
قَالَ: فَمَا جَاءَ بِك يَا عُمَيْرُ؟
قَالَ: جِئْت لِهَذَا الْأَسِيرِ الَّذِي فِي أَيْدِيكُمْ فَأَحْسِنُوا فِيهِ.
قَالَ: فَمَا بَالُ السَّيْفِ فِي عُنُقِك؟
قَالَ: قَبَّحَهَا اللَّهُ مِنْ سُيُوفٍ، وَهَلْ أَغْنَتْ عَنَّا شَيْئًا؟
قَالَ: اُصْدُقْنِي، مَا الَّذِي جِئْتَ لَهُ؟
قَالَ: مَا جِئْتُ إلَّا لِذَلِك!
قَالَ: بَلْ قَعَدْتَ أَنْتَ وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ فِي الْحِجْرِ،

فَذَكَرْتُمَا أَصْحَابَ الْقَلِيبِ مِنْ قُرَيْش، ثُمّ قُلْت:
لَوْلَا دَيْنٌ عَلَيّ وَعِيَالٌ عِنْدِي لَخَرَجْتُ حَتّى أَقْتُلَ مُحَمّدًا،
فَتَحَمّلَ لَك صَفْوَانُ بِدَيْنِك وَعِيَالِك، عَلَى أَنْ تَقْتُلَنِي لَهُ،
وَاَللّه حَائِلٌ بَيْنَك وَبَيْنَ ذَلِكَ!
قَالَ عُمَيْرٌ: أَشْهَدُ أَنّك رَسُولُ اللّه،
وقد كُنّا يَا رَسُولَ اللّهِ نُكَذّبُك بِمَا كُنْت تَأْتِينَا بِهِ مِنْ خَبَرِ السّمَاءِ،
وَمَا يَنْزِلُ عَلَيْك مِنْ الْوَحْيِ، وَهَذَا أَمْرٌ لَمْ يَحْضُرْهُ إلا أنا وصفوان،
فو اللّه إنّي لَأَعْلَمُ مَا أَتَاك بِهِ إلّا اللّه، فَالْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي هَدَانِي لِلْإِسْلَام،
وَسَاقَنِي هَذَا الْمَسَاقَ،
ثُمّ شَهِدَ شَهَادَةَ الْحَقّ.
فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ: فَقّهُوا أَخَاكُمْ فى دينه وأقرئوه القرآن،
وأطلقوا له أسيره،
ففعلوا...
ثُمّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ، إنّي كُنْت جَاهِدًا عَلَى إطْفَاءِ نُورِ اللّهِ،
شَدِيدَ الْأَذَى لِمَنْ كَانَ عَلَى دِينِ اللّهِ عَزّ وَجَلّ،
وَأَنَا أُحِبّ أَنْ تَأْذَنَ لِي، فَأَقْدَمَ مَكّةَ، فَأَدْعُوهُمْ إلَى اللّهِ تَعَالَى،
وَإِلَى رَسُولِهِ ﷺ، وَإِلَى الْإِسْلَام،
لَعَلّ اللّه يهديهم، وإلا آذيتهم فى دينهم
كما كُنْت أُوذِي أَصْحَابَك فِي دِينِهِمْ؟
قَالَ: فَأَذِنَ له رسول اللّه ﷺ، فلحق بمكة.
وكان صفوان ابن أُمَيّةَ حِينَ خَرَجَ عُمَيْرُ بْنُ وَهْبٍ، يَقُولُ:

أَبْشِرُوا بِوَقْعَةٍ تَأْتِيكُمْ الْآنَ فِي أَيّام، تُنْسِيكُمْ وَقْعَةَ بَدْر،
وَكَانَ صَفْوَانُ يَسْأَلُ عَنْهُ الرّكْبَانَ، حَتّى قَدِمَ رَاكِبٌ فَأَخْبَرَهُ
عَنْ إسْلَامِه،
فَحَلَفَ أَنْ لَا يُكَلّمَهُ أَبَدًا، وَلَا يَنْفَعَهُ بِنَفْعٍ أَبَدًا.
فَلَمّا قَدِمَ عُمَيْرٌ مَكّةَ، أَقَامَ بِهَا يَدْعُو إلَى الْإِسْلَامِ،
وَيُؤْذِي مَنْ خَالَفَهُ أَذًى شَدِيدًا،
فَأَسْلَمَ عَلَى يديه ناس كثير!
وبالعودة إلى القصة التي بين أيدينا،
فإنَّ النّبيَّ ﷺ لم يعلم بما وقع من الحارث، لأنَّ اللّه سُبحانه
لم يُطلعه عليه،
وهذا من تمام عظمة اللّه تعالى، ومن تمام بشريّة النبيّ ﷺ!

الدَّرسُ الثَاني:

اُنظُرْ إلى همّة الحارث العالية في الإسلام،
أسلَمَ منذ لحظاتٍ ثمَّ جعلَ من نفسه داعيةً!
حملَ على عاتقه هداية قومه،
هكذا كانوا، إذا وقعُوا على الخير أرادُوا أن يُشاركهم النَّاسُ فيه،
لم يكتفِ أن يُسلِمَ هو لينجو بنفسه،
ولم يُقعده أن يكون داعيةً أنه حديث عهدٍ بالإسلام،
كان الإسلام كُلَّ حياتهم منذ أول لحظات إسلامهم حتى مماتهم،
لم ينتظروا أن يتعلموا كثيراً،

كانوا يعرفون أن العِلمَ يأتي مع الوقت،
أما العقيدة فإنّها تدخل سُويداء القلب منذ أول لحظةٍ،
ولم يكن يُخجلهم أن يتركوا دين قومهم،
ولم يكونوا يحفلون بما سيُقال عنهم،
كان لهم وجه واحد ولم تكن لهم أقنعة!
وهذا قريبٌ جداً مما حصل مع عمر بن الخطاب فور إسلامه،
لما أسلمَ عمر بن الخطاب لم تعلم قريشُ بإسلامه،
وعمر لا يفعلُ شيئاً في الخفاء،
فقال: أيُّ أهل مكة أنشأ للحديث؟ أي ينقل الأخبار!
فقالوا: جميل بن معمر الجمحي،
فذهبَ إليه عمر وقال له: يا جميل إني قد أسلمتُ!
فما ردَّ عليه جميل كلمةً، وإنّما قام مسرعاً عند الكعبة ونادى:
يا معشر قريش إن ابن الخطاب قد صبأ!
فقال عمر: كذبَ، ولكني أسلمتُ وآمنتُ باللّه، وصدَّقتُ رسوله!
فأخذوا يضربونه ويضربهم، حتى تعبَ عمر وجلسَ،
فقامُوا عند رأسه فقال لهم: افعلوا ما بدا لكم،
فواللّهِ لو كنَّا ثلاثمئة رجل لكنتم تركتموها لنا أو تركناها لكم!
فبينما هم كذلك جاء العاص بن وائل فقال: ما بالكم؟
قالوا: إنَّ ابن الخطاب قد صبأ!
فقال: امرؤ اختار ديناً لنفسه، أفتظنُّون أنَّ بني عدي تُسلم
إليكم صاحبهم؟
ففرَّجَ اللّه عن عُمر بقول العاص بن وائل وتركوه!
لا تخجل بالهداية بعد ضلال،

وارفعْ رأسكَ عالياً بوصل اللّهِ لكَ بعد انقطاعكَ عنه،
لماذا على الفتاة إذا كانت على غير حجاب خرجتْ في كامل زينتها،
وإذا هداها اللّه ستخجل بلباسها المحتشم،
من لم يكن يخجل وهو على معصية،
فالأولى أن يرفع رأسه عالياً وهو على طاعة!
ولماذا على الشاب إذا كان لاهياً عابثاً،
عاشَ لهوه وعبثه على رؤوس الأشهاد،
ثم إذا ردَّه اللّه إليه سيخجل بسيره إلى المسجد،
ومسابقته في حلق العلم وتحفيظ القرآن!
إنَّ من الأبواب التي يأتي بها الشيطان إلى من هداه اللّه في أول هدايته،
هو أن يقول له: أما تخجل من ماضيك؟!
ماذا سيقول الناس، شارب خمر البارحة وفي المسجد اليوم؟!
متزينة متعطرة البارحة وفي الحجاب اليوم؟
التوبة تجبُّ ما قبلها، وإن من تمام التوبة أن يُقبل العبدُ على الطاعة بفخرٍ،
تماماً كما كان في المعصية بفخر!
ثم إذا جاءك الشيطان من باب ماذا سيقول الناس؟
فأجبه وكيف كان الصحابة رضوان اللّه عليهم قبل أن تسطع في قلوبهم شمسُ الهداية،
منهم من شربَ الخمر، ومنهم من سجدَ لصنم،
ومنهم من أكل الربا،

ولم يكن أحدهم يخجل أن يتحوَّل كل هذا التحول،
كان يفاخر أمام قريش كلها، ولا يخجل بدينه،
ولا يحسبُ حساباً لتعيير الناس!

الدَّرسُ الثّالث:

عندما لم يصل مبعوث النبيِّ ﷺ إلى الحارث، اتهمَّ الحارثُ نفسه!
كان يعرفُ أن النبيَّ ﷺ لا يخلفُ ميعاداً، فظنَّ أن سبب عدم قدوم موفد منه،
قد حدث بسخطةٍ سخطها اللّه تعالى عليه أو نبيُّه،
وهذا من فقه المؤمنين أنهم يبحثون في أنفسهم أوّلاً،
كان المرءُ منهم إذا مرضَ راجعَ عباداته،
وإذا لم يقُمْ إلى صلاة الليل، قال: لعلَّ هذا بسبب ذنبٍ أصبته!
وقد بلغوا في اتهامِ أنفسهم مبلغاً عظيماً،
حتى إن أحدهم إذا لم تطاوعه دابته على المسير، قال قسَّاها اللّهُ علـيَّ بذنبي!
فإذا حدثَ ما لا تُحِبُّ فراجِعْ نفسكَ أولاً،
لعلَّ المرضَ الذي أصابكَ بسبب ذنبٍ أنت مقيمٌ عليه،
واللّه قد ابتلاكَ به يريدُ منكَ أمراً، ويريدُ لكَ أمراً!
يريدُ منكَ أن ترجعَ إليه وتتوب،
ويريدُ لكَ مغفرةً فإن الأوجاع تحطُّ خطايا المؤمن،
وإن ضيَّقَ عليكَ رزقكَ فراجِعْ صدقتك،

فلا شيء يجلبُ الرِّزق كالصدقة،

فإن اللّه تعهَّد أن يُخلفها على صاحبها، وخَلَفُ الكريمُ يكون بأكثر مما بذله العبد!

وإن لم تُجبْ لكَ دعوةٌ فانظُرْ إلى طعامكَ،

فإن المال الحرام يحجبُ الدُّعاء!

جاءَ في الأثرِ أن رجلاً قال لعيسى عليه السلام: أَوصِني،

فقال له: اُنظُرْ إلى رغيفك من أين هو!

المعنى: اِبحثْ عن الحلال!

ولأنَّ دعوة الأنبياء واحدة، والدِّين عند اللّه الإسلام،

قال النبيُّ صلَّى اللّه عليه وسلَّم: إنَّ اللّهَ طيِّبٌ لا يقبلُ إلا طيِّباً،

وإنَّ اللّه أمرَ المؤمنين بما أمرَ به المرسلين، فقال تعالى:

﴿يا أيُّها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾

وقال تعالى:﴿يا أيُّها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾.

ثم ذكرَ الرَّجُلَ يُطيل السَّفر، أشعثَ أغبر، يمدُّ يديه إلى السماء:

يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام،

وغُذِّيَ بالحرام، فأنَّى يُستجابُ له!

وروى الطَّبرانيُّ في الأوسط أنَّ سعدَ بن أبي وقاصٍ قال للنبي ﷺ:

يا رسول اللّه، ادعُ اللّه أن يجعلني مُستجاب الدَّعوة.

فقال له: يا سعد، أَطِبْ مطعمكَ تكُن مُستجاب الدَّعوة!

يشكو الناس هذه الأيام كثيراً أن الدُّعاء لا يُستجاب،

وهذا واقع مُشاهد، سببه أنَّ الناس استهانتْ بأكل الحرام!

وإنهم يحسبون أنَّ المال الحرام يعني أن تسرقَ من جيبِ إنسـان بعض ماله،
وهذا في الحقيقة جزء من المال الحرام لا كله!
الميراثُ الذي تستأثرُ به وحدكَ دون إخوتك،
أو تُعطيهم أقلَّ مما فرضَ الله لهم مالٌ حرام!
والمالُ الذي تموتُ الزوجة وتتركه وراءها فتأخذه وحدكَ،
وتحرم منه أهلها وأولادكَ مالٌ حرام!
الرَّشوة التي تتلقَّاها لتُنجز بها معاملات الناس مالٌ حرام!
والوظيفة الشكلية التي لا تحضر إليها ولا تعرف منها إلا راتبها مال حرام!
والعملُ الذي لا تُنجزه بحسب المواصفات والاتفاق مالٌ حرام!
والبضاعة التي تبيعها ولا تُبيِّن عيبها للناس مالٌ حرام!
والدَّين تأخذه من الناس لتُفرج كربكَ وفي نيتك أن لا ترده مال حرام!
والجمعية التي تشتركُ بها ثم تقبضها وتتوقف عن الدفع مال حرام!
والكماليات والسفرات والمظاهر الفارغة التي تقوم بها،
وللناس عليكَ حقوق وللعمال رواتب لا تُؤدِّيها مال حرام!
والرِّبا الذي تأخذه من البنك مال حرام مهما أفتاكَ فلانٌ وعلتان!
والتحايلُ على الله مالٌ حرام!
اُنظُروا إلى رغيفكم من أين هو،
وتأمَّلوا من أين تكسبون أموالكم، وكيف تُنفقونها،
ثم بعد ذلكَ سترون دعاءكم يتحقَّقُ كأنّه فلق الصُّبح!

الدَّرسُ الرّابع:

لا تتسرَّعْ في ردَّاتِ أفعالك،
ليس كل الأقوال التي وصلتكَ قد قيلتْ حقاً!
وليس كل الأفعال التي بلغتكَ قد حدثتْ فعلاً!
النّاسُ يكذبون أحياناً، ويحرِّفون الأقوال كثيراً،
ومُشاهَدٌ عياناً كم يفتري بعضهم على بعض،
وقد كان الأوائل يُغلقون الأبواب في وجه النَّمامين،
ولو كان ما أوصلوه من فتنةٍ حقاً!
قال رجلٌ للأحنف بن قيس: أخبرني بعض الثقات،
أنك ذكرتني بسوء!
فقال له الأحنف: لو كان ثقةً ما نمَّ!
الناسُ أحياناً فيهم نُبل عجيب لا يُدركه الآخرون!
روى أبو نُعيم في الحلية، وابن عسكر في تاريخ دمشق:
إنَّ عمر بن الخطاب استعملَ على حمص سعيد بن حُذيم،
ولما جاء عمر إلى الشام، سأل أهل حمصَ عن سعيد،
فقال: يا أهل حمص كيف وجدتم عاملكم؟
فقالوا: نشكو منه أربعاً!
فقال عمر: وما هيَ؟
قالوا: لا يخرجُ إلينا حتى يتعالى النهار،
ولا يجيبُ أحداً بليل،
وله يوم في الشهر لا يخرج إلينا فيه أبداً،
وتأخذه إغماءة بين الفينة والأخرى!

فجمعَ عمر بينه وبينهم وهو يقول في نفسه:
اللهم لا تُضيِّع فراستي في سعيد!
ثم قال للناس: ما تشكون منه؟
فقالوا: لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار!
فقال سعيد: ليس لأهلي خادم، فأعجنُ لهم، وأنتظرُ
حتى يختمر،
ثم أخبزُ لهم، وأتوضأ، وأخرجُ للناس!
فقالوا: لا يجيبُ أحداً بليل!
فقال: جعلتُ لهم النهار، وجعلتُ الليل للّه، أقومُ بين يديه فيه!
فقالوا: وله يوم في الشهر لا يخرجُ إلينا فيه أبداً!
فقال: ليس لي خادم يغسلُ ثيابي، ولا ثياب أُبدلها، فأغسلها أنا،
وأجلسُ أنتظرُ حتى تجف، ثم أخرج إليهم في المساء!
فقالوا: وتأخذه إغماءة بين الفينة والأخرى!
فقال: شهدتُ مصرع خُبيب الأنصاري بمكة، وقد عذبته قريش،
فقالوا: أتحبُّ أن محمداً مكانكَ؟
فقال: واللّهِ ما أحبُّ أني في أهلي وولدي وأن محمداً يُشاك
بشوكة!
فما تذكرتُ ذلك اليوم، وتركي نصرته رغم أني على الشرك،
إلا أخذتني إغماءة!
فقال عمر: الحمدُ للّه الذي لم يُضيِّع فراستي في سعيد!
بعضُ الناس أنبل مما نعتقِدُ، ولكننا للأسف نحملُ ما جهلناه
على سوء الظنِّ،
وسوء الظنِّ وإن كان أحياناً من حُسن الفطن،

إلا أنَّ الذي لا يرى في الناس خيراً فهو أسوأ الناس!

في قرية نائيةٍ كان هناك رسام عجوز،

يجني كثيراً من المال من بيع لوحاته الجميلة،

وعابَ عليه بعض أهل القرية عدم مساعدته للفقراء فيها،

واتهموه بالبخل!

ولكنه لم يردَّ عليهم، وعندما ماتَ الرسام العجوز،

توقَّفَ لحَّامُ القرية عن توزيع اللحم على الناس بالمجان،

فلما سألوه عن السبب،

قال: كان الرسام العجوز هو الذي يدفع ثمن اللحم،

ولا قدرة لي على توزيعه مني!

إنَّ الذي لا يحملُ صدقته ويطوف بها على الملأ لا يعني أنه لا يتصدق!

والذي لا يُصور نفسه حاملاً المصحف لا يعني أنه هاجر للقرآن،

والذي لا يُصور نفسه حاضناً زوجته لا يعني أنه لا يُحبها!

هناك أشخاص يغلقون الأبواب على أنفسهم، ولا يفتحون حياتهم على مصراعيها!

هناك أشخاص يتركون أشياء للّه،

يخشون أن يُفسدها اطلاعُ الناس عليها، فافْهَمْ!

66

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾

الصّدقةُ لكَ وإن بدا أنّها للفقير،
والكلمةُ الحُلوة لكَ وإن أسعدَتْ غيرك،
وجبرُ الخواطر لكِ وإن كان أثرُه على النّاس،
أنتَ لا تغرِفُ وتملأ دِلَاء الآخرين،
في الحقيقة أنتَ تملأ دَلْوَك!
مُعالِجُ المريضِ في الحقيقة يعالجُ نفسَه،
والسّاعي على الأرملةِ والمسكينِ ساعٍ على نفسِه،
والماشي في حاجةِ إنسانٍ إنّما يمشي في حاجتِهِ،
ومن المُفارقات العجيبة:
أننا لن نخرجَ من الدُّنيا بما أخذناه وإنّما بما أعطيناه!

67

بعثَ كسرى ملكُ فارسٍ جيشاً إلى الرُّوم،
واستعملَ عليهم رجلاً يُسمَّى «شهريراز»
فسارَ إليهم، وانتصر عليهم، وخرَّب مدنهم، وقطعَ زيتونهم!
وبلغَ ذلكَ النبيُّ ﷺ وأصحابه بمكة، فشقَّ عليهم ذلك!
وكان النبيُّ ﷺ يكره أن ينتصر المجوس على الرُّوم،
لأنَّ الرُّومَ نصارى أهلُ كتاب، والفرسَ مجوسٌ يعبدون النَّار،
وفرِحَ مشركو قريشٍ بنصر فارس على الرُّوم لأنهم مثلهم
ليسوا أهل كتاب،
ولقوا أصحابَ النبيُّ ﷺ فقالوا لهم:
إنكم أهل كتابٍ والنَّصارى أهل كتاب،
ونحن أُميُّون وقد ظهرَ إخواننا من أهل فارس، على إخوانكم
من أهل الرُّوم،
وإنكم إنْ قاتلتمونا لنظهرنَّ عليكم،
وأنزل اللّه تعالى قوله في هذه الحادثة مخبراً أن الرُّوم سترجعُ
وتنتصر:
﴿الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾،
فلما نزلت هذه الآيات قال المشركون لأبي بكر:
ألا ترى إلى ما يقولُ صاحبك؟
يزعم أنَّ الرُّومَ تغلبُ فارس!

قال: صدقَ صاحبي!

أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا؟

فلا تفرحوا ولا يقر اللّه أعيُنَكم فواللّه ليظهرنَّ الرُّومُ

على فارس، خبرنا بذلك نبيُّنا!

فقام إليه أبي بن خلف فقال: كذبتَ!

فقال أبو بكر: أنت أكذب يا عدوَّ اللّه!

وإني أراهنك، عشر قلائص مني وعشر قلائص منك،

والقلوصُ وهي النَّاقةُ الشَّابة،

فإن ظهرت الروم على فارس غرمتَ،

وإن ظهرت فارسُ غرمتُ إلى ثلاث سنين!

ثم جاء الصِّديقُ أبو بكر رضي اللّه عنه إلى النَّبيِّ ﷺ فأخبره،

فقال له: ما هكذا ذكرتُ، إنّما البضع ما بين الثلاث إلى التِّسع،

فزايِدْه في الخَطر ومادَّه في الأجل!

فخرج أبو بكر فلقي أُبيًّا فقال: لعلكَ ندمتَ؟

قال: لا، ولكن تعالَ أزيدك في الخطر، وأمادك في الأجل،

فأجعلْها مائة قلوص، بمائة قلوصٍ إلى تسع سنين!

قال: فعلتُ!

وذلك كلّه قبل تحريم الرِّهان.

ولمَّا بدأتْ هجرةُ أصحاب رسول اللّه ﷺ إلى المدينة،

خشي أبيُّ بن خلف أن يخرج أبو بكر من مكة فأتاه ولزمه،

وقال: إنّي أخافُ أن تخرج من مكة، فأَقِمْ كفيلاً،

فكفله ابنُه عبد اللّه، وكان على الكُفر يومئذ،

فلمّا أراد أبيٌّ بن خلف أن يخرجَ إلى أُحدٍ أتاه
عبد اللّه بن أبي بكر وقال له:
لا واللّه لا أدعُكَ تخرج حتى تعطيني كفيلاً فأعطاه كفيلاً،
فخرجَ إلى أُحد ثم رجع إلى مكة به جراحٌ،
حيث جرحه النبي ﷺ حين بارزه يوم أحد فمات منها بمكّة!
وانتصرَ الرُّوم على فارس فغلبَ أبو بكر أُبيّاً،
وأخذ الرّهان من ورثته،
فجاء يحمله إلى رسول اللّه ﷺ،
فقال له رسول اللّه ﷺ: هذا سُحتٌ تصدَّقْ به!

الدَّرسُ الأوّل:

المؤمِنُ لا يعرفُ الحِياد،
ولا يعيشُ في الدُّنيا على هامشِ الأحداث،
فهو ومعه جماعة المؤمنين إمّا صانع للحَدث،
أو على الأقل له موقفٌ فكريٌّ وعقَدِيٌّ منه!
إنّ الحيادَ هو موقف الفارغين التَّافهين الذين ليس لديهم قضايا،
الحِيادُ لا تعرفه الحيوانات حتى!
حين أُلقي إبراهيم عليه السّلام في النَّار، سارعت الحيواناتُ تُطفئها،
أما الوزغُ فكان ينفخ فيها ليزيدها اشتعالا، وقد أمرنا النبيُّ ﷺ بقتله،

هي حيوانات ولها موقف إما مع أو ضدّ!
والحياد لا تعرفه النباتاتُ أيضاً!
كان النبيُّ ﷺ يخطبُ النَّاسَ من على جذعِ نخلةٍ،
فلمَّا صنعُوا له منبراً تركَ الجذع وارتقى المنبرَ ليخطب،
فحنَّ الجذعُ إليه، وصدر له أنينٌ من شدَّة الشَّوق،
فنزل النبيُّ ﷺ وحضنه حتى سكنَ أنينه!
وفي الحديث: إنَّ الغرقد من شجر يهود!
وأنَّـه فـي آخـر الزَّمـان حيـن يقتتـلُ المسـلمون واليهـود فيقتُلُهـم المسـلمون،
فيختبئُ اليهودي وراء الحجر والشجر،
فينادي الحجرُ والشَّجرُ: يا مسلم يا عبد الله هذا يهوديٌّ ورائي تعال فاقتله،
إلا الغرقد فلا يُنادي فإنَّه من شجرهم!
هي نباتات ولها موقف مع أو ضد!
والحياد لا تعرفه الجمادات أيضاً!
في الحديث: أُحُدٌ جبلٌ يُحبنا ونُحبهُّ!
وفي الحديث أيضاً: إنّي لأعرفَ حجراً في مكة كان يُسلِّم عليَّ بالنبوة!
لها موقف وهي حجارة،
ثم يأتيكَ إنسان له عقلٌ وفكرٌ وضميرٌ ويقول لك: أنا على الحياد!

الدَّرسُ الثّاني:

المؤمنُ يقفُ مع الحقِّ دائماً،
فإنْ لم يقِفْ معه بجسده وعمله وسعيه وماله، وقفَ معه بقلبه ودعائه!
فإن كان الصِّراع بين باطلين، فإنَّه يقف مع أقربهما إلى الحقِّ!
ووقوفه لا يعني مشاركته في الصِّراع بالضَّرورة،
وإنّما قد يكون وقوف موقفٍ ورأي!
فالصِّراعُ في أوّل البعثة كان بين الفُرس والرُّوم، وكلاهما كان على باطلٍ،
وعندما هزمَ الفرسُ الرُّومَ حزِنَ المسلمون لذلكَ،
فقد كانوا يُحبُّون أن ينتصرَ الرُّوم،
والسَّببُ أن الفرس أمة وثنية تعبدُ النار،
أمّا الرُّوم على انحرافهم فهم أهل كتاب!
ثم لما صار للإسلام دولة وجيش، قاتلوا الفرسَ والرُّوم وهزموهم وأزالوا ملكهم!
لهذا فإنَّ الوقوف ولو بالعاطفة مع أقرب الفريقين إلى الحقِّ،
لا يعني تبنِّي هذا الباطل على ما فيه من قُرْبٍ إلى الحقِّ،
ففي نهاية المطاف إنَّ الباطلَ هو الباطل ولا اسمَ آخر له،
وقضيَّةُ المؤمن هي قضية الحقِّ الخالص الذي لا باطل فيه!

الدَّرسُ الثَّالث:

نحن أُمَّة الغيب،
نُؤمن بما أوجبَه علينا ربُّنا الإيمان به،
ولو استحالَ علينا التَّحققَ منه لمحدوديَّةِ أفكارنا،
ونُؤمن بما صحَّ عن النبيُّ ﷺ، وإن كانت كل علومنا التجريبية تقف عاجزة عن تأكيده،
ولا إيمان دون إيمانِ الغيب!
نحن نؤمنُ بسؤال الملكين في القبر،
وإنْ لم يخرجْ علينا ميتٌ من قبره ليخبرنا أنه قد سُئِلَ!
ونؤمنُ بنعيمِ القبرِ وعذابه وأنَّ في البرزخ حياة أخرى،
وإنْ لم يخرجْ من المقبرة مؤمنٌ ليخبرنا أنَّه في روضةٍ من رياض الجنَّة،
وإنْ لم يخرجْ كافرٌ ليخبرنا أنَّه في حُفرة من حفر النار!
ونؤمنُ بالنُّشور والبعثِ وقيام النَّاسِ من قبورهم إلى ربِّهم،
وإنْ لم يحصلْ هذا بعد، ولكنَّه سيحصل!
نؤمنُ بهذا يقيناً كما لا نرتابُ بالشَّمسِ في وضحِ النَّهار!
ونؤمنُ بالحساب وهو غيب، وأنّ كلّ إنسانِ سيقف بين يدي ربِّه،
فيكلِّمُه وليس بينه وبينه ترجمان!
ونؤمنُ بالصِّراط فوق جهنَّم وهو غيب، نوقنُ أنّه أرفعُ من الشعرة وأحدُّ من السَّيف،
وأنَّ المؤمن سيجتازه إلى الجنة برحمة اللّٰه،
وأنَّ الكافر سيقع عنه إلى النَّار بسوء عمله وعدل ربِّنا!

ونؤمنُ بالجنّة وهي غيب، نؤمن بأنهارها وثمارها، وتفاوت النَّاس فيها بحسب أعمالهم،
ونؤمنُ بالنَّارِ وهي غيب، وأنّها أيضاً رُتبٌ ومنازل،
وأنَّ أهون أهلها عذاباً رجل تُوضع أقدامه في ضحضاحٍ من نار، فيغلي منهما دماغه!
ونؤمنُ بالملائكة ولم نرهم،
ونؤمن بالجنِّ وإن لم تدركهم أبصارنا،
نحن أهل دينٍ يحترمُ العقل ويُبجله ويدعُو إلى استخدامه،
ولكنّه ينهى عن عبادة العقل بأن يصبح إلهاً في نفسه!
ما استطاع إدراكه كان حقاً، وما عجز عن فهمه ومشاهدته كان باطلاً،
العقلُ محدود، محدودٌ جداً،
أمّا الإيمان فشاسِعٌ، لهذا كان القلب موضعُ الإيمان ومنزله!
وانظُرْ لأبي بكرٍ كيف راهنَ على انتصار الرُّوم بعد هزيمتهم،
فما دام هذا الغيب قد جاء في القرآن فهو واقعٌ لا محالة!

الدَّرسُ الرّابع:

هذه الشَّريعةُ رحبَةٌ واسعة، والمؤمنُ لا يخوض غمارها وحده،
ثمّة ناسخ ومنسوخ، وأحكام قد عُمِلَ فيها فترة،
ثم آن لاحقاً أوان تحريمها،
وقد بينَّ العلماء والفقهاء كل هذا ليسهل على المؤمن عبادة ربّه على بيّنة،

أما من قام بجهله يُفسِّر ويفتي فإنه يضلُّ ويُضِلُّ غيرَه!
فمن قرأ قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ﴾
وأراد أن يفسره على ظاهره معتمداً على فهمه، فإنّه سيشرب الخمر بين الصَّلوات،
ثم سيصلي حين يزول عنه أثر السُّكر!
وهذه آية منسوخة بالأساس، بقيَتْ في المصحف لها حُكم التِّلاوة لا حُكم التَّشريع!
وكذلك فإنّ المتعة، ولحم الحُمر الأهلية كانا حلالاً ردحاً من الزَّمن،
وقد حرّمهما النبيُّ ﷺ يوم خيبر!
وهذه القصة التي بين أيدينا لا يُستدل بها على حلال الرِّهان،
فقد كان في مكة حلالاً ولم يُحَّرم بعد، وإنما حُرِّم في المدينة المنورة،
لهذا فإنَّ النبيَّ ﷺ لم يعترض على رهان أبي بكر في مكة،
بل وأعطاه نصيحة فيه!
ولكن لما فاز في الرهان وهو في المدينة، أمره ألا يأخذ هذا المال لأنه سُحت!
وبعد هذا لا يحقُّ لمسلم أن يبحث عن الحلال والحرام في نصٍّ واحد،
في معزلٍ عن النُّصوص التي تتعلقُ به،
فلربما كان هذا النَّصُ بالأساس منسوخاً وبطُلَ العمل به،
ثمّة شيءٌ في الشّريعة اسمه التدّرج في التشريع،

وكلُّ مرحلةٍ هي صالحة في وقتها، ولا شيء على من فعل هذا في وقته،
ولكن مرحلةَ لاحقة أتت بعد ذلك وأزالتْ هذا الحُكم وأرستْ غيره،
فلا يجوزُ بأيِّ شكل العمل بمنسوخ، ولا عذر للمسلم بجهلِه،
إذ أنَّ الشريعة اكتملتْ، والفقهاء بيَّنُوا، والعلماء شرَحُوا، والدُّعاة أوضَحُوا!

68

﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾

مهما ازدحمتْ حياتُكَ بالنَّاسِ،
لا تنسَ أنَّ الرِّحلة فرديَّة،
حين يدخلُ عليكَ ملكُ الموت ستراهُ وحدَكَ،
وحين تُحمَلُ في التابوت ستكون وحدَكَ،
وحين تُوضَعُ في القبرِ ستوضَعُ وحدَكَ،
وحين تُسأَلُ ستُسألُ وحدَكَ،
وحين تُبعثُ ستُبعثُ وحدَكَ،
وعندما يحينُ وقتُكَ للحسابِ ستقفُ بين يدي اللّهِ وحدَكَ،
حتى في زحمةِ المحشرِ ستقول: نَفسي، نفسي!
فاتقِ اللّه في نفسك!

69

كان «شاس بن قيس» اليهوديّ شيخاً كبيراً في السِّن،
شديد الكراهية للمسلمين، شديد الحسد لهم،
فمرَّ على نفرٍ من أصحاب النبيِّ ﷺ من الأوس والخزرج،
في مجلسٍ قد جمعهم يتحدثون فيه،
فاغتاظ لما رأى من اجتماعهم وألفتهم، وصلاح ذات بينهم،
بعد كل ما كان بينهم في الجاهليَّة من العداوة،
فقال في نفسه: واللّهِ إن اجتمعوا فما لنا من سكنٍ في المدينة!
فأمرَ شاباً من اليهود كان معه، فقال له:
اِعمَدْ إليهم، فاجلسْ معهم، ثم ذكِّرهم يوم بعاثٍ الذي اقتتلوا فيه،
وأنشِدْهم بعض ما كانوا تقاوَلُوا فيه من الأشعار،
ففعلَ الشَّاب اليهوديُّ ما طلبَ منه «شاس» أن يفعله،
فتنازع الأوس والخزرج، وتفاخروا، حتى تواثبَ رجلان منهما،
وقال أحدهما لصاحبه: إن شئتُ واللّهِ رددتها الآن جذعاً،
أي أستطيعُ أن أُشعلَ الحربَ بيننا كما كانت قديماً،
فقال له صاحبه: قد فعلنا، السِّلاح السِّلاح، موعدكم في مكان كذا،
فخرجوا إليها، وتقابل الأوسُ والخزرجُ كما كانوا في الجاهلية،
فبلغَ ذلك النبيَّ ﷺ فخرجَ إليهم فيمن معه من المهاجرين،
حتى جاءهم فقال: يا معشر المسلمين، أبدعوى الجاهليَّةِ وأنا بين أظهركم؟!
بعد أن أكرمكم اللّه بالإسلام، وقطعَ عنكم أمر الجاهلية،

وألَّفَ بينكم، فترجعون إلى ما كنتم عليه كفَّاراً، اللّه اللّه!
فعرف الأوسُ والخزرجُ أنها نزعة شيطان، وكيد من عدوِّهم،
فألقوا السِّلاح من أيديهم وبكوا، وعانق بعضهم بعضاً،
ثم انصرفوا مع النبي ﷺ سامعين مطيعين،
فأنزل اللّه تعالى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾

الدَّرس الأوَّل:

هؤلاء هم اليهود في كل عصرٍ، لا يتغيّرون ولا يتبدلون،
قتلة الأنبياء، ومُكذِّبو الرُّسل، ومُشعلو الفتن!
حرَّفوا التوراة، وجادلوا اللّه تعالى في أمر بقرة!
شقَّ لهم موسى عليه السلام البحر بعصاه،
وعبر بهم من ضِفَّةٍ إلى أخرى سالمين،
فلما رأوا على الضِّفةِ الأخرى قوماً يعبدون أصناماً،
سألوا موسى عليه السلام أن يجعل لهم آلهةً كما لهؤلاء القوم،
جحدوا ربَّهم ولم تجفَّ أقدامهم بعد من طريقٍ يبسٍ عبروها!
كان اسمُ النبيِّ ﷺ مكتوباً في توراتهم،
وكانوا يعرفون أوصافه كما يعرفون أبناءهم،
فلما لم يكن منهم كفروا به جحوداً وحسداً وحقداً،
نقضوا عهودهم معه وهو أوفى النَّاس،
دسُّوا له السُّم في كتف الشاة في أحقر محاولة اغتيال،

وما زال الصراع هو هو، تغيَّرَ المحاربون فقط!
الذين كذَّبوا الأنبياء لن يصدِّقوكم فلا تُحاولوا،
والذين نقضوا العهود مع نبيكم ﷺ لن يوفوا لكم،
فلا تلهثوا وراء سِلْمٍ هشٍّ هو أشبه بسِلْمِ الذئب مع الحمل،
وإن تابت الذِّئابُ عن لحوم الخراف فلن يتوبوا هم عن لحومنا!

الدَّرسُ الثّاني:

أبدعوى الجاهليَّةِ وأنا بين أظهركم؟!
الجاهليَّةُ ليستْ زماناً ولا مكاناً، الجاهليَّةُ فكرة!
وكل دعوة تُعارض الشَّريعة هي جاهلية،
بِغضِّ النّظر عمَّن أطلقها، ولمن أطلقها، وأين أطلقها!
حرمان المرأة من الميراث جاهليّة،
وإجبارها على الزَّوج الذي لا ترغبُ فيه جاهليّة،
وتفضيل الأولاد الذُّكور عليها في العطاء والتَّعليم والمعاملة جاهليّة،
واعتبار الإنسان نفسه أفضل وأرقى من الآخرين بسبب نسبه جاهليّة!
واحتقار البسطاء والمساكين جاهليّة،
والوقوف مع الأخ والصَّديق وهو على باطلٍ جاهليّة،
وصبُّ الزيت على النار في خلاف المسلمين جاهليّة،
والشَّماتة بمصائب المسلمين جاهليّة،

وأخذ وظائف الآخرين وحقوقهم بالواسطة جاهليّة،
والحطُّ من أعراض العفيفات جاهليّة،
والتمسُّك بالعادات البالية التي تُعارض الشَّرع جاهليّة،
وردُّ حكم الشرع بالهوى جاهليّة،
وبمقدار ما في نفسِ المرءِ من أفكار وسلوك مُخَالفةٍ للشَّرع يكون فيه من الجاهليّة!
عيَّرَ أبو ذرٍّ رضي الله عنه بلالَ بن رباحٍ رضي الله عنه بأمّه،
فقال له لحظة خلافٍ عابرٍ: يا ابن السوداء!
فشكاه بلالٌ إلى النبيِّ ﷺ،
فقال له النبيُّ ﷺ: يا أبا ذر، إنك امرؤ فيكَ جاهلية!
هذا وأبو ذرٍّ سيدنا، وصاحب نبيِّنا ﷺ،
وغبار على حذائه في غزواته مع النبيِّ ﷺ خير منَّا،
لهذا مهما كان المرءُ فاضلاً عليه أن يحذر أن يُلوِّث هذا الفضل بشيءٍ من الجاهليّة!

الدَّرسُ الثّالث:

اِحذَرْ رُسَلَ إبليس!
هؤلاء الذين يسعون بالفتنة بين النَّاس،
الذين إذا رأوا عائلة مجتمعةً حاولوا تفكيكها،
وإذا رأوا بيتاً سعيداً حاولوا هدمه،
وإذا رأوا زوجين سعيدين مَرضُوا!

وإذا رأوا زوجاً حنوناً قسُّوا قلبه على امرأته
بحجَّةِ ضعف الشَّخصيَّة،
وإذا رأوا زوجةً مطيعةً أفسدوها على زوجها بحجَّة التَّبعية العمياء،
وإذا رأوا ولداً باراً اتهموه بالضَّعف،
وإذا رأوا امرأةً ملتزمة اتهموها بالسَّذاجة والبساطة!
أغلِقْ في وجوههم الأبواب ولا تستمِعْ إليهم،
لا تكُن ألعوبة في يد حاقدٍ،
ولا تكُنْ أُضحوكة في يد حاسِدٍ،
جاءَ رجلٌ إلى وهب بن مُنبه وقال له:
إني مررتُ بفُلانٍ وهو يشتُمكَ!
فغضبَ وهبٌ، وقال للرَّجل: أما وجدَ الشيطانُ رسولاً غيرك!
لا تُعِرْ أذنكَ لهؤلاء،
وخذها عندكَ قاعدة: من نمَّ لكَ نمَّ عليكَ!
ومن اغتابَ النَّاسَ أمامكَ اغتابكَ أمام غيرك،
الأخلاق لا تتجزأ، لا تتجزأ أبداً!
جاء رجل إلى عمر بن عبد العزيز يخبره عن رجلٍ قال فيه شيئاً!
فقال له عمر: إن شئتَ نظرنا في أمركَ،
فإن كنتَ كاذباً فأنتَ من أهل هذه الآية: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾
وإن كنتَ صادقاً فأنتَ من أهل هذه الآية: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾
وإن شئتَ عفونا عنك!
فقال الرجل: العفو يا أمير المؤمنين!

الدَّرسُ الرَّابع:

اُنظُرْ لجمال العبارة في الحديث:
فعرفَ الأوس والخزرج أنها نزعة شيطان!
تقعُ الخلافات بين النَّاس دوماً، نحن بشرٌ نهاية المطاف،
ولكن المؤمن يعودُ إلى أخلاقه وأصله ودينه سريعاً،
أمّا الفاجر فيتمادى ويذهبُ بعيداً في العداوة!
ربما أغضبكَ أبواكَ فتذكر سريعاً أن برَّهما فرضٌ ولو أخطآ!
وقد سُئِلَ الحسنُ البصريُّ: أيختصِمُ الرَّجلُ مع والديه؟
فقال: ولا مع أحذيتهما!
وربما وقع بينكَ وبين زوجتكَ خلاف، وهذا أمر طبيعي، ولكنها حبيبتك وعرضكَ،
ووصيّة نبيِّك ﷺ: استوصوا بالنِّساء خيراً!
وربما وقع خلاف بينكِ وبين زوجك، هذا شأن البيوت دوماً،
ولكنه حبيبُكِ، وأبو ولدكِ، وهو جنتُكِ ونارككِ!
وربما وقع خلاف بينكَ وبين إخوتك، تحصل هذه الأمور أحياناً،
ولكنهم رحمكَ وقد أُمرتَ بوصلها،
فإلى متى تنتظر، إلى أن يموت فتقف لتتقبَلَ العزاء فيه،
ستعرفُ لحظة الموت أن كلّ الخلافات تافهة!
عملُ الشيطان أن يُحرِّشَ بيننا،
وأن يوقد نار الخلافات، ويصبَّ الزّيتَ على النَّار،
فلا تكن وسيلته وأداته وأُلعوبته،
أسوأ ما يحمله الإنسان هو الحقد،
لأنه لا يُفسِدُ حياة الآخرين بقدر ما يُفسِدُ حياته هو!

70

﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾

لم يكُنْ موسى عليه السّلام يعرفُ أنّه عمّا قليلٍ سيشقُّ البحرَ بعصاه،
كان فقط واثقاً بأنَّ اللّه لن يتركَه!
لا تنشغِلْ كثيراً بالطَّريقةِ التي سيأتي بها الفَرَجُ،
ولكن انشغِلْ كيف تُرضي الذي بيده الفَرَج،
إبراهيمُ عليه السّلام لم يكن يعرفُ أن النّار ستكون برداً وسلاماً،
ولكنّه وهو في كفّةِ المنجنيقِ كان ممتلئاً باليقينِ باللّه!
ونوحٌ عليه السّلام لم يكن يعرفُ أنَّ الطوفانَ سيكون هائلاً،
ولكنَّه بنى السَّفينة طاعةً وامتثالاً!
ويوسفُ عليه السّلام لم يكن يعرفُ أنّه سيخرجُ من السّجن برُؤيا،
ولكنّه كان في السّجن من المحسنين!
ليَكُن همُّكَ كيف ترضي اللّه فقط،
أمّا خطوات الفَرَج فليسَ من شأنِك أن تراها،
يا صاحبي: يدُ اللَّه تعملُ في الخفاء!

71

كان أهلُ المدينة في الجاهليَّةِ، وفي أوّل الإسلام،
إذا ماتَ الرجل وله امرأة، جاء ابنه من غيرها، فألقى ثوبه عليها،
فصار أحقّ بها من نفسها ومن غيره!
فإن شاء أن يتزوَّجها تزوَّجها بغير مهرٍ،
وإن شاء زوَّجها غيره وأخذ مهرها ولم يعطها شيئاً،
وإن شاء حبسها وأضرَّها حتى تفتديَ منه بمالها!
فتوفيَ أبو قيسٍ بن الأسلت الأنصاريِّ، وتركَ وراءه
زوجته كُبيشة بنت معنٍ الأنصارية،
فقام ابنٌ له من غيرها يُقال له محصن، فطرحَ ثوبه عليها
فورث نكاحها،
ثم تركها فلم يقربها، ولم يُنفقْ عليها، لتفتديَ منه بمالها،
فأتت كُبيشة إلى النبيِّ ﷺ فقالت:
يا رسول اللّه، إن أبا قيس توفي، وقد ورثَ ابنه نكاحي،
وقد أضرَّني وطوَّل عليَّ، فلا هو ينفقُ عليَّ، ولا هو يدخل بي،
ولا هو يُخلي سبيلي!
فقال لها النبيُّ ﷺ: اقعدي في بيتك حتى يأتي فيكِ أمر اللّه!
فانصرفتْ كبيشة، وسمعتْ بذلك النّساء في المدينة،
فأتينَ النبيَّ ﷺ وقُلنَ: ما نحن إلا كهيئة كُبيشة!
فأنزل اللّه تعالى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾
ثم حرَّم اللّه بعد ذلك على الأبناء الزواج من نساء آبائهم!

الدَّرسُ الأوّل:

عرف العربُ في الجاهلية رزايا أخلاقيّة كثيرة،
وهذا لا يعني أنّه لم يكن للقوم أخلاق حسنة، وقيم مشهودة،
من هذه القضايا، قضيّة الرِّق، وامتهان المرأة، والخمر والميسر، والشّرك والربا،
مشكلات دينيّة، واقتصاديّة، واجتماعيّة متداخلة،
تعامل معها الإسلام العظيم بواقعيّة، وأعملَ فيها مبضع الجرَّاحِ الحذق،
ولم تكد تمضي سنوات هي بعرف تغيير المجتمعات قليلة جداً،
إلا وقد أوجد حلولاً جذريّة لهذه القضايا الشائكة!
ولا يُعاب على الإسلام العظيم أن جاء وبقيت بعض هذه المشكلات،
خصوصاً في سنواته الأولى من الحكم والتشريع،
فالإسلام لم يُوجدْ هذه الرَّزايا وإنّما ورِثها،
فيُحسَبُ له أنه عمل على حلِّها بالعدل والإنصاف،
فقبل أن تسأل لماذا رضيَ الإسلام بهذه الحالة من وراثة الأبناء لزوجة أبيهم،
عليكَ أن تسأل أولاً: أهذا صنيع الإسلام وتشريعه؟
أم هو دين العرب، وعُرفهم، الذي جاء الإسلام فوجدهم عليه؟!
يُلامُ الإسلام لو لم يُحرِّك ساكناً لتغيير هذا الوضع القائم،
أما وقد أزاله تماماً تباعاً، كلّ مُعضلة بوقتها الدقيق،
فيجعلنا نُردد: الحمد للّهِ على نعمة الإسلام!

الدَّرسُ الثّاني:

مـن التَّـرِكات الثّقيلـة التـي ورثهـا الإسـلام مـن الجاهليّـة عَرَبَهـم وعَجَمهـم،
هـي قضيّة امتهان المرأة!
وقبل أن نعرفَ ما الذي فعله الإسلام في قضيّة تكريم المرأة،
علينا أولاً أن نأخذ جولةً في نظرة المجتمعات القديمة إلى المرأة،
شريعة «مابو» في الهند وهي ديانة وضعيّة وثنيّة،
ما زال لها أتباع كُثر حتى اليوم رغم مضي آلاف السنوات،
لا تعترف بحق المرأة المتزوجة بالحياة بعيداً عن حياة زوجها،
فالقانون عندهم أن تموت يوم موت زوجها،
طوائفهم التي تحرق الجثث تحرقها معه وهي على قيد الحياة،
وطوائفهم التي تدفن الموتى تدفنها معه وهي حيَّة!
وشـريعة حمورابـي فـي بابـل علـى تطبيـل النّـاس وتهليلهـم لهـا فـي زمننـا،
على أنها شريعة رائدة سابقة لزمنها،
تُلحِقُ المرأةَ بأملاك الرَّجل ولا تُفرِّقها عن ماشيته وأثاثه،
ولو قتلَ رجلٌ زوجة رجل آخر أو ابنته،
فإن عقابه يكون بإعطاء زوجته أو ابنته لهذا الرجل،
وهو حر التصرف بها، إن شاء تزوجها، أو باعها، أو قتلها قصاصاً،
هكذا هي محكومة أن تدفع أخطاء غيرها!
والمرأة عند اليونان محطّ نزاع بين الفلاسفة على قولين،
الأوّل أنها إنسان ولكن في مرتبة أدنى من الرجل ولا تُساوى به،

لا في الحقوق، ولا الواجبات، ولا الحريّة، ولا الملكيّة الفرديّة!
والثّاني أنها حيوان في هيئةٍ بشريّة ليقضي الرجل منها متعته،
دون أن يشعر بالقرف والاشمئزاز!
وهكذا كان هو حال المرأة عند الرُّومان قديماً،
مجرّد حلقة في سلسلة طويلة من الامتهان والإذلال!
أما المرأة عند اليهود فلا تختلف كثيراً عنها في الدّيانات الوضعيّة الوثنيّة،
جاء في التلمود المقدس عندهم: المرأة حقيبة مملوءة بالغائط!
شهادة مئة امرأة تعادل شهادة رجل واحد،
ممنوع على المرأة أن تتعلم التوراة،
لأنّ المرأة بسوء فهمها سوف تقوم بتحويل الكتاب المقدس إلى هراء!
ومن أدعيتهم الصباحية التي يرددونها كل يوم:
مبارك أنت يا رب لأنّك لم تخلقني وثناً ولا امرأة!
أما المرأة فتردد بحزن وانكسار: مبارك أنت يا رب لأنك خلقتني حسب مشيئَتك!
إذا أنجبت المرأة عندهم صبيّاً تبقى نجسة أربعين يوماً،
وإذا أنجبت فتاةً تبقى نجسة ثمانين يوماً!
إذا حاضتْ تُخرَجُ من البيت فلا يأكلون ولا يشربون معها!
أما عند النصارى فالمرأة هي المسؤولة عن شقاء البشر،
إذ تتحمل الخطيئة وحدها بإنزال آدم عليه السّلام من الجنة،
وفي تعاليم الرسول بولس عندهم الذي يُعتبر الشخصية الثّانية بعد المسيح،

في وصيته لأهل كورنثوس:
لتصمت نساؤكم في الكنائس لأنه ليس مأذوناً لهنَّ أن يتكلمْنَ بل يخضعنَ!

الدَّرسُ الثّالث:

الإسلام العظيم يقفُ في قضية المرأة على الجهة المقابلة من كل هذا الظّلم الذي سبق،
والقرآن الكريم يساوى في خطيئة الأكل من الشجرة المحرمة بين آدم وحواء،
ولا يجعلها مسؤولة وحدها عن نزولنا إلى الأرض!
هكذا يزيل تاريخاً بشرياً ظالماً في النّظرة إلى المرأة حتى قبل نزولها إلى الأرض،
وهو يهبها حقَّ الحياة، ويجعل روحها مساويةً لروح الرَّجل ولا فرق!
ولم يميِّز بينها وبين الرجل في الحقوق والواجبات!
إلا في تشريعات هدفها إكرام المرأة لا امتهانها،
فقد أسقط عنها الجهاد بالسيف لما يُنافي طبيعتها الأنثوية الرَّقيقة،
وجعلها مطلوبة للزَّواج لا طالبة، تأخذ المهر ولا تدفعه!
وفرضَ على وليّها أن يُعلِّمها ويُثقفها بما تحتاج لتكتمِلَ بإنسانيّتها،
وأباح لها حرية اختيار الزوج، فلا تُجبر على من لا تُريد،

وأباح لها طلب الطلاق إن تعسَّرتْ حياتها الزوجية،
وأعطاها الحقَّ في الميراث وكانت قد سُلبَ منها،
وأباح لها التملك، والعمل، بل ومباشرة تجارتها بنفسها،
مع الحفاظ على الضوابط التي لا تجعلها محط طمع الرّجال بها،
ونقلَها نقلةً نوعيّةً من كائن مشكوك بإنسانيته إلى إنسان الإحسان إليه عبادة،
فهي الأمُّ التي برّها واجب والجنّة عند قدميها،
وهي الزَّوجة التي لا يكون زوجها من خيار النَّاس إلا إذا أكرمها،
وهي البنت التي تكون حجاب أبيها من النار،
وهي العمّة التي وَصْلها واجب، وإكرامها فرض،
وهي الخالة التي بمرتبة الأمِّ ولا فرق!
وهي الجارة التي تُعامل كعرض مصون، وحرمة لا تُنتهك،
وهي المسلمة التي تُحرَّك لأجلها الجيوش، وتُشعل الحروب!
تكريم ما بعده تكريم، وتوقير بأخذ بالقلوب قبل العقول!
فالحمد للّهِ على نعمة الإسلام!

72

﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾

أنتَ حصيلَةُ خلواتِكَ،
حيث تزيحُ أقنعتكَ وتكون بوجهِكَ الحقيقيّ!
الخشوعُ أمام النَّاسِ سهلٌ،
وتركُ المعصيةِ خجلاً منهم أمرٌ ميسُور،
أمّا في الخلوةِ فأنتَ في مواجهة الذّئبِ الذي في داخلكَ،
إمَّا أن تُطعمه فتصيرَ أفتك منه،
وإمّا أن تَلجِمَه بالتَّقوى فينقادُ لكَ،
ومن أجمل ما قال العارفون باللّٰه:
الحياةُ في القبور نسخة عمّا في الصّدور!

73

كان للزُّبير بن العوام أرضٌ على حدود المدينة المنورة،
وكان في البستان نخل يسقيه من ساقيةٍ تمرُّ في أرضه أولاً،
ثم تمرُّ في أرض جارٍ له من الأنصار،
فشكا الأنصاريُّ الزُّبيرَ بن العوام إلى النبيِّ ﷺ،
بحجة أن الماء يتأخر ليصلَ إلى أرضه،
فقال النبيُّ ﷺ للزُّبير: اسقِ يا زُبير ثم أرسل الماء إلى جارك!
فغضبَ الأنصاريُّ وقال للنبيِّ ﷺ: ألأنَّ الزُّبير ابن عمّتكَ؟!
فتلوَّن وجه النبيِّ ﷺ ثم قال للزُبير:
اسقِ يا زُبير، ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجَدْرِ!
وأنزل اللّه تعالى قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

الدَّرسُ الأوّل:

بعض النَّاس تعامله بالمعروف فلا يُعجبه،
تأخذ من حصتكَ وتزيدُ له في حصته فلا يرضى،
تعطيه بعضاً مما في يدك فإذا به يريده كله،
يطالبكَ بالإحسان إليه كأنّ هذا واجبك تجاهه لا تفضلكَ عليه!
ساقية الماء تمرُّ في أرضِ الزُّبير أولاً،

والعُرفُ يقضي أن يسقيَ الزُّبير نخيله أولاً حتى يرتوي،
ثم بعد ذلك يُرسل الماء إلى جاره فيسقي زرعه،
وهكذا كلّما فرغ واحد أرسل الماء إلى جاره حتى يسقي الجميع،
إذا هي شكوى فارغة، وادّعاء باطل، ومظلومية جوفاء،
ولكنَّ النبيَّ ﷺ أراد أن يحكم بالودِّ لا بالقانون،
تأليفاً لقلب الأنصاري، وتحبباً منه إليه،
فطلب من الزُّبير أن يسقيَ يسيراً ثم يرسل الماء إلى جاره،
ثم يعود لاحقاً ويكمل ريَّ بستانه،
أيّ أنه أخذ من حصّة ابن عمته وأعطى الأنصاريَّ،
ولكن الأنصاريَّ لم يُقدِّرْ هذا المعروف،
وزاد في غيِّه، وصلفه، أن اتَّهم النبيَّ ﷺ بمحاباة ابن عمته!
فلما رآه النبيُّ ﷺ ليس أهلاً للمعروف،
حكم بينهما بالقانون الزّراعيّ الذي يعرفه الجميع،
يسقي الزُّبير كل بستانه، فإذا انتهى، أرسل الماء إلى جاره.

الدَّرسُ الثّاني:

يُعلمنا النبيُّ ﷺ درساً بليغاً في حلِّ الخصومات،
وهو «الحل الوسط» الذي يقوم على الأخلاق لا على القانون،
الحكم الذي يشتري خواطر الجميع فلا يكسر أحداً
من المتخاصمين،
فالقانون في صفِّ الزُّبير ليس في هذا ريب،

ولكنَّ النبيَّ ﷺ أراد من الزُّبير أن يُراعي حقّ الجوار في الأنصاريّ،
فينزل عن شيءٍ من حقِّه شراءً لخاطر جاره،
وأعطى الأنصاريِّ من حصة ابن عمته،
لأنه يعلمُ أن الزُّبير تربيته وهو لا شك مع مبدأ،
أن كسب القلوب أولى من كسب المواقف،
ولكن للأسف بعض الناس لا يُثمر فيهم المعروف!
فإذا دخلتَ في خصام فالأصل أن يكون حكمك لصالح الحقِّ،
ولكن اُنظر في المسألة أولاً،
فإن كان بالإمكان الإصلاح، وإرضاء الجميع، فهذا أولى!

الدَّرسُ الثّالث:

في المشكلات التي تدخلُ فيها حَكماً،
لا بأس أن تأخذ من حقِّ من تعرف دينه وحسن خلقه،
لتعطيَ خصمه وتفضَّ النزاع!
فإن الكريم يُعطي ليحل نزاعات النّاس وهو ليس طرفاً فيها،
فإن كان طرفاً فعطاؤه حاضر من باب أولى،
فإن استمرار العلاقات، ومراعاة دوام أُلفتها، مُقدَّمٌ على قطعها بالقانون الجازم!
ولكن إذا وصل الأمر إلى طريق مسدود، فليأخذ القانون مجراه فهذا هو العدل!
في خلاف زوجين كُنْ مصلحاً أكثر منك قاضياً،

لأنّ البيوت إنما تُدار بالود والتغافل والتغاضي، ولا تُدار بمنطق الحقِّ والواجب!

وفي خلاف أخوين كُنْ واصلاً للرَّحم لا قاطعاً له،

وَضْعُ كلَّ شيءٍ في كفة أحدهما ولو كان صاحب الحقِّ،

يُهدِّدُ علاقة الأخوة بشرخٍ قد لا يلتئم أبداً!

وفي خلاف الجيران راعِ أن البيوت ستبقى متلاصقة،

وأنه في كل يومٍ سيضع أحدهما عينه في عين الآخر،

فحاول ألا تكسر أحدهما أمام صاحبه!

الدرس الرَّابع:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

هذه آية ليست مرتبطة بوجود النبيِّ ﷺ بشخصه المبارك،

وإنما بوجود شريعة السَّماء المُوصَى بها من ربّنا جلَّ في عُلاه،

وكلَّ من رفض حُكماً جاءت به الشَّريعة،

لا يختلف عن الأنصاريّ الذي رفض حكم النبيِّ ﷺ في حياته!

أنتَ حين تستأثر بالميراث دون إخوتك وأخواتكَ، فإنكَ تردُّ حكم النبيِّ ﷺ،

لأنَّ حكمه في حياته وبعد موته سواء!

وأنتَ حين تحرمُ ولداً من الميراث وتزيدُ في حصة آخر،

فإنكَ تردُّ حكم النبيِّ ﷺ،

لأن رفض شرعه في غيابه كرفض حكمه في حضوره!
وأنتَ حين تجبر ابنتكَ على الزواج ممن لا تريدُ،
فإنكَ تُعاند النبيَّ ﷺ ولا تُعاند ابنتكَ فقط،
وأنتَ حين لا تُعامل زوجتكَ بالودِّ والمعروف،
فإنَّ خصمك النبيُّ ﷺ وليس زوجتك فحسب!
وما يُقال للرجل يُقال للمرأة، فشرعه سارٍ على الجميع،
فإذا أردتَ أن تعرفَ مقدار الإيمان في قلبكَ،
فانظُرْ إلى موضع التسليم لشرع النبيِّ ﷺ في قلبكَ،
فإن وجدتَ للتسليم مكاناً، فللإيمان مكان أيضاً،
وإن وجدتَ أنك تُقدِّم هواك ومصلحتك على الشَّرع،
فإيمانك ادّعاء مكذوب، ولو عمرتَ المساجد، وحججتَ كل عام!

74

﴿وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾

ركِّزْ على أهدافِكَ،
وما أصبحَ وراءَ ظهرِكَ فاترُكه وراءَ ظهرِكَ،
لا شيءَ أكثر ابطاءً للخُطى كالالتفات،
الماضي لتتعلَّمَ منه الدّرس، لا لتعيشَ أسيراً فيه،
والعثراتُ لتصحيحِ الخُطى، لا للنَّدبِ والبُكاء،
والمعارِكُ الجانبية تستنزفك أكثر مما تمنحك،
والعلاقاتُ الفاشلة للطيِّ لا للحنين،
فإذا فارقتَ ففارقْ بكُلِّك،
لا تتركْ منك شيئاً عالقاً مع أحد!

75

بلغَ من نُبل الصّحابة أنه إذا جاءَهم الفقيرُ الذي يرضون دِينَه وخُلُقَه خاطباً،
زوَّجوه، ولم يطلبوا منه ما يُرهقه من المَهر،
بل كانوا يُعينونه في زواجه وهذا من إكرامهم لأَعْرَاضِهم،
فقد فهِمُوا من الإسلام العظيم أنّ المهرَ وإن كان من حقِّ المخطوبة،
إلا أنَّ المرأةَ ليستْ باباً من أبواب التّجارة تُعطى لمن يدفعُ فيها أكثر!
جاءَ رجلٌ فقيرٌ من الأنصار خاطباً لأختِ الصحابيِّ معقل بن يسار،
وكان معقلُ نبيلاً، ولا غرابة فالصّحابة كلّهم نُبلاء!
فأعانه على أمور زواجه، وتكفّل له بكلّ جهازه، يصونُ عرضه، ويُؤدي أمانته!
وتمَّ الزوّاج على أيسر وأحسن ما يكون، وحُملت المرأة إلى بيت زوجها.
فلم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى حدث بين الرجل وزوجته خلاف فطلَّقها،
فلما انقضَتْ عدتها جاءَ زوجها ليخطبها من أخيها مرةً أخرى...
فقال له معقل بن يسار: زوَّجتُكَ، وفرشْتُكَ/أي ساعدْتُكَ في جهازها، وأكرمتُكَ،
فطلَّقتها ثم جئتَ تخطبها، لا واللّهِ لا ترجِعُ إليكَ أبداً!

وكان الزّوج خلوقاً ولكنها نزعات النّفس، وساعة شيطان حدثَ فيها الطلاق!

وكانتْ أُخته تُريدُ الرجوع إلى زوجها على رغم ما حدث بينهما!

فأرسل إليه النبيُّ ﷺ وقال:

يا معقل بن يسار إن اللّه أنزل فيكَ قرآناً:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

فقال له معقل: أُزوِّجُها له يا رسول اللّه!

الدَّرسُ الأوّل:

المؤمنُ يجب أن يكون وقّافاً عند أوامرِ اللّه،

فعندما أمر اللّه تعالى الأهل أن لا يمنعوا ابنتهم من الزواج بطليقها إن رغبتْ بذلك،

وافقَ معقل بن يسار على الفور امتثالاً للأمر الإلهي،

وتنازلَ عن رفضه الجازم السابق،

فلا تكُنْ تنِحاً خصوصاً إذا ما تعلَّقَ الأمر بأمرِ اللّه سبحانه!

الدّرسُ الثّاني:

أُمِرْنَا بالعدل عند الخصام،
فبالرغم من أن معقل بن يسار مُنزعج من طلاق أُخته،
ومُتضايق من صهره لأنه ساعدَه في أمرِ الزواج،
فلم يلقَ هذا صدىً إيجابياً عنده،
إلا أنه يشهد له أنه كان رجلاً لا بأس به،
فلا تدعْ ساعة الخصومة تقودك إلى نكرانِ فضائلِ الآخرين!

الدّرس الثالث:

واجبُ الأهلِ إذا وقع الخلاف بين الزوجين أن يدفعوا
باتجاه الصُلح،
المرأة لزوجها، والزوج لامرأته، إن رغبا بالعودة بعد
وقوع الطلاق البائن وانقضاء العِدة،
وهذا يلزمه مهر وعقد جديدين،
فمن باب أوْلى أن يعودا لبعضِهما وهي على ذمته
وقد حدث بينهما خلاف،
والعِنادُ في عودةِ الأزواجِ لبعضِهم قِلةُ فقهٍ للحياة،
وعدمُ إدراكٍ لمخاطر الطلاق،
وجهلٌ بالحياة الزوجية التي لا تخلو أساساً من خلاف!

الدّرس الرّابع:

الإحسانُ إلى الزوجة، ومعاملتُها بالمعروف واجبٌ على الزوج،
وإن لم يُعاونه أهلها في أمر زواجها،
ويُصبحُ الواجبُ مُضاعفاً إن أحسنوا إليه وعاونوه،
لأنَّ النبيل يُقدِّرُ المعروف، ويتحيَّنُ الفرصة لِرَدِّه،
والحياة الزوجية الكريمة للبنت في بيت زوجها
فرصة سانحة لِرَدِّ المعروف،
فأَحْسِنْ استغلالها، ولا تكُن عاقّاً، لأن كل معروفٍ تقدرُ
على ردّه ولا تفعل من العقوق!

الدّرسُ الخامس:

العلاقاتُ الزّوجية إنما تستمّرُّ بالتّفهم والتَّغاضي والاحتواء،
ولا تنكسِرُ إلا بالمواجهة والقسوة والتّعنت!
وحده الحُبُّ قادرٌ على تليين الطّباع،
وبالحُبِّ وحده يستطيعُ الرّجال امتلاك النساء امتلاكاً حقيقياً!
عليكَ أن تتعامل معها كما يتعاملُ المزارعُ مع حقله،
أنتَ ترى هذه الثمار الطيّبة، والخضار اليانعة، والفاكهة
اللذيذة في الأسواق،
ولكنك لا ترى أيَّ جهدٍ قد بُذِلَ قبل القطاف!
كان هناك حراثة مضنية، وبذار شاق، وريٌّ دؤوب،

وتهذيبٌ مستمر، وتشذيب دائم، ورشٌّ مبيدات ورعاية!
ثم أخيراً يحين وقت القطاف!
وهكذا هي المرأة، حقلٌ تجني منه ما تزرعه فيه،
فلا تطلب الثّمر ولم تسلكْ سبيله!
مواقف الحياة كثيرة، وأنت كل يومٍ أمام فرصةٍ حقيقية
لامتلاكِ قلب امرأتك!
دخلَ النبيُّ ﷺ على صَفيّة بنت حُيي فوجدها تبكي،
فقال لها: ما يُبكيكِ؟
فقالت: قالتْ لي حفصة إني ابنة يهودي!
فقال لها: إنكِ لابنةُ نبيٍّ، وإنَّ عمكِ لنبي، وإنكِ لتحت نبي،
فبمَ تفخرُ عليكِ؟
ثم قال: اتقي اللّه يا حفصة!
المرأة رقيقة بطبعها، كيف لا وهي مخلوقة من ضلعٍ قرب القلب!
عاطفية حتى أبعد حد،
لأن المهمة العظيمة التي أرادها لها الخالق العظيم تتطلبُ هـذه العاطفة،
لهذا تجدها تبكي لأصغر المواقف،
وهذا لا علاقة له بالتَّفاهة، وضعف الشخصية كما يحسبُ الجهلاء بنفسيات النساء،
على العكس تماماً، لا يتعارض أبداً أن تجد تلك الرقيقة
التي كانت تبكي ذات ضيقٍ،
أن تكون لبؤة شرسة وتواجه الأيام باقتدار كما يفعل الرجال،
كل ما في الأمر أنهنَّ الجزء العذب والرقيق من البشرية،

والبكاء إحدى طرقهن للتعبير عن هذه الرقة، واستجلاب الاهتمام،

فلا تفرطوا في مواقف بكائهن، هي فرصة سانحة لاِمتلاكِهِنَّ من الداخل،

فالمرأة لا تُمتلكُ إلا من قلبها!

وإياكم والإعراض عن لحظات بكائهِنَّ، واعتبار الأمر تافهاً ولا يستحقّ،

وانظروا إلى فعل النبيِّ ﷺ كيف يهتم: ما يُبكيكِ؟!

فلما أخبرته، طيّبَ خاطرها، وأسمعها ما يرضيها،

ثم لم يرضَ بالخطأ!

انظروا لمشاكل الحياة من هذا الباب،

أنها فرصة للتكاتف وجبر الخواطر، واظهار الاهتمام والحُب!

موقف حياتي رتيب، غيرة تخرجها عن طورها،

عمل منزلٍ ينهكها، مشاكل أولاد تتعبها،

هي فرصتك السانحة لتكون القلب الكبير الذي يواسي،

والصدر الحنون الذي يسع، والكتف الدافئ الذي يسند،

مارس رجولتك وقوامتك، اطبعْ على جبينها قُبلة،

وأخبرها أنك تهتم،

عانقها وأخبرها أنها عزيزة عندكَ وأنها لا تهون،

قُلْ لها أنا معكِ، وقوي بكِ، ولا أستغني،

وستجدها أشرقتْ، وابتسمتْ، ونسيتْ كل ما مرَّ بها،

في كل امرأة طفلة صغيرة بجديلتين تحتاج إلى الحنان مها بلغتْ من العمر!

الدَّرسُ السّادس:

تفهَّمْ طبيعتها الأنثوية، وتفهّمي طبيعته الذُّكوريّة!
إن أغلب الخلافات الزوّجية نابعة من عدم فهم الرّجل
لطبيعة المرأة،
وعدم فهم المرأة لطبيعة الرّجل!
الرّجلُ يفترضُ أن تتعاملَ المرأة معه، وتستجيب، وتشعر،
وتحسّ، وتتفاعل،
بالطريقة التي يستجيبُ هو بها، ويشعر، ويتفاعل،
والمرأة كذلكَ تفترضُ أن الرّجل هو نسخة خشنة منها!
وفي الحقيقة هذا أحمق ما يعتقده الرجال عن النساء،
وأحمق ما يعتقده النساء عن الرّجال!
نحن رجالاً ونساءً ننتمي إلى جنس واحدٍ بالشّكل فقط،
ولكننا من حيث المضمون كائنات مختلفة تماماً،
مغايرة بطريقة إحساسها، وتفاعلها، وتجاوبها،
نحن متشابهون كثيراً، ومختلفون أكثر!
وحده إدراك نقاط التشابه والاختلاف
هو الذي يضمن لنا زواجاً ناجحاً،
غير هذا فنحن أمام ساحة حرب أكثر منها بيتاً ومنزلاً!
تقولُ أمنا عائشة: دخلَ الحَبَشُ المسجد يلعبون،
فقال لي النبيُّ ﷺ: يا حُميراء، أتحبين أن تنظري إليهم؟
فقلتُ: نعم
فقام بالباب وجئته، فوضعتُ ذقني على كتفه،

وأسندتُ وجهي إلى خده!
وجعلتُ أنظر فقال لي: حسبُكِ!
فقلتُ: يا رسول اللّهِ لا تعجل،
فأقام لي، ثم قال: حسبُكِ!
فقلتُ: لا تعجل يا رسول اللّه،
وما بي حُبُّ النَّظر إليهم، ولكن أحببتُ أن يبلغَ النساءَ
مقامُه لي، ومكاني منه!
الرَّجلِ الذي على عاتقه دعوة البشرية قاطبة
من مشرق الأرض إلى مغربها،
وعليه قيادة المجتمع المدني عسكرياً وسياسياً،
لا يشغله كل هذا في أن يكون زوجاً رائعاً حنوناً،
ينظرُ في رفاهية زوجته،
ويبادرها بأن يعرض عليها شيئاً غلبَ على
ظنِّه أنها ستجد فيه سعادةً لها،
فهو لو انتظرَ حتى تطلب منه أن تشاهد
عرض الأحباش لبدا الأمر عادياً،
ولكنه لم ينتظر حتى يبدو الأمر عادياً،
كانت مكارم الأخلاق تقفُ مذهولة منه،
فهو على مقاسها، وهي على مقاسه،
إنه يبادر ويسأل ويهتم ويكترث!
وهذه عائشة لا تخجل في أن تعيش مشاعرها، وأنوثتها،
وغيرتها كما هي،
وتستمتعُ بعيش هذه اللحظات بعفوية،

لتُخبرنا أنه لا أروع من الحُبِّ الحلال،
وأن قتل المشاعر، وكبتها باسم الورع ليس من الدين في شيء،
فهذا الدين ما جاء ليكبت الغرائز وإنما ليهذبها،
ولا ليحارب المشاعر وإنما ليوجهها ويضعها في طريق الحلال،
ثم يترك للناس مساحة الاستمتاع بها حلالاً!
المرأة هي المرأة، لا تتوقع من الإيمان أن،
يُبدِّل طبيعتها وغريزتها وفطرتها،
الإيمان يُؤَدِّب هذه الأشياء فقط!
والرجل هو الرجل، لا تتوقع من الإيمان
أن يُبدِّل طبيعته وغريزته وفطرته،
الإيمان يُؤَدب هذه الأشياء فقط!

76

﴿وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾

اطمَئِنْ:

حتى وإن لم يُذْكَر اسمُكَ، اللّهُ يعرفك!

يعرِفُ الخيرَ الذي في قلبِكَ وإنْ غابَ عن النّاس،

يعرِفُ سعيَكَ في جبرِ الخواطرِ وإن لم يشهده الجميع،

يعرِفُ صدقتَكَ وإنْ لمْ تُؤَدِّها على رُؤُوس الخلائق،

يعرِفُ الآيةَ التي أخذتَ تُردِّدها حتى جفّ حلقُكَ،

وإن غابَ عن النّاسِ محاولتَكَ لحفظِ القرآن!

يعرِفُ قيامَ الليلِ، وظمأَ الحُنجرة في صيامِ التّطوّع،

وإن لم يُدوّنكَ النّاسُ في سجِلّاتهم قوّاماً، وصوّاماً!

يعرفُ الذّنبَ الذي كنتَ قادراً عليه، فتركتَه ابتغاء وجهه،

وإنْ لم يقُل النّاسُ عنك تقيّاً،

فاجعَلْ بينكَ وبين اللّهِ خبايا صالحة،

لا يهُمُّ إن جهلها النّاسُ، حسبُكَ أنّ اللّه يعلم!

77

كلَّمتْ قريشٌ النبيَّ ﷺ، فقالتْ:
يا محمد، إنك تُخبرنا أن موسى كانت معه عصا،
ضربَ بها البحرَ فانفجرتْ منها اثنتا عشرةَ عيناً!
وأنَّ عيسى كان يُحيي الموتى!
وإنَّ ثمودَ كانت لهم ناقة.
فَأْتِنا ببعض تلك الآيات حتى نُصدِّقكَ!
فقال لهم النبيُّ ﷺ: أيُّ شيءٍ تُحبُّونَ أن آتيكم به؟
فقالوا: تجعل لنا الصَّفا ذهباً!
قال: فإن فعلتُ، تُصدِّقوني؟!
قالوا: نعم، واللّهِ، لئن فعلتَ لنتبعنَّكَ أجمعين!
فقامَ النبيُّ ﷺ يدعو، فجاءه جبريل وقال:
إن شئتَ أصبحَ الصَّفا ذهباً،
ولكني لم أُرسِلْ آيةً فلم يُصدَّق بها إلا أنزلتُ العذاب!
وإن شئتَ تركتهم حتى يتوب تائبهم!
فأنزل اللّه تعالى قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾

الدَّرسُ الأوّل:

إن كنـتَ تحسـبُ أنَّ قريشـاً كانـت لتؤمـن كلهـا لـو صـار جبـل الصَّفـا ذهبـاً فأنـتَ واهـم!
فقد شقَّ لهم القمرَ فما آمنوا بنبوَّتِه!
وأُسريَ به إلى بيت المقدس وعُرجَ به إلى السَّماء في شطر ليلة،
وامتحنوه في صدقه فوجدوه صادقاً فما آمنوا بدعوته!
ولكنه صنعَ بهم خيراً إذ لم يُعطهم ما سألوه،
فأمـا مـن كان فـي قلبـه خيـرٌ فقـد آمـن بعـد ذلـك، ومـن كان فـي قلبـه شـرٌّ مـات علـى كفـره،
إنَّ المسألة مسألة قلوب مليئةٍ بالضّلالة،
وقـد آمـنَ أبـو بكـرٍ بـلا معجـزة رآهـا، وكفـر أبـو جهـلٍ وقـد رأى القمـر نصفين!

الدَّرس الثاني:

المعجزات تُقيم الحُجَّة على الناس لا أكثر،
من كان في قلبه خير سيتبع الحق بها أو بدونها،
ومن كان في قلبه شرٌّ فسيكفر وهو في غمرة المعجزة،
جاء موسى عليه السَّلام إلى فرعون بمعجزاتٍ لا بمعجزة واحدة،
جاءه ولبني إسرائيل بتسع معجزاتٍ تلينُ لها الجبال،
فكفرَ فرعون، وما آمن من بني إسرائيل إلا قليل!

ضربَ الحجر بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً،
وقلبَ لهم العصا حيَّةً فما آمنوا،
وجاءهم بالطوفان فما راجعوا أنفسهم،
وجاءهم بالضفادع فما انتبهوا لضعفهم،
وجاءهم بالدَّم فجاؤوه مهرولين يطلبون أن يرفعه عنهم،
فلما رفعه عنهم عادوا إلى كفرهم!
وجاءهم بيده يضمها إلى جيبه فتخرج بيضاء فأغلقوا قلوبهم وعيونهم،
فإن كنتَ تعجبُ كيف لم تُؤمن قريش،
فتعجَّبْ من بني إسرائيل أكثر، شقَّ لهم موسى عليه السلام البحر بعصاه،
ومشوا بين الشقين دون أن تبتل أقدامهم، وأهلكَ لهم عدوهم أمام أنظارهم،
فلما عبروا إلى الضفة الأخرى ورأوا قوماً يعبدون الأصنام،
طلبوا من موسى عليه السَّلام أن يجعل لهم آلهة!
ومن قبل هذا أخرجَ صالح عليه السَّلام لثمود ناقةً من الصخرة،
وبدل أن يؤمنوا بنبوَّتِه ذبحوا الناقة!

الدَّرسُ الثّالث:

الكثير من الناس يُجادلون لأجل الجدال فقط،
وليس بحثاً عن الحقِّ ولا طلباً للهُدى!

يجدُ أحدُهم نفسه في كبرهِ وغروره،
بغضِّ النظر إلى موضوع النقاش الذي أنتم فيه،
من الناس من إذا قلتَ له: إن اللبن أبيض،
لقال لكَ: بل هو أسود!
وإنْ قلتَ له: إن البحر مالح،
لقالَ لكَ: بل هو عذبٌ زُلال!
أمثال هذا لا تحرق دمكَ وتتلف أعصابكَ معهم، وفرَّ منهم فراركَ من الأسد!

الدَّرسُ الرَّابع:

في الدُّنيا أمرانِ يدعوان للعَجب:
جرأة الناس على الله، وحِلمُ اللهِ على النَّاس!
ترى أحدهم متكبراً وكأنّه ليس نهاية المطاف إلى القبر،
ويأكل أحدهم ميراث إخوته وأخواته، وكأنَّ الدُّنيا دامت لغيره حتى تدوم له،
ويبطشُ أحدهم بالمسكين الضعيف، دون أن يرفَّ له جفن أن الله ينظرُ إليه،
ويظلمُ أحدهم زوجته ويهينها دون أن يتذكّر أنه سيُسأل عنها،
أموال تُؤكل بالحرام غصباً وظلماً،
تُصاب بالذُّهول لما ترى وتقول في نفسك: ما أجرأ هؤلاء!
ثم تنظرُ إلى الجهة الأخرى من المشهد،

هذا الرَّبُ القادر القويُّ المنتقم، كيف يحلم على الناس إلى هذا الحدِّ؟!

تباركتْ حكمتُه حين أرادَ أن يقيم الحُجَّة على النَّاسِ بإمهالهم، وتباركَ عدلُه حين أرادَ أن يُؤَخِّر بعض القَصاص إلى يوم القَصاص!

78

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾

حُرِّيتُكَ الشّخصيّة تنتهي عند حُدُودِ اللّه!

نحنُ عبيدٌ للّهِ، والعبدُ في أمْرِ سيّدِه،

يفعَلُ ما أمرَه به، ويترك ما نهاه عنه،

وما وصلَ الواصلون إلى اللّه،

إلا بتركِ ما يُحبُّونه لأجلِ ما يُحبُّه،

يوسفُ عليه السّلام عند زُليخة لم يكُنْ دون شهوة،

ولكنّه كان صاحِبَ تقوى!

وصُهيبُ لم يكُنْ كارهاً للمال،

ولكنّه تركَه واشترى نفسَه،

بالتّرْكِ فقط: رَبِحَ البيعُ أبا يحيى!

79

رمى أبو جهلٍ النبيَّ ﷺ بروْثِ شاةٍ،
وحمزةُ بن عبد المُطَّلبِ لم يُؤمن بعد،
فأُخبرَ حمزةُ بما فعل أبو جهلٍ وهو راجِعٌ من قنصِه وبيده قوس،
فأقبل حتى ضربَ أبا جهلٍ بالقوس،
فقال له أبو جهلٍ يستعطفه: يا أبا يعْلَى، أما ترى ما جاءَ به،
سفَّه عقولنا، وسبَّ آلهتنا، وخالفَ آباءنا؟!
فقال له حمزة: ومن أسفه منكم، تعبدون الحِجارة من دون اللّه!
أشهدُ أن لا إله إلا اللّه لا شريكَ له، وأن محمداً عبده ورسوله!
فأنزل اللّه تعالى قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

الدَّرسُ الأوّل:

كم تعبَ النبيُّ ﷺ ليكونَ لنا دين!
ضربَه أبو جهلٍ بروْثِ الشَّاة،
ووضعَ ابنُ أبي معيط سَلا الجزور على رأسه،
حاصرُوه في شِعبِ أبي طالبٍ وقاطعوه،
رجمُوه في الطَّائفِ حتى سال الدَّمُ من قدميه الشَّريفتين،
اتَّهمُوه بالسِّحر والكذبِ والجنون،

تآمروا لقتله بأنْ يأخذوا من كلِّ قبيلة رجلاً،
فيضربوه ضربةً واحدة ويتفرقَ دمه بين القبائل!
أخرجُوه من قريته التي يُحِبُّ،
قاتلوه في بدرٍ، وشجُّوا رأسَه الشَّريف يوم أُحد،
تآمرتْ عليه الأحزابُ، ونقضتْ العهدَ معه اليهودُ،
وهو في كل هذا صابرٌ محتسب لا يلينُ ولا يفتر،
فقط كي يكون لنا اليومَ دِين!

الدَّرسُ الثَّاني:

إنْ قيل لكَ: إنَّ الدَّمَ لا يصيرُ ماءً فصدِّقْ!
الإنسان تعُزُّ عليه رَحِمَه مهما كانتْ،
ومن قبل توجَّعَ نوحٌ عليه السَّلام لغرقِ ابنه مع القوم الكافرين،
ما انثنتْ عقيدتُه، ولا قلَّ إيمانه،
إنّه شيخُ المرسلين الرَّاسخ في عقيدتِه، الشَّامخِ في إيمانه،
ولكنّه أبٌ من لحم ودم!
أبو طالبٍ أكثر النَّاسِ دفاعاً عن النبيِّ ﷺ،
ولكنّه دفاع قُربى، وحَمِيَّة رَحِم، وحنين دمّ،
كان على دين قريشٍ ولكنّ ابن أخيه لم يُهنْ عنده،
وحمزة حين ضربَ أبا جهلٍ لم يكن قد نطق الشَّهادتين بعد،
ولكنَّ النبيل لا تُرمى رحمُه ويجلسُ هو يتفرَّج!
لا تنتقِصْ من أخٍ أمام أخيه فهو لن يهونَ عنده مهما كان،
ولا تُهِنْ زوجتكَ أمام أهلها فهيَ بُضعة منهم،

الأصلُ ألا تُهِنّها لا في حضورهم ولا في غيابهم،
ولكن إنْ خاصمتَ فبشرفٍ!
بِشَرفِ الفُرسان الذين يُراعون خواطرَ الآخرين ومشاعرَهمُ،
ونهى النبيُّ ﷺ الصَّحابة أن يسبُّوا أبا جهلٍ،
أمـامَ ابنِـه عِكرمـة، هـذا وهـو فرعـونُ هـذه الأمَّـة، لأن فـي سـبِّه أذىً سـيطال ابنَـه!

الدَّرسُ الثَّالث:

غريبةٌ حِجَجُ أهل الباطل وعجيبة،
يمنُّ فرعونُ على موسى عليه السَّلام أنْ ربَّاه في قصرِه،
بينما ينسى أنه استعبدَ قومَه عقوداً طويلة،
وعندما لم يجِدْ قومُ لوطٍ له ذنباً،
عيَّروه بأنّه وأهله: قومٌ يتطهَّرُون!
وأبو جهلٍ في منطقهِ وحُجَّتِه ليس إلا حلقةً في سلسلةٍ طويلة،
بدأتْ مع إبليس حين استنتجَ أنّه خيرٌ من آدم عليه السّلام،
وحُجَّتُه فقط لأنَّه مخلوقٌ من نارٍ، وآدم عليه السَّلام من طين!
ولن تنتهي هذه السِّلسلة إلا بنفخِ إسرافيل في الصور،
وزوالُ أهل الباطل جميعاً عن ظهر هذا الكوكب!
واُنظُرْ إلى قول أبي جهلٍ: سَفَّه عقولنا!
أيُّ عقولٍ هذه التي تئدُ البنتَ حيَّةً،
وتطوفُ بالبيتِ الحرام عُريانة،

وتدورُ معاركُ الثأر بينها أربعينَ سنةً فلا تُبقي ولا تذر!
وسبَّ آلهتنا!
أية آلهة هذه التي تُنحتُ من الحِجارةِ والخشب،
ويُطلبُ منها الحماية وهي عاجزة عن حمايةِ نفسِها،
وتُسأل المشورة وهي عمياءُ لا ترى!
ويُتبرَّكَ بها، والعصفورُ يقضي حاجته على رأسِها!
وخالفَ آبائنا!
أيُّ آباءٍ هؤلاء الذين نحتُوا الأصنامَ لأولادهم ليعبُدوها،
وتحاربُوا لأجل سباقٍ نوقٍ فأفنى بعضُهم بعضاً،
جاهليَّةٌ عمياء لا ترحمُ بشراً ولا شجراً ولا حجراً،
جلفاء قاسية إلا بعضاً من مكارمِ الأخلاقِ هي بقايا النُّبوةِ الأولى!

الدَّرسُ الرَّابع:

أوَمَنْ كانَ ميتاً فأحييناه!
يا لدقَّةِ التَّعبيرِ القرآنيِّ وبلاغتِه!
بالكُفر يصيرُ الإنسانُ قبراً يسيرُ على قدمين!
وبالإيمانِ باللّهِ تكون ولادته الحقيقيِّة!
وكلُّ معصيةٍ هي موتٌ بمقدار ما فيها من بُعدٍ عن اللّه،
والحياة الحقيقيَّة ليستْ حياة هذا الجسد الفاني،
إنّها حياة هذه الرُّوح الباقية،
حياة هذا القلب المُمتلئ باللّه،

حياة هذا العقل الواعي المدرك لحجمِ الإنسان الحقيقيِّ والغاية من خلقِه،

بعيداً عن اللّهِ أنتَ فقيرٌ ولو ملكتَ الدُّنيا،

تعيسٌ ولو بلغتْ أصداءُ ضحكاتك عنانَ السَّماء،

تائهٌ ولو كان معكَ كلّ بوصلات العالم،

تافِهٌ وإن كنتَ من المشاهير،

جاهلٌ وإن حملتَ الشَّهادات العليا،

وضيعٌ وإن تقلَّدتَ المناصب الرَّفيعة،

ومع اللّهِ كل فقرٍ غنى، وكل مرضٍ عافية،

من لم يفته أن يكون عبداً للّه،

لم يفته شيءً من الدُّنيا وإن فاتته كلُّها!

80

﴿وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾

نحن مسؤُولونَ عن السّعي لا عن النّتيجة،

عن الطّريقِ لا عن الوُصول،

عن البِذار لا عن الحَصاد،

تخيّلْ أنّه سيأتي يوم القيامة نبيٌّ لم يُؤمن به أحد!

ولكن هذا لن يُنقِصَ شيئاً من نُبوَّتِه،

لقد سعى سَعْيَ الأنبياء،

ومشى على طريقِ الأنبياء،

وبذَرَ بِذَارَ الأنبياء،

أدّى ما عليه وأقامَ الحُجّةَ على النَّاس!

طلبَ اللّهُ تعالى منكَ السّعيَ ولمْ يسألكَ عن النّتائج،

فانْشَغِلْ بما هو مطلوبٌ منكَ،

ولا تنشَغِلْ بما لستَ مسؤولاً عنه!